

الكتاب وجبهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية العدد ١٤٢ - السنة الثانية عشرة - نوفمبر ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهاً
Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 142 - November 2010

محمود الخضيرى وفكرى أندراوس

مشاكل الأقباط / مشاكل المسلمين

◆ أنا الآن مسلمة .. تعلمسي نانا أنا
◆ في جبهة هذه انا لم .. تعلمسي نانا أنا
◆ في جبهة هذه انا لم .. تعلمسي نانا أنا



◆ Bob Woodward Behind Closed Doors
◆ Revolution Tweeting?

سليمه لستوني ٢٠١٥

الكتب
وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حامى التونى

كتّاب العدد:

- السيد أمين شلبى.. سفير مصرى سابق، المدير التنفيذي للمجلس المصرى للشئون الخارجية
أمة العليم السوسوة.. الأمين العام المساعد للأمم المتحدة.
أيمن الصياد.. صحفى.
باربرا كيفيات.. صحفية تكتب لمجلة تايم.
ثيودور إى. ماكاريك.. رجل دين كاثوليكي - واشنطن.
رشيد قويدر.. كاتب فلسطيني.
روبرت دارنتون.. أستاذ فى جامعة هارفارد، ومدير مكتبة الجامعة.
زكى سالم.. كاتب مصرى يحمل درجة الدكتوراه فى الفلسفة.
ستيف كول.. صحفى؛ مدير تحرير سابق لواشنطن بوست، ويكتب حاليا لنيويورك.
فكرى أندراوس.. كاتب مصرى مقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية.
لورين بوث.. صحفية وناشطة بريطانية.
مازن النجار.. كاتب وباحث فلسطيني، يحمل درجة الدكتوراه فى الهندسة.
مالكولم جلادويل.. صحفى يكتب لمجلة نيويورك.
محمود الخضيرى.. نائب رئيس محكمة النقض السابق فى مصر.
محمود قاسم.. صحفى مصرى.

رسوم العدد

عماد حجاج - محمد حجي

Deng Coy - Michael Kountouris - Monte Wolverton - Pavel Constantin



يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعائم ورقية
أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء
منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد
بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠
دولاراً أمريكياً - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبيه المصرى - ص. ب. ٢٣ البانوراما - مدينة نصر

هاتف: ٢٤٠٢٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

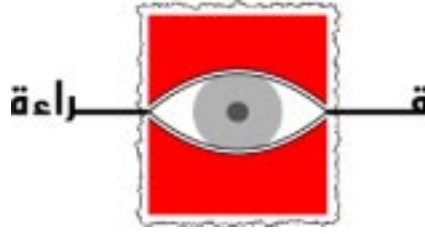
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥
درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠
ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب
٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA \$ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

محتويات العدد:

- أيمن الصياد ٤
قراءة: المسلمون.. والأقباط... والوطن
• محمود الخضيرى ٦
مشاكل المسلمين مشاكل الأقباط
• فكرى أندراوس ٨
المسلمون والأقباط
• مالكولم جلادويل ١٢
ولكن.. لا ثورة هناك «Twitter & Facebook»
• السيد أمين شلبى ١٨
الإسلام والمسلمون.. أسئلة الوجوه المتعددة
• لورين بوث ٢٦
أنا الآن مسلمة
• أمة العليم السوسوة ٢٨
أسئلة العرب المناخية
• ستيف كول ٣٠
خلف الأبواب المغلقة
• الكاريديناى ثيودور إى. ماكاريك ٣١
الضحايا المنسيون
• مازن النجار ٣٣
حدث فى منتصف الليل
• محمود قاسم ٣٦
المدينة والفيلم «اتساع بلا نهاية»
• زكى سالم ٤٤
العقل العربى ومجتمع المعرفة
• روبرت دارنتون ٥٠
محاضرات: المكتبة البديل
• باربرا كيفيات ٥٢
إيجار أم تملك.. هل يجب أن تشتري بيتاً؟
• روبرت كولنز ٥٦
تاريخ السودان الحديث
• محيى الدين اللباد ٦١
الخط.. الحرف.. المقدس
• إصدارات جديدة ٦٦
• ألفريد ستيبان وجيرمى مينتشك ٧٤
مقالات: انظروا إلى إندونيسيا.. هذا إسلام «آخر»



المسلمون... والأقباط... والوطن



أيمن الصياد

والتباين من سنن الخلق.. «ولذلك خلقهم» (هود ١١٩). ويعلم المتخصصون أن التنوع يفترض وجود حالة من «التوازن الطبيعي» وأن لا مشكلة «طبيعية» هناك، ما لم تتدخل يد تعبت بهذا التوازن. ثم أن المشكلة لم تكن أبداً في التنوع، وإنما في كفاءة المجتمع / الدولة في إدارة هذا التنوع. وأن لا سبيل لذلك إلا باعتماد ديموقراطية «حقيقية» ويا احترام «مجرد» للقانون.

● أن الذين يتصورون أن «تهميش الدين» يمكن أن يكون حلاً لما نراه من استقطاب طائفي، ربما لا يكون رأيهم صحيحاً بالضرورة. فالحكمة ليست في إنكار اختلافات هي موجودة في الحقيقة، وإنما في ترويج ثقافة احترام الآخر؛ الذي هو «مختلف» بحكم كونه «آخر». ولا غضاضة أبداً في ذلك. إذ ليس المطلوب طبعاً أن «يؤمن» المسلم بأن المسيحي على حق فيما يؤمن به، كما أنه من غير المطلوب طبعاً أن «يشهد» المسيحي بأن محمداً رسول الله. فلكل دين عقيدته التي هي بالضرورة تختلف عن الأخرى فيما تراه «كفراً» وماتحسبه من «مقتضيات» الإيمان. وعليه، يصبح من باب التزيد، أن يتحسس بعضهم من مقال «فقهى» كتبه محمد عمارة في مجلة الأزهر، أو أن يعترض الآخرون على ما يقوله القس في مدارس الأحد. أو أن تندلع «مظاهرات القصاص» احتجاجاً لما قاله الأنبا بيشوى.. «لكم دينكم ولى دين» أظنه القول الفصل الكفيل إدراكنا الحقيقي له بنزع فتيل أزمت كثيرة، إذ لا جديد، بالتأكيد، فيما كتبه عمارة أو فيما قاله بيشوى، فالكلام موجود ومعروف منذ أربعة عشر قرناً. ماهو الجديد إذن؟ لعله المناخ. أو بالأحرى لعلها تبعات السياسة.

.....

.....

وبعد،

نعيد القول بأنه يخطئ من يعتقد أن ما يجري هنا وهناك «محض شأن طائفي».. لا غير، كما يخطئ من ينظر إلى صورة تظاهرات الكنائس أو الجوامع، أو الدماء المهدرة في شوارع نجع حمادى الفقيرة، أو النيران التي اشتعلت في منازل «النواهض» الأكثر فقراً، بمعزل عن المشهد السياسى العام المسكون بالعنف واليأس و«التعصب». كما يخطئ. وربما قبل ذلك كله. من يعتمد «الإقصاء» سياسة، أياً من كان المستهدف بها؛ أقباطاً أو أخواناً مسلمين.. ثم يخرج علينا ليتحدث عن وطن «لجميع». ■

(١) تنشر «وجهات نظر» في عدد قادم عرضاً لدراسة أكاديمية عن العنف الطائفي في مصر في عامين ٢٠٠٨: ٢٠٠٩.

■ ليست هذه هي المرة الأولى التي تفتح فيها «وجهات نظر» هذا الملف. ولا نحسبها الأخيرة، وإن كنا نتمنى ذلك^(١). فقبل أن يجف مداد البيان المشترك لشيخ الأزهر والبابا، كانت قرية «النواهض» / أبو طشت، محافظة قنا تحترق. أو إن شئنا الدقة، كان بعض «الجيران» قد أشعلوا النار في ٢٠ منزلاً ومحلاً تجارياً لجيرانهم «الشركاء» في الوطن» والسبب كالعادة قصة أو شائعة. لافرق كبير. «عاطفية».

وأظن أن كلنا بات متيقناً أن هذه الحادثة، سواء عظم الاهتمام الإعلامي بها (كما جرى في حادثتي فرشوط ونجع حمادى)، أو تضاعف؛ لأسباب باتت مفهومة. فإنها لن تكون الأخيرة. طالما بقي وراء الأكمة ما وراءها؛ من حقائق «على الأرض»، ومصالح للبعض.. وحسابات للآخرين.

كيف وصلنا الى هنا؟

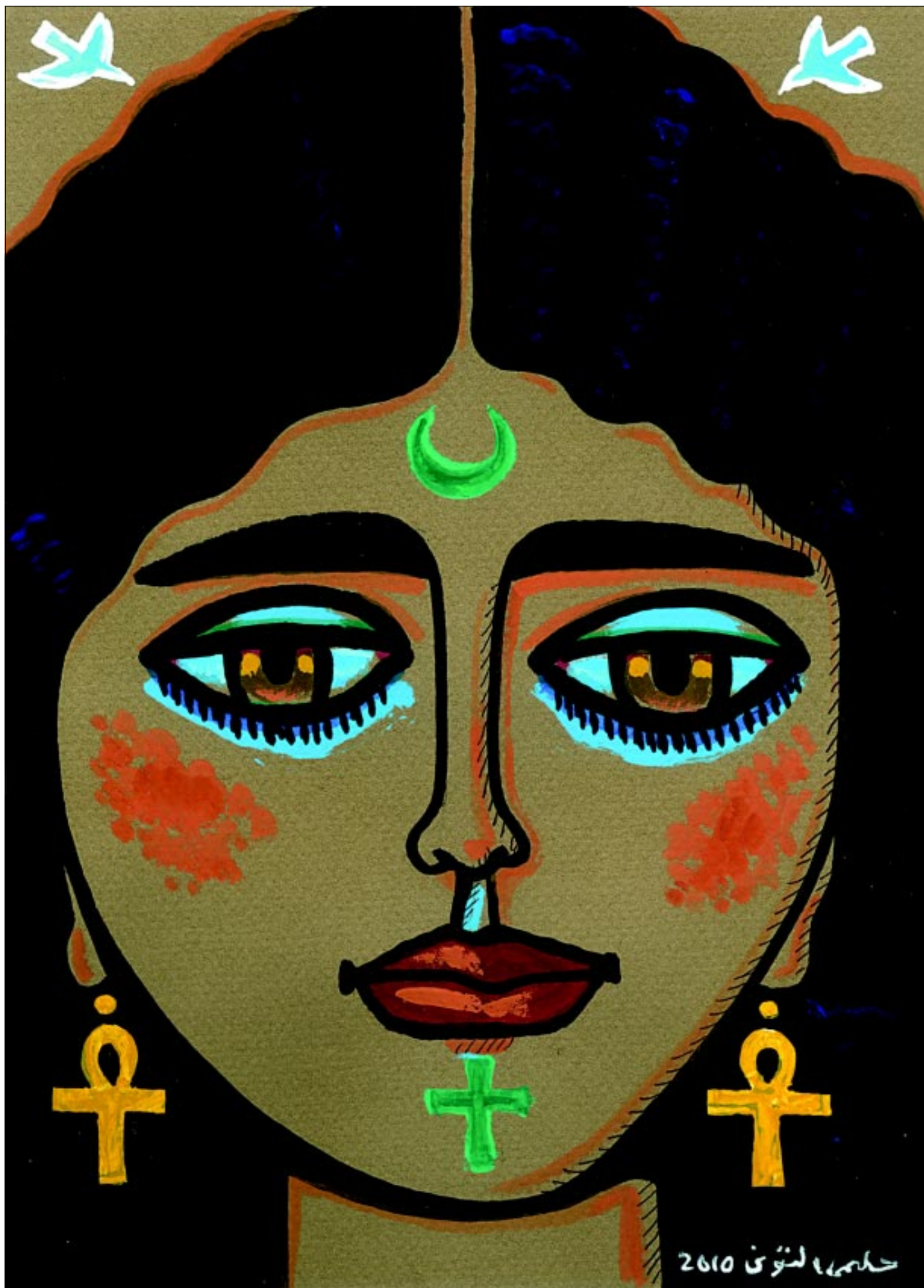
القصة طويلة، وكنا قد أفردنا للنظر فيها صفحات من هذه المجلة قبل أشهر (عدد فبراير ٢٠١٠) نشرنا فيها للأستاذ هيكल والمستشار البشرى ونصاً لكلمة للبابا شنودة. ولأن لكل قصة ذروة Plot كما يقول أساتذة الدراما، فربما كانت الذروة في تلك القصة التي تعود فصولها الأولى ربما إلى أربعة عقود مضت، كانت يوم أقحم البعض الرقم القبطي في حسابات السياسة، فلم يتورع عن الترويج لحالة من «الفرع» لدى أقباط هذا الوطن. بعد أن نجح عدد من الإسلاميين في الوصول عبر صناديق الاقتراع قبل خمس سنوات إلى البرلمان.

ويومها. وأيضاً لحسابات أمنية قصيرة النظر. أجهض «أصحاب القرار» محاولة سكندرية لتفاهم إسلامى مسيحى أساسه «المواطنة». كان قد بادرها أولئك الذين أزج البعض وصولهم للبرلمان، وكان من شأنها. لو اكتملت. أن توجد مناخاً «أفضل» بالتأكيد من ذلك الذى بدا غيماً لا يرحى له انقشاعاً.

في الملف أوراق كثيرة.. وللأسف أصابع كثيرة. ولكن يبقى على هامشه وربما في صلبه عدد من الملاحظات والحقائق. نكررها. تأكيداً:

● أن للمناخ «المحتقن» تاريخ من الأزمت التي تركت ندوباً هنا وجروحاً هناك. كما كان الاحتكام بشأنها إلى غير القانون «المجرد»، كفيلاً بإثارة شكوك بقيت في النفوس، بعد أن تصور القائمون على الأمر أنهم «بالماءات» أو بـ «دفن الجمار الملتهبة» تحت الرماد البارد، قد نجحوا في «احتواء الأزمة». وأن الزمن كفيل بـ «دفن التفاصيل». والأم، يعرف المتصفحون للإنترنت والمترددون على غرف المحادثة Chat Rooms، أنه لم يكن أبداً هكذا.

● لا بد أن ندرك جميعاً أن التنوع. بحكم قوانين الطبيعة - ثراء. وأن الاختلاف





لوجدنا حلولاً لمشاكل المسلمين الحقيقية
لاختفت مشاكل الأقباط



مشاكل المسلمين مشاكل الأقباط



محمود الخضيرى

على علاقة الأقباط والمسلمين وقد ساعد تصرف إسرائيل على ذلك لتفتيت المنطقة حتى تستطيع أن تعيش كأقلية أخرى فى المنطقة بدلاً من أن تكون وحيدة فى محيط عربى إسلامى، ولكن يجب ألا نلوم إسرائيل على كل ما يحدث لنا دون نظر لأنفسنا أولاً، أعتقد أن الأقباط - مسيحي الشرق عموماً - يجب ويستطيعون أن يكونوا سنداً مهماً للوطن فى هذا الصراع الدائر كما كانوا خلال الثورة المصرية فى أوائل القرن الماضى - ويمتد ذلك لمسيحي شرقنا العربى - لتحقيق الاستقلال ولكن يجب أن نتاح لهم الفرصة...

إن علاقة الأقباط والمسلمين المتعثرة ما هى إلا إحدى مشاكل مصر الثانوية، إن مصر تغلّى بمشكلات أكثر أهمية، إن مشاكلنا الحقيقية هى غياب الديمقراطية الحقيقية، وغياب المؤسسات المستقلة، وسوء التعليم بجميع فروع وألوانه، بل قد يكون أهمها التعليم الدينى والإعلام السيئ وخصوصاً ما يوصف بأنه قومى، والفساد، والقهر السياسى، وعدم قدرة الدولة على خلق فرص اقتصادية لتوفير العمالة للكثيرين، تآكل الطبقة الوسطى، والانحدار الخلقى رغم مظاهر التدين الكثيرة والكاذبة... وبعد ذلك تأتى مشاكل الأقباط والمسلمين. إننا لو وجدنا حلولاً لمشاكل المسلمين الحقيقية

وقتها سبعا وعشرين عاماً حيث إنى من مواليد يناير سنة ١٩٤٠ وكان كل مصرى فى هذا الوقت يشعر بمرارة فى فمه لا يعرف لها سبباً، وإن كان السبب فى الحقيقة معروفاً وهو إحساس المصرى ذى السبعة آلاف سنة حضارة كما يحلو لحكامه التفاخر دوماً. إحساس المصرى أنه مستعمر من إسرائيل أصغر وأحق دولة فى العالم وهو إحساس مرير - لم يكن ذلك إحساسنا يوم أن كنا مستعمرين من إنجلترا سيدة العالم فى هذا الوقت التى كانت تستعمر نصف بلاد الدنيا، أما اليوم فإن إحساس المهانة شديد بل قل هو أشد من أن يحتمل. وإذا كان الشعب المصرى قد انتصر فى حرب ١٩٧٣ فليس ذلك بسبب السلاح والعتاد بل بسبب عزيمته الشباب والرجال الذين كان الدافع الأول لهم على النصر هو هذا الإحساس بالذل والعار.

يقول المؤلف فى مقدمة كتابه إنه «إذا نظرنا لتاريخنا سنجد أن هذا الاحتقان والتشنج الذى نراه الآن وخصوصاً فى حركات التطرف الدينى، ظاهرة تنتاب الدولة كواب الطاعون فى حالة ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجى، ونحن نعانى من كليهما الآن» والمؤلف ينقل هذا الكلام من كتاب شخصية مصر لجمال حمدان وهو قول أعتقد أنه صادق ثم يقول المؤلف: «لقد انعكست ظروف محلية وإقليمية وعالمية

عودتى من أمريكا كنت أتوقع أن أبذل جهداً فى متابعة موضوعه حيث إن مادته يمكن أن تكون سبباً فى أن يجد القارئ نفسه يبذل الجهد فى متابعة الموضوع إلا أننى فى الحقيقة لم أجد أنى فى حاجة إلى بذل جهد كبير فى متابعة موضوعاته بل على العكس وجدت سهولة ويسر فى المتابعة جعلنى أصرح بالكتاب معى أينما ذهبت حتى أشغل كل وقت فراغ فى القراءة لدرجة أن بعض المقربين منى كان يلفت أنظارهم حرصى الدائم على وجود الكتاب معى أينما ذهبت مما كان يدفعهم إلى تصفحه وإبداء الرغبة فى قراءته بعد أن أفرغ منه، والحقيقة أن طريقة وأسلوب الكتاب يكاد يتطابق مع شخصية مؤلفه فهى شخصية ودودة بسيطة ينفذ إلى قلبك من أول لقاء وقد أحسست فى المرات القليلة التى التقيت فيه أننا صرنا أصدقاء نتمازح كأننا تعارفنا منذ أمد بعيد.



يبدأ المؤلف حديثه فى مقدمة الكتاب التى هى فى نفس الوقت الفصل الأول منه عما حدث لمصر بعد هزيمة ١٩٦٧ وهو عندما يتحدث عن هذه الهزيمة يذكرنى بشبابى فى هذا الوقت حيث كانت سنى

■ ■ عندما أهدانى صديقى الأستاذ فكرى أندراوس مؤلفه «المسلمون والأقباط فى التاريخ» أثناء زيارتى لأمريكا رحبت بهذا الإهداء حيث إنه من موضوعات الساعة فى مصر والشغل الشاغل لكثير من أهلها سواء المسلمين أو المسيحيين المحبين لوطنهم الراغبين فى رفعة شأنه المؤمنين بأنه لا تقدم ولا رقى لمصر ما لم يتحد عنصر الأمة، وهما فى الحقيقة متحدان لا يفرقهما إلا الوشاية ومحاولة الوقعة بينهما - وهو عادة ما يفرق بين الأخوة - بدليل أنه عند وجود خطر يمس سلامة الوطن لا تجد إنساناً يفكر فى هذا الأمر وكيف يفكر فيه وهو يرى يد العدو لا تفرق فى العدوان بين مسجد وكنيسة أو بين مسلم ومسيحي الكل أمام قنابل العدو أهداف يريد القضاء عليها.

هذا هو الشعور العام بين أفراد الشعب المصرى فى أوقات الشدة وهى الأوقات التى يظهر فيها العدو الحقيقى والصديق الوفى.

عندما شرعت فى قراءة الكتاب بعد

للاستزادة:
المسلمون والأقباط فى التاريخ
فكرى أندراوس
دار الثقافة الجديدة
القاهرة - ٢٠١٠



الإسلام في حاجة إلى ذلك، وكان لبس الغيار يفرض على أهل الذمة أحيانا حتى يحصل الحكام على رشاوى لإلغاء العمل بلبس الغيار». هكذا كان الجهال من حكام المسلمين يتصرفون بالطريقة التي تخالف تعاليم الإسلام وتسعى إليه. ويقول المؤلف عن أحداث الفتنة الطائفية في عهد العثمانيين والمماليك نقلا عن محمد عفيفي: «إن حوادث الفتنة الطائفية لا تقوم إلا في ظل إدارة ضعيفة أو معاناة اقتصادية مصحوبة بظلم من الإدارة تنعكس آثاره على الرعية، لم يكن ذلك صحيحا في تلك الفترة فقط، بل كان صحيحا على طول التاريخ بدون تحديد من تكون الأقلية ومن تكون الأكثرية، ولأن الحكام مماليك كانوا أم أتراكا أجنبيا عن المصريين فأحيانا استغلوا سياسة فرق تسد بين الأقباط والمسلمين».

ويحدثنا المؤلف عن الأخوة التي سادت بين المصريين في عهد الخديوي إسماعيل حيث انتخب أقباط في مجلس الشورى ويرصد المؤلف عن المستشار طارق البشري قول محمد الشواربي في أحد اجتماعات المجلس: «إن الأقباط لن يخرجوا عن كونهم من أبناء الوطن، ولذلك يجب أن يكونوا ضمن المدارس التي تعمل بالمديريات ولا يكونوا خارجها متى أرادوا دخولها، ولم يكتف بترشيح الأقباط وانتخاب بعضهم في مجلس الشورى، بل تم تعيين بعضهم قضاة في المحاكم، لقد شهد بعض الزوار الأجانب تلك الفترة بروح المساواة التي سادت ذلك العصر، فتقول لوسى دون جوردون: «إن أهالي بيا ومعظمهم مسلمون انتخبوا جرجس القبطي عمدة لهذه البلدة، وكان بعض الأقباط يحضرون الاحتفالات بسفر المحمل مندوبين عن الخديوي وقد قررت الحكومة خلال وزارة بطرس غالى الاحتفال بأول السنة الهجرية».

يحدثنا المؤلف عن رأى الأقباط في تمثيل الأقليات في المجالس الشعبية وخاصة البرلمان فيقول: «وقف الوفد كتلة واحدة ضد تمثيل الأقليات، كان الأقباط يمثلون قسما هاما ممن رفضوا مبدأ التمثيل الطائفي سواء كان على أسس وطنية أو علمانية، وكان يصدر عن ثقة في مستقبل مصر بعد ١٩١٩ وهو مستقبل يستحيل على العامة أن تتخيله وقتها بغير الوفد وكان لسعد زغلول رأى قديم في عدم تمثيل الأقليات عند مناقشة قانون الجمعية التشريعية، أما أعضاء الوفد البارزين من الأقباط من أمثال



ويصا واصف، راغب إسكندر،

للأقباط يسأل المؤلف عن صلة كل ذلك بمبادئ الإسلام ويجب في موضوعية: أعتقد أنه لا توجد أى علاقة، مبادئ الإسلام كانت بعيدة عن ذلك تماما، كانت كل تلك المصائب نتيجة سوء الإدارة وفساد وجهل بعض الحكام، والحاجة لجمع المال وكانت النتيجة هي تدهور مصر والمصريين، مع إهمال الإصلاحات العامة، ثم يستطرد في موضع آخر إلى القول بعد أن ذكر ما فعله يزيد بن معاوية بأهل المدينة ومكة: «لم يكن هناك فرق كبير بين ما فعله بعض الحكام من تعسف وبطش ضد الأهالي، سواء كانوا مسلمي مكة والمدينة أو أقباط مصر في سبيل الحفاظ على قوتهم ومكانتهم وتحصيل المال».



يحدثنا المؤلف عن أمر كنا نسمع عنه في الصغر في صعيد مصر وكنا نستنكره كمسلمين أشد الاستنكار لعلمنا أنه خارج تماما من تعاليم الإسلام وهو ما سماه المؤلف لبس الغيار ويقول: «إن لبس الغيار كان يفرض أحيانا وكان بعض الفقهاء والحكام يتفننون في طرق الإذلال على الرغم أن لبس الغيار لم تكن له أصول في أيام الإسلام الأولى كما سبق أن أشرت، والمقصود بلبس الغيار أن يخالف لبس أهل الذمة لبس المسلمين، كان اللون الأزرق في الغالب للمسيحيين، والأصفر لليهود وإن كانت الألوان تتغير حسب أهواء المتحكمين في الأمر، كان المهم ألا تتشابه مع ملابس علماء المسلمين، وكان التميز أحيانا يمتد إلى ركوب الدواب ومنع أهل الذمة من ركوب الخيل، ويمتد ذلك أيضا إلى دخول الحمامات العامة كل ذلك لإشعار القبطي أنه دون المسلم لإعلاء شأن المسلم والإسلام، وكان

من مخبئه ودخل الإسكندرية بمظاهر ترحيب من الأقباط بعد غياب ثلاث عشرة سنة».

من استعراض جميع فصول الكتاب نجد المؤلف في حيدة تامة يستعرض ما حدث للأقباط من بعض الحكام سواء من إنصاف أو اضطهاد، ويشعر منه القارئ أن علاقة الأقباط بالمسلمين في مصر على مر العصور كانت تمر بأزمات ومنعطفات صعبة أحيانا وجيدة أحيانا أخرى وكان ذلك يرجع إلى عوامل عدة منها أن الحاكم الظالم كان ظلمه يمتد ليشمل الاثنين معا المسلمين والمسيحيين مثل الحاكم بأمر الله الفاطمي، وأن الحاكم العادل كان الاثنان يستظلان بعده وأن اضطهاد الأقباط ليس أمرا نابعا من تعاليم الإسلام وقيمه، بل هو على العكس فهم خاطئ لتعاليم الإسلام، وأن التعصب من كلا الجانبين هو أمر مخالف للشريعة الإسلامية والمسيحية، وأن الأزمات والعدوان الخارجى كانا هما العاملين اللذان يوحدان جميع عناصر الأمة المصرية كما حدث في عهد قريب في ثورة ١٩١٩ كما يحكى لنا التاريخ الذي سجله المؤلف بكل دقة وأمانة، وأن الحاكم الظالم المستبد والمستعمر الغاشم أول ما يفكر فيه هو التفرقة بين عنصرى الأمة لأن في اتحادهما سويا قوة يضعف أمامها قوة الاستبداد والظلم، ونشاهد في أيامنا هذه محاولات من الحكومة المصرية لتفريق عنصرى الأمة وضربهما ببعض وصولا إلى زعزعة الاستقرار حتى تتخذ الحكومة ذريعة لاستبداد وتزوير الانتخابات حتى تظل تسيطر على البلاد ونظل نحن يضرب بعضنا رقاب بعض.

عندما يتعرض المؤلف للاختلاف في معاملة الأقباط في ظل الحكام المسلمين المختلفين في الدولة الأموية والعباسيين ووقوع بعض الاضطهاد

لاختفت مشاكل الأقباط». هكذا يقول في مقدمة كتابه وهي قوله حق ونظرة صادقة لحقيقة مشاكل مصر ومشاكل المسيحيين والأقباط فيها. بعد هذه المقدمة يدخل المؤلف إلى صلب الموضوع يبدأ المؤلف حديثه من الفصل الثاني عن دخول المسيحية لمصر فيقول: دخلت المسيحية مصر منذ القرن الأول حيث كانت العلاقة بين أورشليم والإسكندرية قوية وسريعة بفضل التجارة ووجود الجالية اليهودية الكبيرة بالإسكندرية، وكانت المسيحية في أوائل أيامها موجهة لليهود وتقول التقاليد الكنسية المصرية إن القديس مرقس هو الذى أدخل المسيحية لمصر وانتشرت المسيحية بمصر وفي حوض البحر الأبيض منذ القرن الأول، إلا أن عدد المسيحيين لم يزد كثيرا إلا في أوائل القرن الثالث وقد بدأ اضطهاد المسيحيين بنبيرون سنة ٥٤٤ إلى ٥٩٠، حين أحرق مدينة روما ومن أجل إرضاء الجماهير اتهم المسيحيين بحرقها وقد كان هذا الإمبراطور مختلا عقليا ويستمر المؤلف في استعراض أحوال المسيحيين في مصر من علو وانخفاض تبعاً لشخصية الحاكم حتى يأتى إلى الفصل الثالث عن دخول الإسلام إلى مصر على يد عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ويقول عن هذه الفترة: وإن كان العرب لم يتدخلوا في شئون العقيدة إلا أن الخطر الأكبر جاء فيما بعد من تحول البعض ثم الكثير من المصريين للإسلام لظروف كثيرة ليصبح الأقباط أقلية عانت في بعض الأوقات بلاء عظيما، كان بقاء الأقباط في مصر لليوم رغم اختفائهم من بلاد أخرى كثيرة، يعكس طبيعة الشعب المصرى بما يملك من رواسب حضارية وتسامح واعترااف الإسلام بأهل الكتاب خصوصا مسيحي مصر. ويطلق المؤلف على فتح مصر، تعبير احتلال مصر، وهو تعبير يختلف معه فيه الكثيرون من المؤرخين. ويستعرض تاريخ هذا الفتح ويقول عن عمرو بن العاص قائد هذا الفتح: «كان مركز عمرو يزداد قوة، وكان يحصل الخراج والجزية التي تقررت ولكنه لم يأخذ شيئا من أموال الكنيسة، كما أنه لم ينهبها، بل حماها طوال فترة حكمه كما قال حنا النقيوسى، والحقيقة أن عمرو كان لديه حس سياسى ويعد أفضل من حكم مصر من العرب خلال حكم الخلفاء الراشدين، ثم خلال حكم الأمويين والعباسيين، كما يقول وبعد أن استقرت الأمور لعمرو أصدر بيانا يعلن فيه عهد الحماية والأمان على البطريرك بنيامين، فعاد



الاحتقان والتشنج الذى نراه

الآن وخصوصا في حركات التطرف الدينى،

ظاهرة تنتاب الدولة كوباء الطاعون في حالة

ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجى،

ونحن نعانى من كليهما الآن»



لماذا يعيش بعض الأقباط بهذا الخوف؟ لماذا يخشى الأقباط من تنفيذ مبادئ الشريعة الإسلامية، مع أن التفسير المستنير للشريعة لا يضّر الأقباط لأنه لا يفرض على غير المسلمين ما يفرضه عليهم دينهم؟



الأقباط والمسلمون

في مصر

أسئلة الهوى

فكرى أنندراوس

بعد سنين من قصة صديقى الذى خشى أن يطرد المسلمون الأقباط من مصر، وبعد أن بدأت أدرس تاريخ مصر وأنا فى المهجر، وجدت بعضاً من أسباب قلق أو خوف صديقى من أن يطرد الأقباط من مصر. وجدت أن هناك ثغرات واسعة فى وعينا بالتاريخ؛ هذه الفجوات المظلمة فى العقل الجمعى أشبه ما تكون بالتمزقات فى ذاكرة الأمة، هكذا وصفها غالى شكرى^(١). يعتقد غالى شكرى أن النقص الثقافى والتشوه الذى يصيب البنية الذهنية يأتى فى مقدمة الأسباب التى تؤدى إلى الاحتقان الطائفى الذى نراه ليس فى مصر فقط بل فى محيطنا العربى. هذه الثغرات أو الجزء المتغاضى عنه أو المنسى من تاريخنا يكمن وراءه الخوف الزائد لدى البعض. قد يكون ذلك بصورة أكبر لدى الأقباط حيث إن الأقليات عمومًا تغالى فى الشعور بالخطر، يدفعها لذلك غريزة حب البقاء. خصوصاً فى وجود رؤى مختلفة ومتباعدة عما يعنيه الإسلام السياسى وتنفيذ الشريعة.

ما زال هذا الجزء المفقود من تاريخنا والذى أشار إليه غالى شكرى موجوداً فى العقل الباطن بصورة ما، يسترجع عند الشعور بالخطر. ويقول رشدى سعيد- وهو على حق- إنه على طول التاريخ لم تحدث الفتنة الطائفية إلا فى أوقات متباعدة نتيجة حاكم ضعيف يحاول أن يشغل الناس عنه وعن فسادة وفشله^(٢). ورغم قلة هذه الحوادث إلا أنها بقيت فى العقل الباطن بصورة ما، بل أحياناً بصورة غير موضوعية، كما حدث لصديقى خلال حرب ١٩٦٧. لا أعتقد أنه

والمسلمين، وكانت هناك حكومة قوية يساندها برنامج وطنى لاقى التأييد العام. أما بعد هزيمة ١٩٦٧ ووضوح فشل بعض نواحي النظام الحاكم بالإضافة إلى تغيرات إقليمية وعالمية، كان من بعض نتائج ذلك أن هزيمة ١٩٦٧ قد هزت الكيان المصرى وما زالت. الهزيمة فى حد ذاتها قد لا تمثل الخطر الأكبر، حيث إن الدول تستطيع - إن أرادت - أن تحقق النصر بمعالجة الأسباب الحقيقية للهزيمة، ومصر فى إمكانها ذلك (لقد قال عزيز صدقى رئيس الوزراء السابق ورائد الصناعة المصرية الحديثة: «إن مصر إن أرادت فعلت») ولكن ما هى إرادة مصر الحقيقية الآن؟



لقد خشى من لهم رؤية مستقبلية من أمثال طارق البشرى أن تلك الهزيمة إن لم تعالج أسبابها قد تترك ظلالها على قوة التماسك فى المجتمع المصرى، وقد تفتتت صلابته^(٣). للأسف إن بعضاً من ذلك قد حدث فعلاً. بدأ الوطن يتحول من كيان واحد إلى جزر منعزلة وضللتنا الطريق. لقد أصبح من السهل اهتزاز الوطن بأكمله لمجرد حادث بسيط قد لا يستحق الكثير من الاهتمام من أمثال اعتناق شخص ما ديناً غير دينه فيثور الكثيرون ثم تهدأ العاصفة دون أن نحل أى إشكال جذرياً أو أن نتعمق فى أسباب المشكلة الحقيقية والتى قد يكون أهم أسبابها الخوف والقلق اللذان أصبحنا نعيش فيهما.

■ ■ كنت أنا ومجموعة من الشباب لا ندرى ماذا نفعل خلال حرب ١٩٦٧، فكنا نسهر الليالى قلقين على مصير الحرب والوطن، كنا نمشى فى الشوارع نلصق الإعلانات المشجعة على الحوائط من أمثال «حنارب» بالإضافة إلى «طفى النور» وكأننا بذلك ساهمنا فى الجهود الحربى. وعندما لاحظ صديق قبضى تحمسى الذى اعتبره زائداً قال لى: «هل تدرى أنهم لو طردوا اليهود من فلسطين فسيطردوا الأقباط من مصر بعد ذلك». لم أصدق ما قاله صديقى واعتبرته حين ذلك وللآن مجرد هراء؛ فالأقباط كانوا فى مصر منذ القدم والاستعمار الصليبي الصهيونى لفلسطين ليس له علاقة بذلك. ولكن ما بقى معنى من ذلك الحديث هو: كيف ولماذا فكر صديقى على هذا النحو؟ والغريب أن هذا الصديق له علاقات عذبة مع أصدقائنا المسلمين، بل ولم ألاحظ أى تعصب فى تصرفاته، بل ولم أره مرة واحدة يذهب إلى الكنيسة! لماذا يعيش بعض الأقباط بهذا الخوف؟ لقد تزايد هذا الخوف بعد الازدياد فى المد الإسلامى السياسى بعد ١٩٦٧. والآن لماذا يخشى الأقباط من تنفيذ مبادئ الشريعة الإسلامية، مع أن التفسير المستنير للشريعة لا يضّر الأقباط لأنه لا يفرض على غير المسلمين ما يفرضه عليهم دينهم؟ حيث إن الأديان الإلهية تلتقى فى محتوى العقيدة فإنها تتمايز من حيث شرائعها وأحكامها.

كانت حرب ١٩٦٧ نقطة محورية فى تاريخنا الحديث. قبل تلك الحرب لم تكن هناك مشاكل تذكر بين الأقباط

وسلامة ميخائيل وغيرهم، فقد عارضوا مبدأ تمثيل الأقليات وبعضهم هاجم دوس لرأيه فى وجوب تمثيل الأقليات، وقد رد سلامة موسى على رأى توفيق دوس ينبهه إلى أن تمثيل الأقليات لا يفيد الأقباط، لأن النظام البرلمانى هو نظام حكم الأكثرية، ولا تجدى الأقلية فى البرلمان إلا أن يكون لديها الأمل فى أن تصبح أكثرية، ولا يتوافر ذلك إلا للأقليات السياسية ولن يفيد القبط ما يحفظ لهم من مقاعد مادامت الأكثرية لا تسلم بمطالبهم فى مشروع ما». ويقول المؤلف: «انتهت مشكلة تمثيل الأقباط برفضها الجماهيرى الواسع على نطاق المصريين عامة والأقباط خاصة، وجاءت اللجنة العامة للدستور فرفضتها بالأغلبية». هكذا كانت الروح بين الأقباط والمسلمين فما بالنا نرى عكس ذلك فى أيامنا هذه، وهكذا نجد المؤلف يتنقل تاريخياً عبر العصور واصفاً حالة الأقباط مع حالة المسلمين فى موضوعية تكاد لا تفارقه ثم يختم المؤلف كتابه بالقول: «لقد تخطى الأقباط والمسلمون ظروف أصعب بكثير مما نراه الآن، يجب أن نستعيد ثقتنا فى أنفسنا وأن نعرف تاريخنا بموضوعية، إن مشاكل الأقليات عويصة وتحتاج إلى زمن طويل لحلها، ولن يجدى استيراد حل من الخارج لأنه لا يوجد ما يماثل حالتنا، هذه كلها حلول طويلة المدى ولكن لا أعتقد أنه يوجد بديل لها». وهو بذلك يشير على بعض الاحتقان القائم الآن والذى لا يجدى فيه مجرد جلسات صلح يتم فيها تبادل الكلمات والأحضان ثم الانصراف كل إلى حال سبيله وفى النفوس ما فيها بل إن الحل يكون بتحسين التعليم لثب الإحساس بأن الأقباط جزء من نسيج هذه الأمة وأنهم ليسوا أقلية نزحت من الخارج، وبتحقيق التساوى باندماج الأقلية فى الأكثرية وليس بالانعزالية بل بتشجيع الأقباط على أعمال الخدمة العامة، الخدمة العامة تبدأ فى مجال العمل ومجال السكن قبل الترشح للمجالس النيابية، بعض أقباط المهجر يجب أن يكونوا أكثر مسئولية وأن يفكروا فى مصر ككل، وأنا أقول بعض أقباط المهجر وأعنى ذلك، فإن أغلب الأقباط شأنهم شأن أغلب المسلمين يمثلون الأغلبية الصامتة حتى الآن، إن من يقول الشعب القبطى يجب أن يعلم أنه مصطلح طائفى للتفريق، هناك شعب واحد هو الشعب المصرى. ■



يوجد حاكمٌ واحدٌ في تاريخنا الطويل أضر بالأقباط دون أن يضر بالمسلمين أو يضر بمصر. ولكن هناك اختلافاً في مدى تأثير الضرر على كل من الأقلية والأكثرية. الأكثرية أكثر قدرةً على تخطي مساوئ الحاكم الذي يسوء إليها عن الأقلية لا اختلاف مستوى التأثير. في العقود الأخيرة ولأسباب غير خفية ساعدت بعض أعمال العنف ضد الأقباط في حدوث شرخ في علاقة الأقباط بالمسلمين. ومن ناحية أخرى كان هناك تصاعد وتضخيم لما يحدث من قبل بعض المصريين بالمهجر. ساعد على ذلك وجود واسترجاع بعض من هذه الذاكرة المدفونة وأصبح كل ذلك عقبةً في سبيل الوحدة الوطنية وبدأ الخلاف يتصاعد والشرخ يتسع. إن العنف والإرهاب الذي نراه أحياناً من قبل المتطرفين الإسلاميين هي حوادث مازالت فردية لا تمثل عامة الشعب المصري، بل هي موجهة أساساً ضد النظام الحاكم لقلقلته وإحراجه، ولها ضحايا من الأقباط والمسلمون.

بعد حرب ١٩٦٧ بدأت بعض قيادات الدولة تنهج اتجاهاً دينياً لأسباب سياسية. مع بداية رئاسة السادات للدولة أصبحت هناك مزايدات بين بعض المتطرفين إسلامياً وبعض رجال الدولة أيهما أكثر «تأسلاً». وأصبح هناك خوف بين بعض المسلمين من الأقباط نتيجة تشويه إعلامي أو جهل بالوقائع أو بالتاريخ. منها على سبيل المثال أن «الأقباط أغنياء ويحاولون إفقار المسلمين»، «الأقباط يحاولون إعادة مصر دولةً قبطيةً بمساعدات خارجية»، «العمل على تحديد نسل المسلمين وزيادة عدد الأقباط من أجل أن تعود مصر قبطيةً كما كانت». بالإضافة لبعض الإشاعات والمعلومات المغرضة تماماً من قبيل «ميليشيا قبطية» و«الأسلحة التي تملأ الأديرة»، «هؤلاء الأقباط غريباء عنا... ماذا يفعلون في مصر؟» ومن ناحية أخرى هناك من يربط بين المسيحية المصرية والشرقية عموماً وبين مسيحية أوروبا الاستعمارية التي بدأت بالحروب الصليبية وطردت المسلمين من الأندلس. إن خلق إسرائيل ما هو إلا حروب صليبية جديدة وإن كانت أخطر بكثير من الحروب السابقة. كل ذلك يثير خوف المسلمين من الأقباط أو من المسيحيين عموماً دون تمييز بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية. إن ذلك الخوف غير الحقيقي ينم عن جهل ويجب أن يزول.

لقد قال فهمي هويدي^(٤): «إننا بإزاء موقف يتهدد المسلمين وغير المسلمين، الاستسلام له سيقود الجميع إلى قاع اليم، والسكوت عليه اشتراك في الجريمة يقترب من التواطؤ والتستر، وليس أمامنا إذا أردنا لأنفسنا بقاءً واستمراراً، إلا أن نستجمع القوى، ونتشبث بما تبقى من خير وعقل لدى هذه الأمة، لنثبت ونقاوم ونمسك بالزمام قبل أن ينفلت». ما هي هوية الشعب المصري الآن؟ وهل هي للوطن أم للدين؟ قد يبدو هذا التساؤل سخيلاً حيث المفترض أن يتلاقى الوطن مع الدين حتى إن اختلفت الأديان.

لقد قارن جلال أمين^(٥) بين ما حدث للطبقة الوسطى في مصر في النصف الأول من القرن الماضي وبين ما حدث في النصف الثاني من القرن وحتى الآن. لقد كان الشعور الديني في النصف الأول من القرن على وفاق تام مع الشعور بالانتماء الوطني، بينما نجد الآن شيئاً يشبه التنافر أو حتى القطيعة بين الانتماء الديني والانتماء للوطن، وكان الولاء للوطن قد أصبح من نصيب العلمانيين أو المدنيين (أو بعضهم). لقد كانت الطبقة الوسطى في الماضي أكثر عقلانية وأقل تمسكاً بالمظاهر منه بجوهر الدين، كان من الممكن أن يجتمع شعور ديني قوي مع فهم عقلاني للحياة. ويستنتج جلال أمين أن التغيير الذي حدث في طبيعة الخطاب الديني المعاصر ساعد على وجود شقاق بين الولاء للدين والوطن وطبعاً ليزيد الشقاق بين المسيحيين والمسلمين. لقد ساعد الخطاب الديني المعاصر على نمو مناخ يساعد على انتشار الفساد بدلاً من أن يضيق من نطاقه، وأصبح من السهل أن يجتمع القيام بعمل فاسد مع التمسك بشكليات الدين. لقد دخل في الخطاب الديني تيارٌ لاعقلاني يهتم بالمعجزات

والخرافات ويعلى من شأن الطقوس على حساب الأخلاق والمثل، ويجعل بعض المسلمين على استعداد للتكليف بالأقباط بلا سبب ويشيع في الأقباط شعوراً بالتوجس والخوف بسبب وبلا سبب^(٦). أعتقد أن معرفتنا بالتاريخ بموضوعية والبحث عند الجذور عن أسباب بعض الصعاب بين أقباط مصر ومسلميها هي الخطوة الأولى لتغيير مسارنا المنحدر. نحتاج لكثير من البحث في تاريخنا وتحليل حوادثه وأن نكف عن انتقاء ما يناسب وجهة نظر معينة، ولعلنا نستطيع أن نفهم بعض الحساسية الزائدة التي نراها الآن والتي تثير المصاعب وعدم الثقة في علاقاتنا والتي تستنزف الكثير من طاقتنا وتعيق تقدمنا. إن لنا أعداء يهتمهم استقطاب أية مشاكل يعاني منها الوطن وهي كثيرة. إن توتر العلاقات بين الأقباط والمسلمين يجب ألا يكون مشكلة تعاني منها الأمة، فهناك مشاكل أهم من ذلك بكثير وتحتاج لتكاتف كل طاقات المصريين.



حاولت في كتابي أن أهتم بعلاقة الأقباط والمسلمين من سياق التاريخ العام ومدى تأثيره، محاولاً رسم صورة أكبر من مجرد العلاقة الخاصة التي تربطنا إلى الإطار العام لما كان يحدث في مصر. إن التاريخ القديم الذي يغفل عنه البعض عن قصد أو عن غير قصد أو بحكم البعد الزمني له تأثير فيما يحدث الآن. عامة الشعب المصري لم يعرف تاريخ العلاقات بين الأقباط والمسلمين وخصوصاً القديم منها إلا عن طريق الأقاصيص التي اعتمدت على وجهات نظر معينة يؤيدها انتقاء أجزاء بعينها من تاريخنا. أعتقد أن التاريخ القديم



يقول رشدي سعيد

- وهو على حق - إنه على طول التاريخ لم تحدث الفتنة الطائفية إلا في أوقات متباعدة نتيجة حاكم ضعيف يحاول أن يشغل الناس عنه وعن فسادهم وفشله



قد يفسر لنا بعض أسباب الاحتقان الطائفي والحساسية الزائدة لدى البعض. ولأن بعض التاريخ القديم قد يكون غير سار - كما هو الحال في كل دول العالم - فقد يحاول بعض الأقباط أو المسلمين إخفاءه أو التغاضي عنه، إلا أن هذا جهل وخطأ مضر. أولاً لأن تاريخنا في أغلبه به فترات كثيرة تمثل منارة للحب والأخوة، فعامّة المصريين كانوا دائماً وما زالوا متجاورين وتشاركوا في الأفراح والأحزان. ومن ناحية أخرى يجب ألا نحمل الأجيال الحديثة مسؤولية ما حدث من أخطاء الماضي مهما كانت. يجب أن نعرف التاريخ القديم ونعيه حتى يمكننا أن نتخطاه، وحتى إن بقي في ذاكرتنا فسيكون بموضوعية. نحن لن نغير التاريخ ولكن معرفتنا به، حتى وإن كان به بعض المغالاة أو السلبيات سيساعدنا على تفهم الأنا والآخر سيساعدنا على تخطي عقبات الماضي. ومن ناحية أخرى فإن التاريخ القديم يجب ألا يؤخذ ككتب التاريخ الحديثة، حيث إن كتاب التاريخ وحتى العصور الوسطى عندنا وفي أوروبا مزجوا التاريخ بالدين مزجاً شديداً. نرى ذلك بوضوح في سرد الأساطير والقصص العجيبة والخوارق والكرامات. مثال ذلك صور القديسين والشهداء التي تقطر زيتاً أو دمًا. وليس هذا قاصراً على الأقباط وإن كان الأقباط قد غالوا في ذلك. نحن نرى نفس النوع من المغالاة في بعض التاريخ الإسلامي المصري، إننا نرى محمد بن طغخ الإخشيدى مثلاً يكرم رجلاً من دمياط قيل إن يده كانت مقطوعة وأنه غاب عن البلد زماناً وعاد ويده صحيحة. ويذكر على بركات بعضاً من تلك الأمثلة^(٧). الأمثلة من هذا النوع يصعب حصرها وهي تمثل نوعاً من الأدب الشعبي اختلقها البعض لظروف كثيرة ومعقدة. مغالاة الأقباط في تلك الكرامات كان الغرض منه الاستمساك بدينهم وتقوية روحهم المعنوية خلال زمن الاضطهاد والمعاناة^(٨). سيرى القارئ بعضاً من تلك الأمثلة في سياق ما سيذكر، وأرجو أن يراعى أن تلك الأمثلة قد يكون بها بعض أو كثير من المغالاة.

يهتم الكتاب بما كتبه المؤرخون القدماء من أمثال حنا النقيوسى في القرن السابع، البلاذري وابن عبد الحكم في القرن التاسع، الطبري والمسعودي وساويرس بن المقفع في القرن العاشر، الكندي



إن مشاكلنا الحقيقية هي غياب الديمقراطية الحقيقية وغياب المؤسسات المستقلة، سوء التعليم، الإعلام السيئ، الفساد، القهر البوليسى، تآكل الطبقة الوسطى، الانحدار الخلقى رغم مظاهر الدين الكثيرة والكاذبة



وأعنى ذلك. حيث إن أغلب المصريين وإن استاء من بعض ما يحدث فى مصر - وهذا أمر طبيعى - إلا أنهم يمثلون الأغلبية الصامتة، شأنهم شأن باقى مصريى المهجر أو فى الوطن الأم، سيان، مسيحيين أو مسلمين.

مما لا شك فيه أن هناك الكثير من المستنيرين المسلمين والمسيحيين الذين يرون خطورة ما يحدث ويعارضونه قولاً وفعلاً. ولكن أين الدولة من كل ذلك؟ لقد قال محمد حسنين هيكل «رئيس الدولة فى مصر أياً كان اسمه وفى أى زمان عليه مسئوليتان بالدرجة الأولى: ١- وحدة الديانتين وتعايشهما فى الوطن الواحد. ٢- جريان ماء النيل إلى الوادى بأمان ويسر». (انظر عددي «وجهات نظر» مارس ٢٠٠٠، وفبراير ٢٠١٠).

هناك مشاكل كثيرة ومتراكمة من حوالى نصف قرن وعلينا مواجهتها وإلا أصبحنا كالنعامة التى تدفن رأسها حتى لا ترى الخطر. أو كما وصفه فهمى هويدي «هو بمثابة ألغام مزروعة فى الجسم العربى والإسلامى». يجب علينا مواجهة الواقع، وليس هناك بديلاً من معرفة تاريخنا والبحث عند الجذور^(١). إن ما يفعله بعض المسئولين الآن مثل صور لعناق رؤساء الأديان أو لكاهن يعانق شيخاً أو موائد الإفطار الرمضانية التى يقيمها الكهنة والمطارنة والبابا لكبار المسلمين، كل ذلك لفئات طيبة ولكنها من قبيل «الديكور».

إن سياسة الدولة الرسمية توحى إلينا خلال الإعلام المحكوم أن كل شيء على ما يرام، ولم يكن فى الإمكان أحسن مما كان!! إن الوحدة الوطنية الآن مستهدفة. جاء بعض الاستهداف من الخارج لمحاولة تفتيت المنطقة لصالح إسرائيل والغرب. لقد ساعد على ذلك بعض أعمال العنف «الإسلامى والصهيونى». دعاوى حماية الأقليات الآتية من الغرب بعضها ذات دوافع سياسية للتدخل فى الشؤون الداخلية للدول. وجاء الاستهداف أيضاً من التيار الوهابى وإن كانت أفكاره للأسف قد وجدت تربة لا بأس بها، ليس فى مصر فقط بل فى دول أخرى عربية وإسلامية نتيجة لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية.

إذا نظرنا لتاريخنا سنجد أن هذا الاحتقان الطائفى والتشنج الذى نراه الآن وخصوصاً فى حركات التطرف الدينى، ظاهرة تنتاب الدولة كواب

هبوطاً، هذا من ناحية، ولكن من ناحية أخرى وقد تكون الأهم أن الدين أصبح هو القناة الوحيدة المفتوحة للتعبير عن الرفض لما يحدث فى مصر، حتى الحجاب والذقون والجلاليب ما هى إلا صور لذلك الرفض.

لقد حدث فى الماضى البعيد أن دمرت كل أو أغلب كنائس مصر فى فترة وجيزة. قتل البعض، اضطر البعض للتحويل الاسلام بدلا من المسيحية بينما اضطر آخرون لترك وطنهم (أذكر: هذا من أحداث الماضى البعيد). لقد تخطى المصريون بشقيهم تلك المحن فى الماضى. هل ما نراه الآن على أرض الوطن بداية لنهاية الأقباط بمصر، أم إنها محنة سنخطاها؟ إن فى مصر الآن من يرى أن المسيحية يجب أن تنتهى من مصر كما انتهت من دول إسلامية أخرى. يعتقد البعض أن الأقباط هم الأعداء وأن على الأقباط أن يدفعوا الجزية وألا يخدموا فى جيش بلدهم. بل هناك بعض المشايخ والمتعلمين تعليماً عالياً يحض المسلمين على عدم التعامل مع المسيحيين جاهلين أو متجاهلين أن مقياس تحضر الأمة يقاس بمدى معاملة الأكثرية للأقلية. لقد قال ذلك مهاتما غاندى خلال حركة استقلال الهند التى أدت إلى أقلية مسلمة فى الهند وأقلية غير مسلمة فى باكستان وكثير من الضحايا وحتى الآن. كان نتيجة كل ذلك أن تقوقع الأقباط حول الكنيسة والتى أصبحت تمثلهم ولكن بدون فاعلية حقيقية، وإن كان لا يوجد أيضاً من يمثل مصالح المسلمين الحقيقية فى نظامنا السياسى المعاصر. ظهرت جماعات مسيحية متشددة فى الداخل. أما فى الخارج فقد تفاعل بعض مصريى المهجر مع ما يحدث، وبعضهم تخطى تطاوله ما يرتكب البعض من عنف أو الدولة من قصور إلى مهاجمة الإسلام، وأنا أقول «بعض مصريى المهجر»



**أين ذهبت قولة اللورد كرومر
حاكم مصر إبان فترة الاحتلال البريطانى:
«إن أقباط مصر ومسلميها متماثلون فى كل شيء
إلا أن أحدهم يذهب للجامع
والآخر يذهب للكنيسة»؟**



إن ظاهرة الأقلية والأكثرية أصبحت ظاهرة عالمية تكاد تكون موجودة فى كل دول العالم وتسبب مشاكل يروح ضحيتها الآلاف والملايين. خصوصاً أنه أصبح الآن ما يحدث فى قرية صغيرة يراه العالم أجمع وفى نفس الوقت تقريباً. لقد اهتم العلماء بدراسة الخلافات الإثنية والدينية فى المجموعات أو فى الأوطان، وهناك الكثير من الدراسات الجدية فى هذا المجال، من الطبيعى أن يكون الاقتصاد عاملاً مهماً فى العلاقات الإنسانية، ولكن قد يكون أهم تلك النواحي الحديثة هى العوامل السيكلوجية ودور المخ فى امتصاص عناصر «الأنا والآخر» والتى قد تؤدى إلى التمييز ثم التعصب فالاضطهاد. كيف تستخدم تلك المعلومات الحديثة لتساهم فى تخفيف حدة التوتر بين الأقلية والأكثرية؟ وإن كان الأقباط أقلية عديدة إلا أنهم والمسلمين من نسيج واحد أصلاً، فالمسلم شأنه شأن المسيحى جذوره فى مصر الفرعونية، بل وتعود لبداية التاريخ ومن دخل مصر من الغرباء وهم قلة قليلة انصهروا فيها. إلا أنه حديثاً تستطيع أن تفرق بين من هو مسلم ومن قد يكون غير مسلم. فلو سرت فى أى شارع فى أى بلد فى مصر فستستطيع أن ترى ذلك. لقد نقل ذلك مرحلة اختلاف الدين إلى أولى مراحل الصراع وهى التمييز. وأقصد بأولى مراحل الصراع، أنها مرحلة قلقه إما تتصاعد لتصل لحالة عنف عام أو قد تتراجع لمجرد اختلاف دينى لا يتعدى ذلك، أو كما قال اللورد كرومر حاكم مصر إبان فترة الاحتلال البريطانى إن أقباط مصر ومسلميها متماثلون فى كل شيء إلا أن أحدهم يذهب للجامع والآخر يذهب للكنيسة.

أولى مراحل الصراع مرحلة قلقه غير مستقرة، ولا بد أن تتغير صعوداً أو

المصرى فى القرن الثانى عشر، المقرئى فى منتصف القرن الخامس عشر، ابن إياس فى أوائل القرن السادس عشر، والجبرتى فى أوائل القرن التاسع عشر وآخرين كثيرين غيرهم. ولكنه يهتم أيضاً بكثير من الكتاب المحدثين من أمثال ألفريد ج. بتلر فى كتابه عن الفتح العربى لمصر، وعبد العزيز جمال الدين فى «موسوعة تاريخ مصر من القرن الأول إلى القرن العشرين»، سورىال عطية فى الموسوعة القبطية باللغة الإنجليزية، طارق البشرى فى كتابه المرجعى «المسلمون والاقباط فى إطار الجماعة الوطنية»، جاك ناجر فى كتابه «اقباط ومسلمون»، وأبو سيف يوسف فى كتابه «الاقباط والقومية العربية»، وغالى شكرى فى كتابيه «الاقباط فى وطن متغير» و«أقنعة الإرهاب»، وفهمى هويدي فى كتابه «مواطنون لا ذميون»، بالإضافة لآخرين. بالإضافة إلى بعض المصادر الأجنبية. يقتبس الكتاب بعض الفقرات من تلك المراجع القديمة بالإضافة إلى ذكر المرجع ليتأكد القارئ مما كتبه بعض القدماء. ولكن يجب ألا ننسى أن ليس كل ما كتبه القدامى بالضرورة تاريخ حقيقى، وسيرى القارئ أمثلة من ذلك. حتى كتب الأديان ليست بالضرورة كتب تاريخ. لقد قال الإمام محمد عبده فى «تفسير المنار» إن القرآن كتاب هداية وليس كتاب تاريخ، ولا أعتقد أن الأناجيل تختلف عن ذلك.

يخطئ من يعتقد أن نقد أى حاكم مسلم أو بعض من مشايخ وزعماء الإسلام أو بعض رؤساء الكنيسة وزعماء الأقباط المهمين فى تاريخنا هو نقد للإسلام أو للمسيحية. هناك أيضاً فرق كبير بين الدين والفقه الدينى. إن الفقه الدينى مجهود بشرى يحتمل الخطأ والصواب والتغير، تعاليم الدين يختلف تفسيرها باختلاف العصر وثقافته. لقد أصبحنا نعيش فى عالم معقد قد لا تناسبه تفسيرات بسيطة ومخلّة وردت حين كان العالم جزراً متباعدة. لقد قال على بن أبى طالب «إن القرآن لا ينطق، بل ينطق به الرجال». وأعتقد أن مفهوم الإنجيل لا يختلف عن ذلك، وهو ما قاله أوريغانوس المصرى فى أوائل القرن الثالث. الفرد مهما كان حسن نيته وعلمه واجتهاده فهو خلاف الدين. لقد قال الإمام الشافعى «إن رأى صواب ولكنه يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب» بل قال أيضاً «إنى أدين بتغيير رأى إلى ما رأيته الحق».



الطاعون في حالة ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجي، ونحن نعانى من كليهما الآن. هذا كان وصف جمال حمدان لما تعانيه مصر من جراء التطرف الديني في آخر مقابلة صحفية له^(١). يعتقد جمال حمدان أن الإسلام السياسي يخص الماضي. إنه يشبه تشنج واهتزاز الدجاجة المقطوعة الرأس قبل سكونها للأبد. هذه النظرة المستقبلية هي نظرة من تمرس في تاريخ مصر. أعتقد أن ما قاله جمال حمدان سيكون صحيحاً تاريخياً. لقد رصد لنا هذا العالم في مشروعه الكبير لحظات الضعف في تاريخ مصر وأحصى آلياتها بما يدعنا إلى أن نعيد النظر إلى داخلنا وخارجنا. يعتقد جمال حمدان أن ما نراه على الساحة هو بمثابة رجعية سياسية وجهل مدني وجاهلية دينية أما في القرن الحادي والعشرين فهو خرافة من مخلفات التخلف وكابوس مخيف، ومن ثم فالإسلام السياسي المعاصر ليس أكثر من صحوة الموت. ولكن هناك كثيرين يختلفون مع رأي جمال حمدان، وخصوصاً أننا نرى الآن ازدياداً في المد الإسلامي السياسي لأسباب محلية، إقليمية، وعالمية.

إن ازدهار السلفية الدينية ذات الأهداف السياسية ما هو إلا نتيجة تراكم سقوط دولة محمد علي ودولة إسماعيل ومحاوله عرابي ثم ثورة ١٩١٩ وأخيراً ثورة ١٩٥٢. وستكون تلك المرحلة، إن قدر لها أن تكون، مرحلة أخرى من مراحل السقوط إلى أن نتمكن من الوصول إلى الطريق السليم وهو الدولة الحديثة، الدولة المدنية الديمقراطية موضوعاً وليس مجرد شكل. نحن لا نعرف ما يخبئه لنا المستقبل، هل ستكون هناك دولة دينية في مصر؟ وإن كانت كذلك فكيف ستكون؟ إن الإسلام لم يعرف الدولة الدينية في تاريخه الطويل إلا في فترة الرسول وبعض الخلفاء الراشدين، فيما عدا ذلك كان الحكم أقرب ما يكون للحكم المدني. هناك خلاف كبير بين المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ولا توجد أيديولوجية واحدة مطروحة على الساحة - ولن توجد - وهذا أمر طبيعي، لأنها مجهود بشر. إن الإسلام السني خالٍ من الكهنوت أو الملأى، ولا توجد عندنا ولاية الفقيه كما لدى الشيعة. هذا الخلاف بين الشيعة والسنة يؤثر بين المسلمين اختلافاً أكثر مما يؤثر اتفاقاً. رغم إعجاب الكثيرين منا بما يحدث في

إيران وحزب الله في لبنان، ليس لنجاح النظام الإيراني في إدارة إيران وتطويرها، أو لنجاح حزب الله النسبي في صراعه مع إسرائيل، بل لمعاداة هذا النظام للغرب وإسرائيل في وقت تبدو فيه بقية الدول العربية ضعيفة ومتخاذلة. وإن كان الحكم في الماضي أقرب إلى الحكم المدني، إلا إن هذا لا يعني أن نظام الحكم لم يراع مبادئ الدين بل التزم بها طبقاً لاحتياجات العصر. وكان لبعض رجال الدين الإسلامي القدامى من أمثال الأشعري والشافعي والغزالي تأثير واضح في زمانهم، ولكن الكثير من ذلك بقي معنا للآن. ولكن زماننا مختلف.



إن الإسلام المعاصر يبحث عن نفسه في عالم شديد وسريع التغير، يبحث عند الجذور ولا يريد أن يفقد ذاته لأن هذا يعني الضياع، ولكن لا بد من التحديث، إن استخدام الدين في السياسة كارثة للدين وكراسة للسياسة وهناك أمثلة كثيرة لذلك في تاريخ المسيحية والإسلام واليهودية المعاصرة وفي كتابي أتعرض لبعض من ذلك. هذا لا يعني أننا سننحى الدين جانباً. إن أساسيات ومبادئ الدين - أي دين - كانت وستكون أحد مكونات الدولة، أي دولة. إنني أقدر تماماً أن بعضاً من صعوبة العلاقات بين الأقباط والمسلمين أو بين مسيحيي الشرق ومسلميه تعود إلى عدم قدرة البعض على التمييز بين مسيحية الشرق ومسيحية الغرب. يعتقد البعض بسبب قصور التعليم عندنا أن مسيحية الشرق ما هي إلا امتداد لمسيحية الغرب. بل يعتقد البعض بسبب ذلك، أنهم لا يجب أن يثقوا في الأقباط أو في مسيحيي الشرق، وينعكس ذلك على

بعض القيادات وخصوصاً في مناصب الدولة العليا. لقد اختفى المسيحيون أو كادوا من بيت لحم.. مكان مولد المسيح، وهو ما لم يحدث منذ ظهور المسيحية. هل أصبح بقاء المسيحيين في منطقتنا بهذه الصعوبة؟

لقد انعكست ظروف محلية وإقليمية وعالمية على علاقة الأقباط بالمسلمين، وقد ساعد تطرف إسرائيل على ذلك لتفتت المنطقة حتى تستطيع أن تعيش كأقلية أخرى في المنطقة بدلاً من أن تكون وحيدة في محيط عربي إسلامي، ولكن يجب ألا نلوم إسرائيل على كل ما يحدث لنا دون أن ننظر لأنفسنا أولاً. أعتقد أن الأقباط - ومسيحيي الشرق عموماً - يجب ويستطيعون أن يكونوا سنداً مهماً للوطن في هذا الصراع الدائر، كما كانوا خلال الثورة المصرية في أوائل القرن الماضي - ويمتد ذلك لمسيحيي شرقنا العربي - لتحقيق الاستقلال ولكن يجب أن تتاح لهم الفرصة. خلال ثورة سعد زغلول كان العدو واضحاً وهو الاستعمار، أما الآن فمن هو العدو الحقيقي؟ إنه ليس المسيحية أو الإسلام، إنه نحن ومن يريد منا أن يستغل الدين في السياسة. إن القومية العربية في ظل الظروف الراهنة، هي الدرع التي يمكن أن تقينا من الهجوم الغربي الاستعماري والإسلام أحد مكونات القومية العربية المهمة ولكن يجب أن تكون مسيحية الشرق أيضاً أحد هذه المكونات، وقد كانت كذلك في الماضي القريب والبعيد.

إن علاقة الأقباط والمسلمين المتعثرة ما هي إلا إحدى مشاكل مصر الثانوية. إن مصر تغلّى بمشكلات أكثر أهمية. إن مشاكلنا الحقيقية هي غياب الديمقراطية الحقيقية وغياب المؤسسات المستقلة، سوء التعليم - بجميع فروعته وألوانه - بل قد يكون أهمها التعليم الديني، الإعلام السيئ وخصوصاً ما



المشكلة أن البعض لم يتعلم أن يميز بين المسيحية المصرية والشرقية عموماً وبين مسيحية أوروبا الاستعمارية التي ابتدأت بالحروب الصليبية وطردت المسلمين من الأندلس



يوصف بأنه قومي، الفساد، القهر البوليسي، وعدم قدرة الدولة على خلق فرص اقتصادية لتوفير العمالة للكثيرين، تآكل الطبقة الوسطى، الانحدار الخلقي رغم مظاهر الدين الكثيرة والكاذبة و.....و..... وبعد ذلك تأتي مشاكل الأقباط والمسلمين. إننا لو وجدنا حلولاً لمشاكل المسلمين الحقيقية لاختفت مشاكل الأقباط.

لقد ترددت كثيراً قبل كتابة هذا الكتاب لما لموضوعه من حساسية واحتمال الانتقاء أو التأويل الخاطئ وأتمنى ألا يحدث ذلك. أعتقد أنه لا مفر من إعادة النظر إلى تاريخ علاقة الأقباط بالمسلمين حتى نستطيع أن نتخطى بعض المشاكل التي أصبحت جزءاً من حياتنا والتي أصبحت سهلة الاستفزاز. حاولت أن أكون موضوعياً قدر استطاعتي. قد يختلف معي البعض، وأتوقع ذلك، فالحقيقة ليست حكرًا على أحد، ولكن لعلنا نكون موضوعيين في اختلافنا. في غياب الموضوعية تندفع الأكاذيب والأساطير والمفتريات لتملأ عقولنا. إن الموضوع الذي قررت أن أتصدى له في هذا الكتاب استحوذ على قدر كبير من تفكيرى ولستين عديدة، قبل أن أقدمه للقارئ كمصري أولاً وأخيراً ولعلني أكون وفقت في أن أكون موضوعياً، ولكن الحكم الأخير هو القارئ. ■

هوامش

- (١) طارق البشري. المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص ٥.
- (٢) غالى شكرى. الأقباط في وطن متغير. كتاب الأهالي رقم ٢٩. سنة ١٩٩٠. ص ٧.
- (٣) حوار مع رشدي سعيد أجراه حمدي رزق. جريدة الدستور. فبراير سنة ١٩٩٨.
- (٤) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. الطبعة الأولى. سنة ١٩٨٥. ص ٩.
- (٥) جلال أمين. مصر والمصريون في عهد مبارك. (١٩٨١ - ٢٠٠٨) دار ميريت. سنة ٢٠٠٩. ص ٤٠.
- (٦) جلال أمين. مصر والمصريون في عهد مبارك. مرجع سابق. ص ٥٢.
- (٧) على بركات. رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٧. ص ٥٨.
- (٨) تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطارقة لسايورس بن المقفع. إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين. مكتبة مدبولي سنة ٢٠٠٦. الجزء الأول ص ١٧.
- (٩) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. الطبعة الأولى. ١٩٨٥. ص ٧.
- (١٠) مقابلة صحفية أجراها حلمي النمنم مع جمال حمدان. مجلة المصور. ١٥ أبريل سنة ١٩٩٤.

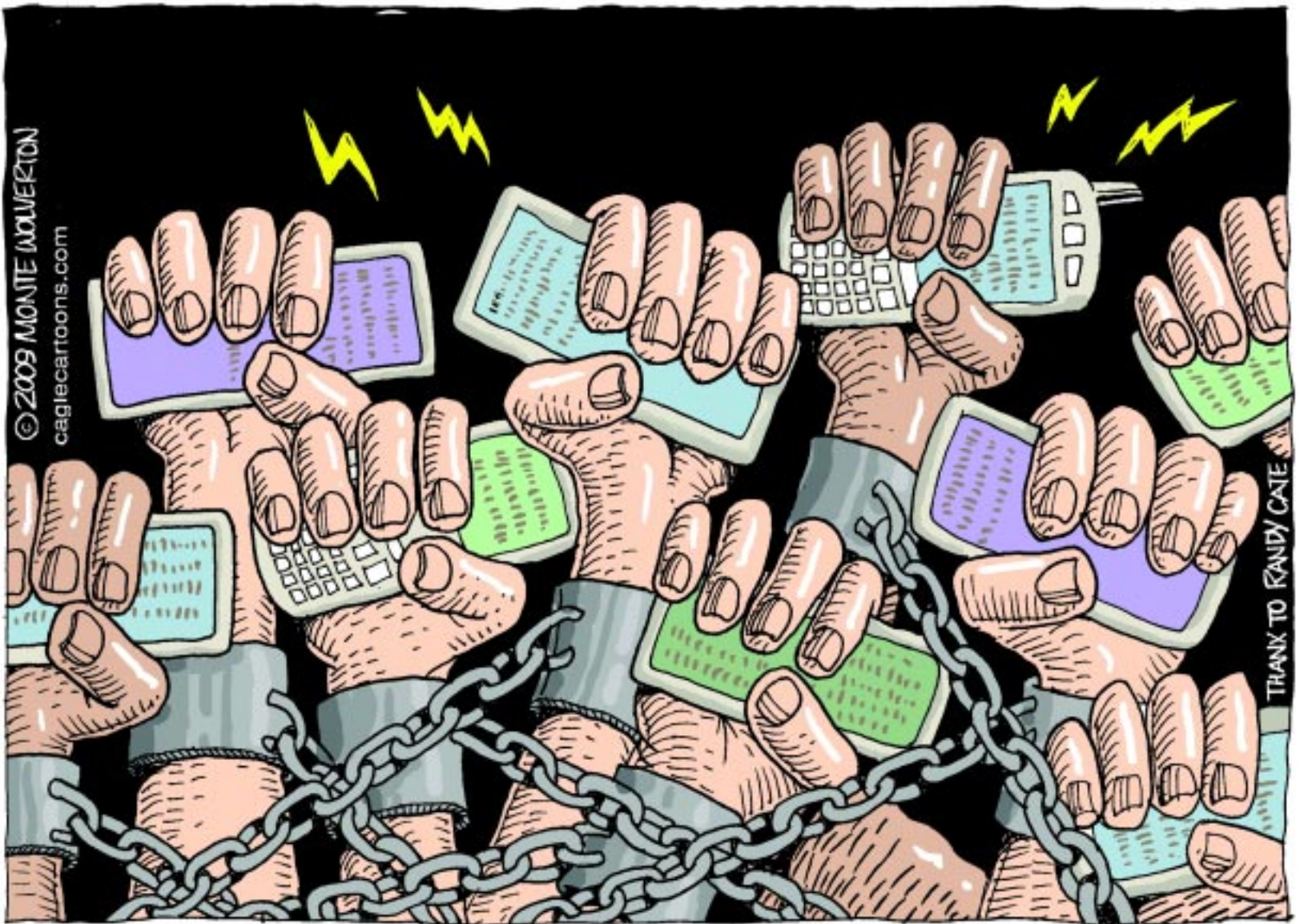
Why the revolution will not be tweeted?

Twitter & Facebook

ولكن... لا ثورة هناك!

مالكولم جلادويل

Malcolm Gladwell



يقال لنا إن العالم فى وسط ثورة، فمع الفيسبوك وتويتر وما شابه، تغيرت العلاقة التقليدية بين السلطة السياسية والإرادة الشعبية مما سهل من التعاون والتنسيق بين الضعفاء، وجعل صوته مسموعا



أقدمت وزارة الخارجية على خطوة غير اعتيادية بمطالبة تويتر بتعليق صيانة موقعها المحدد موعدها سلفا، لأن الإدارة لم تريد تعطيل هذه الوسيلة التنظيمية الحاسمة فى ذروة المظاهرات. وقد كتب لاحقا مارك فايفل Mark Pfeifle مستشار الأمن القومى السابق» بدون تويتر لم يكن الشعب الإيراني ليشعر بالتمكن والثقة للدفاع عن الحرية والديمقراطية» مطالبا بترشيح تويتر لنيل جائزة نوبل للسلام. كان النشاط يعرفون فيما مضى بحسب قضاياهم، أما الآن فيعرفون بحسب وسائلهم. محاربو الفيسبوك يتواجدون على شبكة الإنترنت للضغط من أجل التغيير. وفى حديث لجيمس ك. جلاسمان James K. Glassman المسئول السابق بوزارة الخارجية إلى حشد من نشطاء الإنترنت فى مؤتمر عقد مؤخرا برعاية فيس بوك وإيه تى أند تى وهاوكاست وإم تى قى وجوجل، قال: «أنتم أفضل أمل لنا جميعا». وقال جلاسمان إن مواقع مثل الفيس بوك «تعطى الولايات المتحدة ميزة تنافسية هامة على الإرهابيين. لقد قلت فى وقت سابق إن القاعدة كانت تتناول غداؤنا على الإنترنت. لكن هذا لم يعد الحال. إن القاعدة عالقة فى شبكة ١.٠، فالإنترنت الآن هو التفاعل والمحادثة».

هذه المزاعم هائلة ومحيرة. ما المهم فى تحديد من يتناول غداء من على شبكة الإنترنت؟ هل الأشخاص الذين يدخلون على صفحاتهم على الفيس بوك هم فى الحقيقة أفضل أمل لنا جميعا؟ فبالنسبة لما سمي بثورة تويتر فى مولدوفا، يشير إيفجيني موروزوف Evgeny Morozov العالم بجامعة ستانفورد وأكثر المنتقدين للتبشير الرقمى مثابرة أن تويتر لم يكن له سوى أهمية داخلية ضئيلة فى مولدوفا، تلك الدولة التى يوجد بها القليل جداً من حسابات تويتر. كذلك لم يبدو أنها كانت ثورة، ومن أسباب ذلك - لكنه ليس أقل الأسباب أهمية بالتأكيد - أن الاحتجاجات ربما كانت حقا جزء من مسرحية ملفقة من قبل الحكومة، كما أشارت آن أبلباوم Anne Applebaum فى الواشنطن بوست Washington Post. «فى بلد تعاني من الارتياح والذعر من الانتقام الرومانى، لوح

المحتجون بعلم رومانيا فوق

بفرجينيا، وفى روك هيل بساوث كارولينا، وفى تشاتانوجا بتينيسى. بنهاية الشهر، كانت الاعتصامات منتشرة فى جميع أنحاء الجنوب ووصلت غربا إلى تكساس. وقد كتب المنظر السياسى مايكل والتزر Michael Walters فى مجلة ديسينت Dissent. «لقد سألت كل طالب قابلته كيف كان يبدو اليوم الأول من الاعتصام فى حرم جامعتهم»، وكانت الإجابة واحدة دائما: «لقد كانت مثل الحمى. الجميع أرادوا الذهاب». فى نهاية المطاف شارك ما يقرب من سبعين ألف طالب. أُعتقل الآلاف وأصبح آلاف أخرى أكثر راديكالية. أصبحت تلك الأحداث فى أوائل الستينيات حربا بخصوص الحقوق المدنية غمرت الجنوب لنهاية العقد، ووقعت دون بريد إلكترونى أو رسائل نصية أو فيسبوك أو تويتر.

يقال لنا إن العالم فى وسط ثورة، فوسائل الإعلام الاجتماعية الجديدة أعادت خلق الفعالية الاجتماعية. فمع الفيسبوك وتويتر وما شابه، تحولت العلاقة التقليدية بين السلطة السياسية والإرادة الشعبية مما سهل من التعاون والتنسيق بين الضعفاء وبعض، وجعل صوته مسموعا فيما يتعلق بشئونهم. فعندما لجأ عشرة آلاف محتج إلى الشوارع فى مولدوفا فى ربيع عام ٢٠٠٩ للاحترج على حكومة بلدهم الشيوعية، أطلق على هذا الحدث ثورة تويتر بسبب الوسيلة التى جمعت المحتجين معا. وبعد ذلك ببضعة شهور، حين هزت احتجاجات الطلبة طهران،

الأصليون. كان الرجال يرتدون البدل وأربطة العنق. وأحضر الطلبة معهم فروضهم الدراسية، وذاكروا وهم جالسون على المنضدة. وفى يوم الأربعاء انضم إليهم طلاب المدرسة الثانوية للزوج» بجريزبورو، مدرسة دادلى هاى، فارتفع عدد المحتجين ليصل إلى ثمانين. وبحلول يوم الخميس، وصل عدد المحتجين ثلاثمائة - من بينهم ثلاثة سيدات بيضاوات - من حرم جامعة نورث كارولينا بجريزبورو. وبحلول يوم السبت، وصل عدد المعتصمين إلى ستمائة. انتشر الناس فى الشارع. ولوح مراهقون بيض بالأعلام الكونفيدرالية. وألقى أحدهم بواحدة من الألعاب النارية. وعند الظهر، حضر فريق كرة إيه أند تى. وصاح أحد الطلبة البيض «ها قد أتى فريق الخراب».



بحلول يوم الاثنين التالى، انتشرت الاعتصامات فوصلت إلى ونستون سالم التى تبعد خمسة وعشرين ميلا، ودورام على بعد خمسين ميلا. وفى اليوم التالى، انضم طلبة من كلية فييت فيل للمدرسين التابعة للولاية ومن كلية جونسون سى، سميث فى شارلوت، ولحق بهم فى يوم الأربعاء طلبة من كلية سانت أوجستين وجامعة شاو فى رالى. وفى الخميس والجمعة، عبر الاحتجاج حدود الولاية، ليظهر فى هامبتون وبورتسموث

■ فى الرابعة والنصف بعد ظهر الاثنين الأول من فبراير عام ١٩٦٠، جلس أربعة طلبة جامعيون على منضدة الغداء فى الـوول وورث فى وسط مدينة جريزبورو، نورث كارولينا. كانوا طلبة فى الصف الأول فى جامعة إيه أند تى نورث كارولينا، وهى جامعة للسود على بعد ميل تقريبا.

قال أحدهم وهو أيزيل بلير إلى المضيف: «أريد فنجانا من القهوة من فضلك».

فأجابته «لا نخدم الزوج هنا». كانت منضدة الغداء فى الـوول وورث عبارة عن منضدة طويلة على شكل حرف L يمكن أن يجلس عليها ستة وستون زبونا، وعند أحد طرفيها يوجد مقصف لتناول الوجبات الخفيفة وقوفا. كانت المقاعد للبيض. ومقصف الوجبات الخفيفة للسود. اقتربت موظفة أخرى وهى امرأة سوداء كانت تعمل على طاولة عرض الطعام البخارية وحاولت تحذيرهم لكى يبتعدوا. وقالت لهم «إنكم تتصرفون بغباء أيها الجهلاء». لكنهم لم يحرركوا ساكنا. فى حوالى الخامسة والنصف، أغلقت أبواب المتجر الأمامية والأربعة لا يزالون فى أماكنهم. وفى النهاية غادروا من باب جانبى. وكان حشدا صغيرا قد تجمع فى الخارج ومن بينهم مصور فوتوغرافى من صحيفة جريزبورو ريكورد. فقال أحد الطلاب «سأعود غداً ومعى طلبة جامعة إيه أند تى».

وفى الصباح التالى، ازداد عدد المحتجين ليصل إلى سبعة وعشرين رجلا وأربع سيدات معظمهم من نفس سكن الطلاب الذى يسكن فيه الأربعة

Gladwell came to The New Yorker from the Washington Post, where he started as a staff writer in 1987, first reporting for the business section and then on the sciences. In 1993, he became the newspaper's New York City bureau chief. He was a 1995 National Magazine Award finalist for an article on mammography published in The New Republic.

بترتيب مع THE NEW YORKER

ترجمة: وليد سليم

العدد ١٤٢ - نوفمبر ٢٠١٠ م



إنها تمكن النشطاء من التعبير عن أنفسهم بطريقة أسهل، لكنها تجعل قدرة هذا التعبير على التأثير أصعب





كتب مارك فايفل «بدون تويتر لم يكن الشعب الإيراني يشعر بالتمكن والثقة للدفاع عن الحرية والديمقراطية»



عالية الخطورة هي ظاهرة تتسم بـ«الروابط القوية».

هذا النمط يظهر مراراً وتكراراً. ففى دراسة عن الألوية الحمراء، الجماعة الإرهابية الإيطالية التى نشطت فى السبعينيات، وجد أن سبعين فى المائة من المجندين كان لديهم بالفعل صديق مقرب على الأقل فى المنظمة. وينطبق الشيء نفسه على من انضموا للمجاهدين فى أفغانستان. حتى الأعمال الثورية التى تبدو تلقائية، مثل مظاهرات ألمانيا الشرقية التى قادت إلى سقوط حائط برلين، هى فى جوهرها ظواهر تتسم بقوة الروابط. تألفت حركة المعارضة فى ألمانيا الشرقية من عدة مئات من المجموعات، كل مجموعة بها دسنة أعضاء تقريباً. وكان اتصال كل مجموعة بالأخرى محدوداً، ففى ذلك الوقت لم يكن سوى ثلاثة عشر فى المائة فقط من الألمان الشرقيين يمتلكون هاتفاً. كل ما عرفوه أن الناس يتجمعون مساء أيام الاثنين أمام كنيسة القديس نيكولاس فى وسط مدينة ليبزج للتعبير عن غضبهم من الدولة. وكان المحدد الرئيسى لمن كان يحضر هو «الأصدقاء المنتقدون»، فكلما زاد عدد أصدقائك المنتقدين للنظام كان من المرجح أن تنضم للاحتجاج.

وهكذا كانت هناك حقيقة أساسية بخصوص الأربعة الطلاب المستجدين الذين جلسوا على منضدة غداء جرينزبورو (دافيد ريتشموند وفرانكلين ماكين وأزيل بلير وجوزيف ماكنيل)، ألا وهى علاقتهم ببعض. كان ماكنيل زميل بلير فى الغرفة فى سكن طلاب إيه أند تى سكوت هول، وكان ريتشموند يسكن فى نفس الغرفة مع ماكين فى الطابق الذى يعلوهما. وارتاد بلير وريتشموند وماكين جميعاً مدرسة دادلى الثانوية. وكان الأربعة يهربون البيرة إلى السكن ويجتمعون فى غرفة بلير وماكنيل فى وقت متأخر من الليل ليتحدثوا. وكانوا جميعاً ليتذكروا مقتل إيميت تى عام ١٩٥٥ وحملة مقاطعة أوتوبيس مونتجومرى فى نفس العام والمواجهة التى حدثت فى ليتل روك عام ١٩٥٧. وكان ماكنيل هو من طرح فكرة الاعتصام فى الـوول وورث. وناقشوا هذه الفكرة لمدة تقرب من الشهر. ثم جاء ماكنيل إلى الغرفة وسأل الآخرين إن كانوا مستعدين. سكتوا قليلاً، وقال ماكين،

وجيمس شانى وأندرو جودمان. وخلال الفترة المتبقية من الصيف، كانت النار قد أضرمت فى سبعة وثلاثين كنيسة للسود وألقيت القنابل على العشرات من المنازل الآمنة؛ وضرب المتطوعون وأطلق عليهم النار واعتقلوا وطاردتهم شاحنات صغيرة مليئة برجال مسلحين. وانسحب ربع المشتركين فى البرنامج. إن الفعالية التى تتحدى الأوضاع القائمة، والتى تهاجم المشاكل عميقة الجذور ليست لضعاف القلوب.

ماذا يجعل الناس قادرين على الانخراط فى مثل هذا النوع من الفعالية؟ قارن أستاذ علم الاجتماع بجامعة ستانفورد، دوج ماك آدم Doug McAdam، بين المشاركين الذين انسحبوا من برنامج صيف الحرية والذين بقوا، واكتشف أن الفارق الأساسى لم يكن، كما يمكن أن نتوقع، الحماس الأيديولوجى. وقد خلص إلى «أن كل المتقدمين. المشاركين والمنسحبين على حد سواء. اتضح أنهم ملتزمون بشكل كبير، ومساندون فصيحيون لأهداف وقيم برنامج الصيف». الأمر الأكثر أهمية هو درجة الارتباط الشخصى بين الشخص وحركة الحقوق المدنية. فقد طلب من كل المتطوعين تقديم قائمة بالعلاقات الشخصية (أى الأشخاص الذين أرادوا أن يبقوا على علم بأنشطتهم)، وكان للمشاركين أصدقاء مقربون يذهبون للمسيحيين هم أيضاً أكثر من المنسحبين. استنتج ماك آدم أن الفعالية

من فوق الكرسى». فى اليوم الأول أبلغ مدير المطعم رئيس الشرطة، الذى أرسل للتو ضابطين إلى المتجر. وفى اليوم الثالث حضرت مجموعة من المشاكسين البيض إلى منضدة الغداء ووقفت بعنجهية خلف المحتجين مدممين بصفات ذميمة مثل «أيها الزنجى ذو الرأس البشع». وظهر كذلك أحد قادة الكوكلاكس كلان المحليين. وفى يوم السبت مع تصاعد التوتر، صاح شخص ما محذراً من وجود قنبلة مما استلزم إخلاء المتجر.



كانت المخاطر أوضح فى مشروع صيف الحرية فى المسيشى فى عام ١٩٦٤، وهو حملة أخرى من حملات حماية حركات الدفاع عن الحقوق المدنية. جذدت اللجنة التنسيقية السلمية للطلبة المئات من المتطوعين الشماليين وكان معظمهم من البيض غير مدفوعى الأجر لتشغيل مدارس الحرية وتسجيل الناهخين السود وزيادة الوعى بالحقوق المدنية فى الجنوب الأدنى. وصدرت إليهم تعليمات تقول: «لا يجب أن يذهب أى شخص إلى أى مكان بمفرده، لكن بكل تأكيد لا يجب أن يفعل هذا فى سيارة أو ليلاً». فى غضون أيام من وصولهم إلى المسيشى اختطف وقتل ثلاثة متطوعين هم مايكل شويرنر



عندما لجأ عشرة آلاف محتج

إلى الشوارع فى مولدوفا فى ربيع عام ٢٠٠٩

للاحتجاج على حكومة بلدهم الشيوعية، أطلق

على هذا الحدث ثورة تويتر بسبب الوسيلة

التي جمعت المحتجين معاً



مبنى البرلمان». وفى نفس الوقت، من كانوا يرسلون رسائل تويتر عن المظاهرات فى حالة إيران كان معظمهم فى الغرب. «لقد حان الوقت لفهم دور تويتر فى أحداث إيران بشكل سليم» كما كتبت جولناز إصفنديارى Golnaz Esfandiari فى الصيف الماضى فى مجلة فورين بوليسى Foreign Policy، فببساطة: لم تكن هناك ثورة تويترية داخل إيران». وتابع أصفنديارى قائلة إن كوادر المدونين البارزين - مثل أندرو سوليفان Andrew Sullivan الذى دافع عن دور وسائل الإعلام الاجتماعية فى إيران - أساءوا فهم الوضع. فكتبت أن «الصحفيين الغربيين الذين لم يستطيعوا الوصول للناس على الأرض فى إيران (أو لم يكلفوا أنفسهم عناء الوصول إليهم) لم يقوموا إلا بتصفح رسائل تويتر المكتوبة باللغة الإنجليزية الموسومة بكلمة «انتخابات إيران». وفى خضم كل هذا، لا يبدو أن أحداً قد تساءل عن السبب الذى قد يجعل أشخاصاً يحاولون تنسيق الاحتجاجات فى إيران يكتبون بأى لغة غير الفارسية».

يجب توقع بعض من هذه المبالغات. فالمبتكرون يميلون إلى أن يتسموا بالأنانية. هم يريدون فى كثير من الأحيان إقحام كل تجربة وواقعة شاردة فى نموذجهم الجديد. كما كتب المؤرخ روبرت دارنتون Robert Darnton «أنتجت عجائب تكنولوجيا الاتصالات فى الوقت الحاضر وعياً زائفاً عن الماضى، بل وحتى إحساساً بأن الاتصالات ليس لها تاريخ أو لم يكن وضعها فى الاعتبار مهما على الإطلاق قبل عصر التليفزيون والإنترنت». لكن هناك عاملاً آخر هنا فيما يتعلق بالحماسة الزائدة لوسائل الإعلام الاجتماعية. فبعد خمسين عاماً من إحدى أكثر خبرات الاضطراب الاجتماعى استثنائية فى التاريخ الأمريكى، يبدو أننا نسينا ما هى الفعالية.

كانت جرينزبورو فى أوائل الستينيات من القرن العشرين من ذلك النوع من الأماكن التى يواجه فيها التمرد العرقى دائماً بالعنف. فالطلاب الأربعة الذين كانوا أول من جلس على منضدة الغداء كانوا مرعوبين. وقد قال أحدهم فيما بعد: «أعتقد لو أن أى شخص كان قد جاء من خلفى وأطلق صيحة ما كنت سأقع



كان النشطاء يُعرفون فيما مضى بحسب قضاياهم، أما الآن فيُعرفون بحسب وسائلهم



السكان. فهم يمدون مجتمعاتهم بالمعلومات ويحضرون الفعاليات ويتطوعون. وهذا ليس بالأمر الذي يمكنك أن تقيمه بالنظر في دفتر حسابات. بعبارة أخرى، لا تنجح الفعالية على الفيسبوك عن طريق تحفيز الأشخاص لعمل تضحية حقيقية، وإنما بتحفيزهم على القيام بأمر يقوم بها الناس عندما يكونون غير متحفزين بالقدر الكافي لعمل تضحيات حقيقية. فنحن بعيدون جداً عن مناضد غداء جرينزبورو.

إن الطلبة الذين شاركوا في الاعتصامات في مختلف أنحاء الجنوب خلال شتاء ١٩٦٠ وصفوا الحركة بأنها «حمى». لكن حركة الحقوق المدنية كانت أقرب إلى الحملة العسكرية منها إلى عدوى. في أواخر الخمسينيات، حدث ستة عشر اعتصاماً في مدن عديدة في جميع أنحاء الجنوب، خمسة عشر منها نظمها بشكل أساسي منظمات الحقوق المدنية مثل الجمعية الوطنية لتقدم الملونين ومنظمة كوور CORE. كان يتم استكشاف مواقع يمكن القيام بالنشاط العام فيها، ووضع خطط، وكان نشطاء الحركة يعقدون جلسات التدريب ومعتزلات للراغبين في الاشتراك في الاحتجاجات. كان طلاب جرينزبورو الأربعة نتيجة لهذا الأساس: فقد كانوا جميعاً أعضاء في مجلس شباب الجمعية الوطنية لتقدم الملونين. وكانت تربطهم علاقات وثيقة برئيس الفرع المحلي للجمعية الوطنية لتقدم الملونين، وشرحت لهم الموجة السابقة من الاعتصامات في دورنهام، وشاركوا في مجموعة من اجتماعات الحركة في الكنائس النشطة. وعندما انتشرت حركة الاعتصامات من جرينزبورو إلى جميع أنحاء الجنوب لم تنتشر عشوائياً. فقد انتشرت في تلك المدن التي كان بها «مراكز للحركة» موجودة من قبل انتشار حركة الاعتصامات، وهذه المراكز كانت عبارة عن نواة من النشطاء المخلصين والمدرسين المتأهبين لتحويل «الحمى» إلى فعل.

كانت حركة الحقوق المدنية فعالية عالية المخاطر. وكانت أيضاً نشاطاً عاماً استراتيجياً بشكل حاسم، بمعنى أنها تحدى للمؤسسة منظم بدقة وانضباط. كانت الجمعية الوطنية لتقدم الملونين منظمة

مركزية تدار من نيويورك

الالتزام لن يجلب إليك سوى الإطراء والإشادة الاجتماعية. لا يفهم المبشرون بوسائل الإعلام الاجتماعية هذا الفارق، فيبدو أنهم يؤمنون بأن صديق الفيسبوك مثل الصديق الحقيقي وأن تسجيل الدخول كمتبرع في السيليكون فالى في الوقت الحاضر هو فعالية بنفس المعنى المقصود عند الحديث عن الجلوس في منضدة غداء خاضعة للفصل العنصري في جرينزبورو عام ١٩٦٠. كتبت أكر وسميث «إن الشبكات الاجتماعية فعالة بشكل خاص في زيادة الحافز». لكن هذا غير حقيقى. فالشبكات الاجتماعية فعالة في زيادة المشاركة عن طريق تخفيض مستوى الحافز الذى تتطلبه المشاركة.



يوجد على صفحة التحالف من أجل إنقاذ دارفور على الفيسبوك ١٢٨٢٣٣٩ عضو والذين تبرعوا بتسعة سنتات في المتوسط لكل عضو. وثانى أكبر مجموعة للتبرع من أجل دارفور على الفيسبوك تضم ٢٢٧٩٧ عضواً تبرعوا في المتوسط بـ ٣٥ سنتاً للعضو. وصرح أحد المتحدثين باسم التحالف من أجل إنقاذ دارفور لمجلة النيوزويك، Newsweek قائلاً «لا نقيم أهمية شخص ما في حركة المساندة بناء على ما يدفعه بالضرورة. هذه آلية قوية لإشراك هذا القطاع الهام من

يوجد القليل من الجنوب آسيويين في قاعدة بيانات النخاع العظمى. لهذا أرسل شريك بهاتيا في العمل رسالة بالبريد الإلكتروني شارحاً فيها حالة بهاتيا إلى أكثر من أربع مائة من معارفهم، الذين أرسلوها بدورهم إلى معارفهم. وكُرست صفحات على الفيسبوك وفيديوهات على اليوتيوب لحملة «ساعدوا سامير». في نهاية المطاف، سُجل ما يقرب من خمسة وعشرين ألف شخص جديد في قاعدة بيانات النخاع العظمى، ووجد بهاتيا متبرعاً متطابقاً معه.

لكن كيف نجحت الحملة في جعل الكثير من الأشخاص يسجلون أنفسهم؟ عن طريق طلب شيئاً محدود منهم. إنها الطريقة الوحيدة التى يمكنك أن تحمل بها شخص لا تعرفه بشكل حقيقى على أن يفعل شيئاً ما لصالحك. يمكنك جعل الآلاف من الأشخاص يسجلون أنفسهم كمتبرعين، لأن عمل ذلك سهل للغاية. فعليك إرسال مسحة من الخد، ولو حدث الاحتمال البسيط جداً وكان نخاعك العظمى متوافقاً بشكل جيد مع شخص ما يحتاج له ستبقى بضع ساعات في المستشفى. التبرع بالنخاع العظمى ليس أمراً بسيطاً، لكنه لا ينطوى على مخاطر مالية أو شخصية. فهو لا يعنى أن تقضى الصيف مطارداً من قبل رجال مسلحين داخل سيارات نقل خفيفة. ولا يتطلب منك أن تواجه مبادئ وممارسات اجتماعية راسخة. فى الواقع إنه نوع من

بطريقة لا تصلح إلا بالنسبة لمن يتحدثون سويًا فى وقت متأخر من الليل: «هل أنتم جبناء أيها الرفاق أم ماذا؟» ازدادت الجرة لدى أزيل بليرفى اليوم التالى لطلب فنجان من القهوة لأنه كان محاطاً بزميل غرفته واثنان من الأصدقاء المقربين من المدرسة الثانوية. إن طبيعة الفعالية المرتبطة بوسائل الإعلام الاجتماعية لا تتشابه مع هذا على الإطلاق. فمنابر وسائل الإعلام الاجتماعية مبنية على روابط ضعيفة. فتويتير عبارة عن وسيلة لكى تتابع أشخاصاً قد لا تكون قابلتهم أبداً (أو أن يتتبعوك هم). والفيسبوك هو أداة تدير بها بفعالية معارفك الشخصية، وتبقى على اتصال بالأشخاص الذين ما كنت لتستطيع البقاء على اتصال معهم أبداً. لهذا تستطيع أن يكون لك ألف «صديق» على الفيسبوك، وهو ما لا يمكنك فعله أبداً فى الحياة الحقيقية.

يعتبر هذا من عدة جوانب شيئاً رائعاً. فهناك قوة فى الروابط الضعيفة، كما لاحظ عالم الاجتماع مارك جرانوفيتز Mark Granovetter. فمعارفنا. وليس أصدقائنا هم أعظم مصادرتنا للأفكار والمعلومات الجديدة. فالإنترنت يتيح لنا استغلال قوة مثل هذا النوع من الاتصالات البعيدة بكفاءة رائعة. فالإنترنت رائع فى نشر الابتكارات والتعاون بين الاختصاصات المتعددة، والتوفيق السلس بين المشتريين والبائعين، والمهام اللوجيستية فى عالم اللقاءات الغرامية.. لكن الروابط الضعيفة نادراً ما تقود إلى فعالية عالية الخطورة.

فى كتاب جديد بعنوان «أثر اليعسوب: طرق سريعة وفعالة وقوية لاستغلال وسائل الإعلام الاجتماعية فى دفع عملية التغيير الاجتماعى» يروى مستشار الأعمال أندى سميث Andy Smith وجنيفر أكر Jennifer Aaker الأستاذة بكلية الأعمال بجامعة ستانفورد قصة سامير بهاتيا وهو مدير شاب فى سيليكون فالى أصابه سرطان الدم النخاعى الحاد. وهو مثال نموذجى على قوة وسائل الإعلام الاجتماعية. احتاج بهاتيا لزراعة نخاع عظمى، لكنه لم يستطع العثور على متبرع يتطابق معه من بين معارفه وأصدقائه. كانت أفضل فرصة لنجاح الزرع هى أن يكون المتبرع من نفس الأصل العرقى، وكان



يشير إيفجينى موروزوف
العالم بجامعة ستانفورد وأكثر
المنتقدين للتبشير الرقعى أن تويتتر لم يكن له
سوى أهمية داخلية ضئيلة فى مولدوها،
كذلك لم يبد أنها كانت ثورة





يجب توقع بعض من المبالغات. فالمبتكرون يميلون إلى أن يتسموا بالأنانية



عشرات الآلاف من الأشخاص الذين يعتمدون على النقل العام للوصول من وإلى العمل كل يوم. لقد استغرقت عاما. ومن أجل إقناع هؤلاء الأشخاص بالبقاء أوفياء للقضية، كلف منظمو حركة المقاطعة كل كنيسة سوداء محلية بالحفاظ على الروح المعنوية، وتنظيم خدمة مجانية بديلة وهي سيارة التجمع الخاصة، مع ثمانية وأربعين مراسل اثنين وأربعين محطة للشاحنات الصغيرة. وقال كينج لاحقاً إن مجلس المواطنين البيض اعترف بأن نظام سيارة التجمع كان يعمل «بدقة عسكرية». وبحلول الوقت الذي قدم فيه كينج إلى برمنجهام في ذروة المواجهة مع مفوض الشرطة يوجين (بول) كونور Eugene Bull Connor)، كان لديه ميزانية تقدر بمليون دولار ومائة موظف يعملون بدوام كامل ميدانياً ومقسمين إلى وحدات عملياتية. وكانت العملية نفسها مقسمة إلى مراحل تتصاعد باطراد مخططة مسبقاً. وظل الدعم مستمراً من خلال اجتماعات جماهيرية متوالية تتعاقب من كنيسة إلى كنيسة في جميع أنحاء المدينة.

تعتبر حملات المقاطعة والاعتصامات والمواجهات غير العنيفة (التي كانت الأسلحة المفضلة لحركة الحقوق المدنية) استراتيجيات عالية المخاطر. فهي تترك مساحة بسيطة جداً للصراع والخطأ. ففي اللحظة التي ينحرف فيها ولو محتج واحد عن السيناريو ويستجيب للاستفزاز، تتعرض الشرعية الأخلاقية للاحتجاج برمته للخطر.

إن المتحمسين لوسائل الإعلام الاجتماعية دون شك كانوا سيحاولون جعلنا نعتقد بأن مهمة كينج في برمنجهام كانت ستصبح أسهل بكثير لو كان قادراً على التواصل مع أتباعه عبر الفيسبوك، واكتفى برسائل التويتر من سجن برمنجهام. لكن الشبكات تتسم بالفوضى: ففكر في النمط المتواصل من التصحيح والمراجعة والتعديل والنقاش الذي يميز الويكيبديا. لو أن مارتن لوثر كينج الابن، حاول أن ينظم حملة المقاطعة في مونتجومري عن طريق الويكيبديا لسحقته بنية سلطة البيض. وما الفائدة من وسيلة اتصال رقمية في مدينة يمكن الوصول إلى ثمانية وتسعين بالمائة من مجتمع السود

للتلاعب الخارجي والصراع الداخلي بشكل مفرط».

ويواصل سان جيوفاني وجونز قائلين إنه في ألمانيا في السبعينيات «اتجه الإرهابيون اليساريون الأكثر اتحاداً ونجاحاً إلى التنظيم هرمياً بإدارة محترفة وتقسيمات واضحة للعمل. لقد كانوا مركزين جغرافياً في الجامعات، حيث يستطيعون تأسيس قيادة مركزية وثقة ورفاقية عبر لقاءات منتظمة تتم وجهاً لوجه». ونادراً ما كانوا يخونون رفاق السلاح أثناء تحقيقات الشرطة. أما نظرائهم في اليمين فكانوا منظمين كشبكات لامركزية، ولم يكن لديهم نفس درجة الانضباط. وكانت تلك المجموعات تخترق طوال الوقت، فحالما يتم القبض على الأعضاء يتخلون عن رفاقهم بكل سهولة. وعلى نحو مشابه، كانت القاعدة أكثر خطورة عندما كانت عبارة عن تنظيم هرمي موحد. والآن وقد تشتت وتحولت إلى شبكة، ثبت أن فاعليتها أقل بكثير.

إن نواقص الشبكات تصبح قليلة الأهمية لو كانت الشبكة غير مهمة بالتغير الشامل، أي لو كانت لا تريد سوى إثارة الخوف والإهانة أو عمل بعض الإثارة، أو لو كانت لا تحتاج إلى التفكير بشكل استراتيجي. لكن لو كنت تبني مؤسسة قوية ومنظمة فيجب أن تكون بالشكل الهرمي. لقد تطلبت حملة مقاطعة أوتوبيس مونتجومري مشاركة

لا يعتقد أحد أن صياغة فلسفة تصميم متماسكة تتم بأفضل ما يكون عن طريق نظام مترامي الأطراف بلا اتساق وبلا قيادة للتنظيم. ولأن شبكات الإنترنت لا تملك هيكل قيادة مركزي وخطوط واضحة للسلطة، يكون لديها صعوبة حقيقية في الوصول إلى توافق الآراء ووضع الأهداف. فالشبكات لا تستطيع التفكير بطريقة إستراتيجية؛ فهي عرضة بشكل مزمن للصراع والخطأ. فكيف يمكنك اتخاذ اختيارات صعبة بشأن الوسائل أو الاستراتيجيات أو التوجه الفلسفي حين تتساوى أوزان آراء الجميع؟



نشأت منظمة التحرير الفلسطينية كشبكة، وقد طرح عالم العلاقات الدولية ميت آيل ستريب. سان جيوفاني Mette Eilstrup-Sangiovanni وكالفرث جونز Calvert Jones في مقالة نُشرت مؤخراً في مجلة International Security أو (الأمن الدولي) أن هذا هو ما جعلها تقع في مثل هذه المتاعب عندما كبرت. فقد «جعلت» السمات الهيكلية النموذجية في الشبكات (مثل غياب السلطة المركزية، واستقلالية الجماعات المتنافسة بدون ضوابط عليها، وعدم القدرة على الفصل في المنازعات من خلال آليات رسمية) منظمة التحرير الفلسطينية عرضة



إن الصحفيين الغربيين الذين لم يستطيعوا الوصول للناس على الأرض في إيران (أو لم يكلفوا أنفسهم عناء الوصول إليهم) لم يقوموا إلا بتصفح رسائل تويتر المكتوبة باللغة الإنجليزية



وفق إجراءات تشغيل رسمية للغاية. وفي منظمة مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية the Southern Christian Leadership، كان مارتن لوثر كينج، الابن، Martin Luther King, Jr هو السلطة التي لا يعترض عليها أحد. وكانت الكنيسة السوداء في قلب الحركة، وكان لديها تقسيم للعمل حدوده مرسومة بدقة وبها لجان دائمة متنوعة ومجموعات منضبطة كما يشير الدون دي موريس Aldon D. Morris في دراسته الرائعة عام ١٩٨٤ The Origins of the Civil Rights Movement (جذور حركة الحقوق المدنية). كتب موريس أن «كل مجموعة كانت موجهة نحو مهمة محددة وتنسق أنشطتها من خلال هياكل للسلطة». «وكان الأفراد يحاسبون على المهام الموكلة إليهم، والخلافات المهمة كان الكاهن، الذي كان عادة يمارس سلطة مطلقة على الجماعة، يقوم بحلها».

هذا هو الفرق الثاني الحاسم بين الفعالية التقليدية والبديل لها على الإنترنت، فوسائل الإعلام الاجتماعية لا علاقة لها بهذا النوع من التنظيم الهرمي. فالفيسبوك وما شابهه يُعتبر أدوات لبناء شبكات والتي على النقيض من التنظيم الهرمي في الهيكل والأسلوب. فالشبكات ليست تحت سيطرة سلطة مركزية واحدة، بخلاف التنظيمات الهرمية بقواعدها وإجراءاتها. فالقرارات تتخذ من خلال إجماع الآراء، والروابط التي تربط الأشخاص بالمجموعة بدون تنظيم.

هذا الهيكل يجعل الشبكات مرنة وقابلة للتكيف بشكل هائل في المواقف منخفضة المخاطر، والويكيبيديا مثال جيد على ذلك. فليس لها رئيس تحرير يجلس في نيويورك يوجه ويصحح كل بند يتم إدخاله. ويتم تنظيم جهود جميع كل البنود معا بشكل ذاتي. فلو مُحيت كل الموضوعات التي على الويكيبديا غداً، ستتم استعادة المحتوى بسرعة لأن ذلك ما يحدث عندما تكرر شبكة من آلاف الناس وقتهم لمهمة ما بشكل تلقائي.

مع ذلك، توجد العديد من الأمور لا تقوم بها الشبكات كما يجب. فشركات السيارات تفكر جيداً حين تستخدم شبكة الإنترنت في تنظيم المئات من مورديها وليس في وضع التصميمات لسياراتها.

كتاب الزاوية



المدائح النبوية

زكى مبارك

كانت المدائح النبوية أول الأمر، كما يقول الأديب الكبير الراحل زكى مبارك فى مقدمة كتابه «المدائح النبوية فى الأدب العربى» نوعاً من المدائح التى تجرى على الطرائق الجاهلية مثل دالية الأعشى ولامية كعب وقصائد حسان. ثم حدث تطور لهذه المدائح وتوسع، بحيث نشأ مدح أهل البيت، وقد ترعرع هذا الفن فى البيئات الإسلامية المتعددة، وهو ما أوضحه زكى مبارك فى كتابه.

ويقول المؤلف إنه لم يرد الاستقصاء إنما اكتفى بالكلام عن آثار الشعراء الفحول فتناول الكميت بدراسة وافية وأتبع ذلك بفصل عن دعبل ثم الشريف الرضى ومهيار والبوصيرى.

وزكى مبارك من أدباء النصف الأول من القرن العشرين، ولد عام ١٨٩٢ بقرية سنترى بالمنوفية وتعلم بالأزهر، ثم الجامعة المصرية، ومنها نال الدكتوراة عن بحثه فى «الأخلاق عند الغزالي» عام ١٩٢٤، ثم نال الدكتوراة الثانية من باريس عن النثر الفنى فى القرن الرابع سنة ١٩٣١، وبعد ذلك حصل على الدكتوراة الثالثة من الجامعة المصرية عن التصوف الإسلامى. وقد عمل بالتدريس فى الجامعة المصرية ودار المعلمين العالية فى بغداد وترك تراثاً رائعاً من الدراسات والتأملات ودواوين الشعر.

وقد اخترنا بعض قصائد من المدائح النبوية تناولها زكى مبارك فى كتابه الذى أعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة فى مصر إصداره عام ٢٠٠٣.

نيويورك تصنيف الملف تحت بند «سُرق». وتم القبض على ساشا، واستعاد إيفان هاتف صديقه.

ما يطرحه شيركى هو أن هذا النوع من الأشياء لم يكن ليحدث فى عصر ما قبل الإنترنت، وهو على حق. فما كان إيفان ليتمكن من الإيقاع بساشا، وما كانت قصة الهاتف لتنتشر على الإطلاق، وما كان ليحتشد جيش من الأشخاص لشن هذه المعركة. وما كانت الشرطة لتخضع لضغط شخص واحد أضاع شيئاً تافهاً كالهاتف الخلوى. وهذه القصة توضح - بالنسبة لشيركى - «سهولة والسرعة التى يمكن بها حشد مجموعة من الأشخاص من أجل القضية المناسبة» فى عصر الإنترنت.

يعتبر شيركى هذا النموذج من الفعالية على أنه ترقى. لكنه ببساطة شكل من التنظيم يكون أفضل مع الاتصالات ضعيفة الروابط التى تتيح لنا الوصول إلى معلومات عن الاتصالات قوية الروابط التى تساعدنا على المثابرة فى وجه الخطر. إنه يحول طاقاتنا عن التنظيمات التى تشجع الأنشطة الاستراتيجية والمنضبطة ونحو التنظيمات التى تشجع المرونة والقابلية للتكيف.

إنها تمكن النشاط من التعبير عن أنفسهم بطريقة أسهل، لكنها تجعل قدرة هذا التعبير على التأثير أصعب. إن وسائل الإعلام الاجتماعية مناسبة إلى حد بعيد لجعل النظام الاجتماعى الحالى أكثر كفاءة. إنها ليست عدواً طبيعياً للوضع القائم. إذا كنت ممن يعتقدون أن كل ما يحتاجه العالم هو القليل من التهذيب، فلا يجب أن يزعمك هذا. لكن لو كنت تعتقد بأنه لا يزال هنالك مناضد غداء تحتاج للدمج، فمن المحتمل أن يجعلك تتردد.

وينهى شيركى قصة الهاتف الضائع متسائلاً بطريقة تبشيرية: «ماذا سيحدث بعد ذلك؟»، ولا شك أنه تخيل موجات مستقبلية من المحتجين الرقميين. لكنه أجاب على السؤال بالفعل. ما سيحدث بعد ذلك هو المزيد من الشيء نفسه. فالعالم ضعيف الروابط المتشابك جيد فى أمور مثل مساعدة العاملين فى الوجود ستريت على استعادة هواتفهم من الفتيات المراهقات. تحيا الثورة. ■

صباح كل أحد فى الكنيسة؟ إن الأشياء التى كان كينج يحتاج إليها فى برمنجهام (وهى الانضباط والاستراتيجية) أشياء لا تستطيع وسائل الإعلام الاجتماعية على الإنترنت توفيرها.

يعد كتاب كللى شيركى Clay Shirky، Here Comes Everybody أو (هنا يأتى الجميع) بمثابة الكتاب المقدس لحركة وسائل الإعلام الاجتماعية. فقد أخذ شيركى - الذى يُدرس فى جامعة نيويورك - يبين القوة التنظيمية للإنترنت، وبدأ بقصة إيفان الذى كان يعمل فى الوجود ستريت، وصديقه إيفانا، بعد أن تركت هاتفها الذكى، أحد هواتف السايك كيك غالية الثمن، على المقعد الخلفى فى تاكسى بمدينة نيويورك. قامت شركة الهاتف بنقل البيانات من هاتف إيفانا المفقود إلى هاتف جديد، وهكذا اكتشفت هى وإيفان أن هاتفها أصبح الآن بين يدي مراهقة من كوينز كانت تستخدمه فى النقاط صور لنفسها ولأصدقائها.



عندما أرسل إيفان رسالة بالبريد الإلكتروني للمراهقة، ساشا، يطلب فيها استعادة الهاتف أجابته أن «مؤخرته البيضاء» لا تستحق استعادته. أنشأ إيفان وهو فى قمة الاستياء صفحة على الإنترنت مع صورة لها ووصف لما حدث. وأرسل الرابط لأصدقائه، الذين أرسلوه بدورهم لأصدقائهم. ووجد أحدهم عنوانها على الإنترنت وقام بتصوير منزلها بالفيديو أثناء مروره بسيارته، وقام إيفان بنشر الفيديو على الموقع. والتقطت القصة موقع نيوز فلتر ديج، ووصل عدد رسائل البريد الإلكتروني التى يتلقاها إيفان إلى عشرة رسائل فى الدقيقة. فقام بتصميم لوحة نشرت على الإنترنت لقرائه ليشاركوا بقصصهم، لكنها انهارت تحت وطأة الردود. ذهب إيفان وإيفانا إلى الشرطة، لكن الشرطة حررت المحضر تحت عنوان «فقد» بدلاً من «سُرق»، مما يعنى بالضرورة إغلاق القضية. ويكتب شيركى: «وعند هذه المرحلة أصبح ملايين من القراء يترقبون، وقامت العشرات من وكالات الأنباء الرئيسية بتغطية القصة». وخضوعاً للضغوط، أعادت إدارة شرطة

أسئلة الوجوه المتعددة

بالنسبة لكثيرين في العالم الإسلامي بدت الحرب ضد الإرهاب حرباً ضد الإسلام والعالم الإسلامي، ونظراً إلى أمريكا باعتبارها منخرطة في محاولة استعمارية جديدة لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط

التيار الرئيسي للإسلام، ولا ينكر إسبوسيتو أن مسلمين يرتكبون أعمال عنف تشير الغضب ولكنه يتساءل عن الطريقة التي تحدد وتسوى هذه الأعمال مع عقيدة معظم المسلمين.

ويريد إسبوسيتو أن يروي قصة كيف وصلنا إلى ما نحن عليه، وما الذي نريد أن نفهمه وأن نفعله لكي نحقق ما أسماه الرئيس أوباما «طريق جديد إلى الأمام» فمن الأسئلة العديدة التي يطرحها في هذا السياق هي: هل مستقبل الإسلام في الإصلاح أم في الثورة؟ وهل يتعارض الإسلام مع الحداثة Modernity، وما مدى تمثيل الأصولية الإسلامية؟ وهل هي تهديد للمجتمعات الإسلامية وللغرب؟ وما الذي يعنيه الإسلام بالنسبة للمساواة بين الجنسين، وحقوق الإنسان؟ وهل يمكن أن تكون الأقليات المسلمة مواطنين على ولاء للبلاد التي يعيشون فيها في أمريكا والغرب؟

وفي الفصل الأول «الوجوه المتعددة للإسلام والمسلمين» يقدم شكلاً موجزاً للإسلام مقابل الغرب، والإسلام في الغرب، وعند إسبوسيتو أن ما هو أساسي في فهم مستقبل الإسلام هو تنوعه دينياً وثقافياً وسياسياً، وهو يتساءل: من وأين المسلمون؟ وماذا يعتقد المسلمون، كذلك يعتبر أنه من المهم الإجابة عن التساؤلات: لماذا لم يتكلم المسلمون (أحداث ١١ سبتمبر)، وهل هناك خطر في أن الإسلام سوف يكتسح أوروبا ويحولها إلى ما أسماه البعض Eurobia؟ وللإجابة عن هذه الاهتمامات يتطلب نظرة حادة على المسلمين في الغرب، وما هي التجارب والتحديات التي يواجهها المسلمون الأمريكيون والأوروبيون؟ وهل تكيفوا؟ وإن لم يكن فلماذا؟ وإذا كانوا قد تكيفوا فكيف؟

وينبه إسبوسيتو إلى أنه في الوقت الذي يتحدث فيه عن «الإسلام» فإنه يوجد

التقوى الشخصية ويقدم معنى ومرشد لهذه الحياة والآخرة، ولكنه أيضاً أيديولوجية ووجهة نظر عالمية تعلم السياسات الإسلامية والمجتمع، وتناشد الحكومات الإسلامية، وكذلك حركات المعارضة والقادة الدينيين الذين يستخدمون العقيدة لإضفاء الشرعية على معتقداتهم وسياساتهم وأفعالهم، وحيث تستقطب المجتمعات الإسلامية اليوم بين الاتجاهات العلمانية والاتجاهات الأكثر تديناً.

ويقول إسبوسيتو إنه يكتب عن الإسلام باعتباره مستقبلاً جديداً، فالإسلام والمسلمون اليوم هما لاعبان متكاملان في التاريخ العالمي، كما أنه في عالم نخضع فيه جميعاً لثنائية «نحن» «هم» وهو ما يدفعنا إلى العلو عليه، وإن لم نكنر خلافاتنا، وتأكيد إنسانيتنا المشتركة، وأن نتأكد أننا «نحن» سواء كرهنا أو اختياراً، متصلون ببعضنا ببعض ومعتمدون على بعضنا ونخلق بشكل مشترك مجتمعا وعالمنا، ويذكر إسبوسيتو بأنه في الثقافة الغربية، إذا كانت مجموعة من اليهود أو المسيحيين مسئولين عن ضرب مركز التجارة العالمي، فإن قلة فقط هي التي سوف ترجع هذا إلى معتقدات التيار الديني الرئيسي Main stream لليهودية أو المسيحية، فبينما لم ينسب اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين بواسطة أصوليين يهود إلى التيار الرئيسي لليهودية، كذلك لا يوصف هؤلاء اليهود أو المسيحيون الذين يرتكبون جرائم شنيعة على أنهم يمثلون المسيحية أو اليهودية، والأفراد الذين يرتكبون هذه الجرائم يرفضون غالباً كمتطرفين أو مجانين أكثر من وصفهم كأصوليين مسيحيين أو يهود. وعلى النقيض من هذا فإنه غالباً ما تصور بيانات وأفعال المتطرفين المسلمين والإرهابيين على أنهم جزء لا يتجزأ من

لماذا لم يكن هناك إصلاح في الإسلام؟ وأين الإصلاحيون المسلمون؟ ولماذا لا يتكلمون؟ وما موقف الإسلام من الديمقراطية، والمرأة وتمكينها في المجتمع، ولماذا يكره المسلمون الغرب؟ ولماذا لم يبدن المسلمون وعلماءهم أحداث ١١ سبتمبر وأحداث الإرهاب الأخيرة؟ وما مكان ودور الجماعات المسلمة في أمريكا والغرب، وهل اندمجوا في هذه المجتمعات واحترموا قوانينها وقيمها، وإذا كانوا لم يفعلوا ذلك فلماذا، وإذا كانوا قد فعلوا، فإلى أي مدى؟

ويبدأ إسبوسيتو كتابه بتأثير هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية وكيف أنها حولت القرن الواحد والعشرين إلى عالم تسيطر عليه الحرب التي تقودها أمريكا ضد الإرهاب العالمي، وقدمت صورة الإسلام كدين وشعب يجب أن يخاف منه وأن يحارب. وفي هذا، تحدث البعض عن صدام الحضارات، وتساءل آخرون: ما الخطأ؟ ولماذا يكرهوننا؟ وبالنسبة لكثيرين في العالم الإسلامي بدت الحرب ضد الإرهاب حرباً ضد الإسلام والعالم الإسلامي، ونظراً إلى أمريكا باعتبارها منخرطة في محاولة استعمارية جديدة لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط في ضوء مصالحها السياسية والاقتصادية. وجاءت إجراءات الاعتقال بلا محاكمة، وسوء معاملة المسجونين الإسلاميين والإسهامات بتدنيس القرآن والحط من شأن الإسلام وتعذيب سجناء أبو غريب وجوانتانامو، وتآكل الحريات المدنية للمسلمين من خلال الشهادات السرية ومواد قانون الوطنية Patriot act. جاء كل هذا لكي يقوض ادعاءات إدارة بوش بأنها تدافع وتروج للديمقراطية وحقوق الإنسان.

وينبه إسبوسيتو أنه من المهم من البداية أن نتذكر أن موضوع الإسلام والمسلمين هو موضوع سياسي وديني، فالإسلام اليوم ليس فقط عقيدة تلهم

جون إسبوسيتو John Esposito هو أستاذ العلاقات الدولية والدراسات الإسلامية في جامعة جورج تاون، وعلى مدى عشرين عاماً أصدر إسبوسيتو عدداً من الدراسات عن الإسلام والمسلمين، كان أبرزها «الإسلام والسياسة» عام ١٩٨٤، «الإسلام الطريق المستقيم» Islam straight path عام ١٩٨٨، غير أن أهم إصداراته كان كتابه «التهديد الإسلامي.. أسطورة أم واقع» Islamic threat: myth or reality عام ١٩٩٩، والذي ناقش فيه وفند عدداً من المفاهيم الخاطئة عند الغرب عن الإسلام، وفي سياق الاهتمام والقلق الغربي من الأصولية الإسلامية وعلاقتها بالإسلام كعقيدة، أوضح أنه إذا كان العالم يربط الأصولية بالإسلام، فإن فيه نسبة صغيرة من المسلمين هي التي تنتمي إلى هذه المجموعة، كما ركز على أن الإسلام هو أكثر تنوعاً من مجرد مجموعة تروج للإرهاب، ودلل إسبوسيتو على ذلك أن وجود أطباء وأساتذة ومهندسين مسلمين نابغين يقدم أساساً صلباً على التنوع والطبقة الأمانة للإسلام.

وأخيراً فقط، فبراير ٢٠١٠، أصدر إسبوسيتو كتابه الجديد «مستقبل الإسلام» في هذا الكتاب يناقش إسبوسيتو نطاقاً عريضاً من القضايا والأسئلة التي تتعلق بالإسلام والمسلمين في أمريكا الغرب ويجيب عنها، ويوضح من خلال التاريخ والواقع الإسلامي الالتباسات والتشوش الذي يحيط بهما الغرب الإسلام.

ومن هنا كان الكتاب مناقشة لأسئلة تسيطر على رؤية أمريكا والغرب للإسلام:

John L. Esposito, "The Future of Islam, forwarded By" Karren Armstrong. Oxford University press. 2010.

فى هذا الكتاب يناقش إسبوسيتو نطاقاً عريضاً من القضايا والأسئلة التي تتعلق بالإسلام والمسلمين فى أمريكا والغرب



الذين جرى سؤالهم اعتبروا أن الهجمات غير مبررة أخلاقياً، كذلك كان ما تم التعطيم عليه حقيقة أن ٣٥٨ موظفاً مسلماً قتلوا فى مركز التجارة العالمى. وقلة من وسائل الإعلام هى التى غطت عندئذ آلاف بيانات القادة المسلمين والمنظمات الذين ارتفع صوتهم وسارعوا فى إصدار بيانات علنية تدين الهجمات الإرهابية ومعبرين عن تعازيهم. ويتساءل إسبوسيتو لماذا لم تسمع هذه الأصوات؟ ويجب: إن بيانات المواقف العلنية للأغلبية فى التيار الرئيسى الإسلامى ليست أخباراً تصنع مانشئات الصحف، وغالباً ما تعتبر أنها لا تستحق، أما الذين يبشرون بالسلام وحل الصراعات فإنهم يلقون تغطية قليلة وربما تدفن فى الصفحات الأخيرة، وكان من نتيجة ذلك هذا الاعتقاد



والتمسك بأن المسلمين لم

كما نما عدد المساجد فى بلدان مثل بريطانيا وألمانيا وإيطاليا بشكل دال. ويطرح إسبوسيتو سؤالاً حاسماً وهو: لماذا لم يدين المسلمون الإرهاب؟ ويجب أنه منذ ١١ سبتمبر تحدث مع نطاق عريض عبر أمريكا وأوروبا من الرسميين والإعلاميين، ويقارن الدينيين والأكاديميين والجمهور، وحينما يثور نفس السؤال من جانب الكونجرس وخريجي الجامعات لا يثار كقضية مفتوحة للنقاش ولكن كاتهام محدد ونهائى: لماذا لم يدين اتحاد المسلمين هجمات ١١ سبتمبر والإرهاب الإسلامى؟

وفى الوقت الذى ساهم فيه الإعلام بشكل مباشر وغير مباشر يربط المسلمين بصورة سلبية، فإن ما تم تجاهله هو صدمة التيار الرئيسى للمسلمين، ووفقاً لاستطلاع جالوب فإن ٩١٪ من المسلمين

ملئت بجانب واحد وغالباً بمعلومات مثيرة تؤدى بنا إلى الخوف ونبد هؤلاء «الغرباء» ويلاحظ إسبوسيتو أن اندماج Integration المسلمين فى أوروبا أكثر صعوبة منه فى أمريكا، فعلى النقيض من المسلمين الذين جاءوا إلى أمريكا بخبرة وتعلم ومهارات، فإن الذين هاجروا إلى أوروبا تحت ظروف مختلفة جداً من العمال ومن ذوى الياقات الزرقاء عندما كانت أوروبا فى حاجة شديدة للعمال الأجانب، ونتيجة لذلك فإن المسلمين فى ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وهولندا يعيشون فى أحياء منغلقة Ghettos ومنغمسون فى الفقر والجريمة والعصابات، وفى أوروبا فإن الروايات الصحفية والإعلامية تصور أوروبا الفانية المهذرة الإسلام على أنه الديانة التى تنمو بسرعة وحيث نما المسلمون فى أوروبا من ١٢ إلى ٢٠ مليوناً،

أكثر من إسلام وتفسير للإسلام، فصور واقع الإسلام والمسلمين متعددة ومتنوعة: دينياً، وثقافياً، واقتصادياً، وسياسياً، والمسلمون أغلبية فى ٥٧ بلداً، وهم يمثلون عدة قوميات ولغات وعرقيات ومجموعة قبلية. ويناقش إسبوسيتو ظاهرة الإسلام فوبيا فيعتبرها عبارة جديدة عن ظاهرة تنتشر الآن، إلا أنه ليس هناك عبارة مقارنة لوصف العداء والتحيز والتمييز الموجه للإسلام وللبلبون ونصف البلبون مسلم. وعندما أجرت مؤسسة جالوب استطلاعاً عام ٢٠٠٥ تضمن سؤالاً عما يعجبون به فى الإسلام، أجاب ٥٧٪ من الأمريكيين «لا شئ» أو «لا أعلم». ومن المفهوم أن الكثير من الاتجاهات السلبية قد تأثرت بأحداث ١١ سبتمبر وتهديد الإرهاب العالمى، ولكن الضجوة فى معرفة أمريكا والغرب، الإسلام والمسلمين فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر قد

© REUTERS / Ali Jarekji





إذا كان العالم يربط الأصولية بالإسلام، فإن فيه نسبة صغيرة من المسلمين هي التي تنتمي إلى هذه المجموعة

يتحدثوا ضد العنف والإرهاب. وهكذا فإن أفعال الأقلية الخطرة من المتطرفين المسلمين والإرهابيين أصبحت هي المنظار المشوه والذي يرون ويفهمون من خلاله المسلمين وديانتهم.

ويعدد إسبوسيتو ما صدر عن شخصيات مثل فرانكلين جراهام، وتوماس فريدمان عن صمت رجال الدين المسلمين وعدم اعتذارهم للشعب الأمريكي وعدم تأكيدهم أن هذا ليس هو الإسلام الحقيقي وأن هؤلاء الأفراد لا يعملون باسم الله والإسلام. ورد إسبوسيتو على هذه المقتطفات من بيانات صدرت عن شخصيات إسلامية بارزة تدین الهجمات من بينهم الشيخ عبدالعزيز الشيخ مفتي السعودية، وذكي بدوي عميد الكلية الإسلامية في لندن، والمفتي شارمازي من باكستان، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، ومصطفى مشهور مرشد الإخوان المسلمين ومفتي بنجلاديش، والشيخ أحمد ياسين رئيس حركة حماس، ورشيد جهنوش رئيس حركة النهضة بتونس، وفاضل نور رئيس الحزب الإسلامي في ماليزيا، وأكثر من أربعين باحثاً إسلامياً آخرين وسياسيين كانوا بنفس القوة من الإدانة.. وقد أوضح إسبوسيتو أن العديد من القادة المسلمين ومنظماتهم قد استمروا في الرد على كل هجوم إرهابي، فبعد هجوم لندن ٢٠٠٥، وجلاسجو ٢٠٠٧، وبومباي ٢٠٠٨، أصدر قادة مسلمون ومنظماتهم العالمية بيانات تدین الإرهابيين وأعمالهم، فبعد هجمات لندن أصدر أكثر من خمسة آلاف قادة مسلمين بريطانيين فتوى ضد هذا الهجوم، معبرين عن تعازيهم لعائلات الضحايا ومتمنين لهم شفاء عاجلاً ومقررين أن الإسلام يدين العنف وتدمير حياة الأبرياء، واعتبروا أن العمليات الانتحارية محرمة بشدة، واعتبر شيخ الأزهر هجمات لندن أنها أعمال إجرامية لا تمثل الإسلام ولا تفهم رسالته وبعد ٩/١١ اشترك مسلمو أمريكا الشمالية وأوروبا، الذين صعقتهم هذه العمليات، والخوف من أن السلام فويبا بين تجمعاتهم وخبراتهم وأماكن عملهم سوف ينمو مع جرائم الكراهية والتمييز والمزيد من تآكل الحريات المدنية، وقد تحققت مخاوفهم، فقد ظل كل المسلمين الأوروبيين يعيشون في ظل تيارات من الشكوك والعداء المتزايد الأمريكية والأوروبية غير أن هذه الخبرة قد أجبرت المسلمين الغربيين أن يعيدوا تقييم هويتهم وإعادة فحص فهمهم للإسلام، وكان من بين النتائج الإيجابية تصاعد الجدل الداخلي من المسلمين حول مكان المسلمين في مجتمعاتهم غير المسلمة وإلى المزيد من الانغماس في الانتخابات والشئون العامة في هذه المجتمعات.

والسياسة والمجتمع عبر العالم الإسلامي، وهي القوة التي تستمر في التأثير على السياسة الإسلامية اليوم، وهي السبب في أن الانتخابات الديمقراطية التي جرت قد أنتجت مرشحين لهم توجه إسلامي في المستويات العليا للحكومات، وهو ما حدث في تركيا - حصن العلمانية - وماليزيا واندونيسيا، وقد استمر هذا الاتجاه في القرن الواحد والعشرين.

ويعالج إسبوسيتو قضية مهمة هي علاقة الدين بالعنف والحرب، وفي الوقت الذي يرفض فيه جماعات العنف، فإن الواقع أن معظم الديانات والأمم قد عاودوا أو لجأوا للعنف في نضالهم وحروبهم وثوراتهم «العادلة»، وكذلك حروب الإنجيل المقدسة والحملات الصليبية، وكذلك الحروب الفرنسية والأمريكية والجهاد الأفغاني - في كل هذا فإن التمييز الحرج هو بين الاستخدام المشروع أو غير المشروع للدين لتبرير استخدام العنف - ويبرز الكتاب دور الإسلام الوهابي والسلفي، فبينما كانت الأصولية الإسلامية هي التعبير المستخدم لتجديد الإسلام الراديكالي قبل ١١ سبتمبر، فإنه بعد ١١ سبتمبر استبدل هذا التعبير بعبارات أكثر تحديداً وهو «الإسلام الوهابي»، «الإسلام السلفي».

وتعلو الوهابية والسلفية من عهد النبي محمد وأصحابه باعتباره يعرف الفساد بالنسبة للمجتمع الديني وهم يعتقدون أن الإسلام قد انحدر بعد الأجيال الأولى نتيجة للتحديات الدينية غير الإسلامية، وأن الإحياء الإسلامي يتطلب تقليد الأجيال الأولى والتطهر من التأثيرات الأجنبية.

وهم يدينون الممارسات الإسلامية باعتبارها شركاً، ويعارضون الصوفية والشيعية ومعظم الحركات الإسلامية التي يعتبرونها كتجديدات لـ «الإصلاح الصحيح»، وهي بهذا هرطقة. ورغم أن التفسيرات الوهابية والسلفية بقيت قوية، ولأنها ليست شائعة ومسيطرة في معظم البلدان الإسلامية، فإن اتجاههم إلى الإقصاء والعزلة واللاهوتية غير المتسامحة ليسوا أكثر خطورة من الأصوليات في العقائد الأخرى، ولكن أتباعهم سوف يظلون بالتأكيد غير مهياين للاستجابة للحاجة إلى التعددية الإسلامية في عالم تتزايد عولته، عالم يعيش فيه ملايين بين المسلمين من بلدان ذات أغلبية غير مسلمة.

ومع هذا فإن الحركات الجهادية إنما تشكل تهديداً مستمراً ومباشراً لأمن البلدان الإسلامية والغرب وسوف تستمر في دعم الذين يرون الإسلام كمشكلة، والجهاد العالمي كتهديد بارز.

آخرون مثل مراکش والأردن حددوا خطوات إلى الخلف في طريقهم للديمقراطية، وكان الفشل في الاستجابة للأسباب الجذرية للإرهاب قد غير كثيراً شكل تصوراتنا للعالم ولسياستنا الخارجية.

ويذكر إسبوسيتو الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان وكيف أنه جاء إلى الحكم يحمل فلسفة إحياء Revival أمريكا وإرجاعه مشكلتها إلى أنها هجرت القيم والمبادئ التي أرساها الآباء المؤسسون، وكان الإصلاح عنده هو أن على أمريكا أن تجد نفسها وإعادة التمسك بهويتها وقيمها وبمعنى آخر فإن ريجان قد دافع عن نوع ما من الأصولية الأمريكية وربما إلى العودة إلى هذه القيم والمبادئ الأصولية التي سوف تعيد من جديد طريق القوة الأمريكية والثروة بشكل يمكنها من أن إعادة مواصلة مصيرها كقائد عالمي.

ويعتبر إسبوسيتو أن إعادة الأحياء الرئيسية في أمريكا والعالم الإسلامي ليس فقط حول الدين، وإنما هي استجابة لفشل سياسي واقتصادي واجتماعي وفقدان الإحساس بالهوية والمعنى وتبديد الوهم العميق أو اليأس، ما في رواية الأحياء هو عودة لما هو مثالي أو رومانسي وللقيم والمعتقدات ذات التوجه الإلهي والإحساس بالهدف والمعنى والنجاح.

كذلك استخلص الكثير في العالم الإسلامي أن الاعتماد الزائد على الغرب كنموذج للتقدم قد يضعف أكثر من أن يقوى العالم الإسلامي، هذه الأزمة فرضت شعوراً سائداً بالعجز والدونية لكن الكثير من المسلمين الذين كانوا نتاجاً لقرون من السيطرة الأوروبية والتي تركت كراهية عميقة لتوغلها واستغلالها، كل هذا هو الذي غذى دعوة الكثيرين للعودة إلى المبادئ الإسلامية والإصرار على أن المسلمين يجب أن يستعيدوا ميراثهم العربي والإسلامي وثقافتهم وقيمهم، هذا الطلب أو السعي لهوية تاريخية حقيقية هو الذي أشعل إعادة إحياء الدين



الكتاب مناقشة لأسئلة تسيطر على رؤية أمريكا والغرب لإسلام: لماذا لم يكن هناك إصلاح في الإسلام؟ وأين الإصلاحيون المسلمون؟ ولماذا لا يتكلمون؟





ينبه إسبوسيتو أنه من المهم من البداية أن نتذكر أن موضوع الإسلام والمسلمين هو موضوع سياسي وديني

أنى كصبي صغير كان أملى يخيب عندما أتلقى هدية من اليابان، حيث كانت الحكمة السائدة أن المنتج «صنع في اليابان» كان رخيصاً ومتدنياً أمام أى شيء صنع في أمريكا، ولم يكن نتصور أن اليابانيين يمكنهم يوماً أن يتحدوا تفوق أمريكا تكنولوجياً، والآن أفخر أنى أملك السيارة ليكسوس. وحول التساؤل «هل الإسلام قابل للإصلاح»، وهل هناك إسلاميون إصلاحيون يعتبرها إسبوسيتو أسئلة غريبة وحتى سخيفة، حيث إنها تبدأ باقتراض «الاستثنائية الإسلامية» والاعتقاد أن الإسلام لا يشبه أى ديانة أخرى، وكأى دارس لتاريخ الديانات يقول إن كل الديانات الكبرى قد تغيرت واستمرت في التغيير، وباعتبار الطبيعة البشرية والسياقات التاريخية والسياسية الديناميكية فإن التغيير أمر حتمي، والقضية حتى بين المحافظين والأصوليين، لم تكن ماذا كان التغيير سوف يتحقق ولكن على أى مدى ونوع، وبعد ١١ سبتمبر، فإن الدعوة إلى الإسلام، ودعم صلاحيته في عالم يتغير بسرعة في القرن الـ ٢١ قد اشتدت، فإذا قال البعض إن الإسلام هو دين كامل ولا يحتاج لتغيير أو تكيف، فإن آخرين يؤكدون أن الإسلام ديناميكي في طبيعته وأن إعادة التفسير والإصلاح أساسيان في التجاوب مع متطلبات عصرنا، وكذلك لتهميش المتطرفين وإعادة المساواة بين الجنسين والتعددية الدينية وحقوق الإنسان، هذا الجدل قد ازداد بفعل عدة قوى ابتداء من التكنولوجيا الحديثة، ووسائل الاتصالات الجماهيرية إلى نمو التطرف الديني والإرهابي باسم الإسلام، فإذا كان هذا هو الحال فمن هم وأين المصلحون الإسلام أو مارتن لوتر؟

ويجيب إسبوسيتو على هذه التساؤلات بأنه لعدة عقود فإن عدداً من المثقفين الإسلاميين والقادة الدينيين من إفريقيا إلى آسيا ومن أوروبا إلى أمريكا قد ناقشوا دور الإسلام في المجتمع المعاصر: كيف يساهم الدين والقانون الإسلامى فى الأمة - الدولة الحديثة؟

وكيف نطبق القيم الإسلامية على القضايا الرئيسية اليوم مثل الديمقراطية والعلمانية، والمساواة بين الجنسين، وحقوق الإنسان، واقتصاديات السوق الحرة، والبنوك الحديثة، وما هو دور العلماء ulma، وهل هم الأصوات ذوى المصداقية للتحدث باسم الإسلام؟

إن الإصلاحيين هم علماء ومثقفون وحداثيون يمكن أن تجدهم فى المعاهد الدينية والجامعات والمؤتمرات الدينية والأكاديمية فى المناقشات البرلمانية، كما تنتشر أفكار

قوتها الفائقة العسكرية والسياسية وبشكل انفرادى وبعدم تناسب وبلا تمييز. وهكذا فإن العداء لأمريكا قد غذى ليس فقط حجج الإرهابيين ولكن أيضاً سيادة الإحباط من السياسة الخارجية الأمريكية بين المجتمعات العربية والإسلامية والرسميين والصحفيين، وبين المسلمين الديمقراطيين الذين يعتقدون أن الديمقراطية مهمة لتقدم مجتمعاتهم، وكانت نسبة ضئيلة جداً من ٥% - ١٠% هى التى اعتقدت أن أمريكا جديرة بالثقة والمصداقية وتعامل الآخرين باحترام. وهكذا كان فشل الحكومات العربية والغربية وما نتج عنها من اشتعال العداء لأمريكا والغرب هو الذى غذى المتشددين وهدد أمن المجتمعات الإسلامية والتيارات الرئيسية فيها، لذلك يصبح التحدى الحالى هو صياغة وتطبيق إصلاحات عقائدية وتعليمية فى المدارس والجامعات والتى تستجيب بشكل أكثر فعالية لتحديات العولمة فى القرن الواحد والعشرين وحاجة كل العقائد الدينية التى تبني صيغاً استيعابية وليست إقصائية والتى تدعم التفاهم والاحترام التعددية الدينية.

ويخصص الكتاب فصلاً يناقش فيه التساؤل الذى يدور فى أمريكا حول الإصلاحيين الإسلاميين وغيابهم ولماذا لا يظهرون. ويؤكد إسبوسيتو وجود هؤلاء الإصلاحيين من أمثال عمرو خالد، وطارق رمضان، وعلى جمعة، ومصطفى سيريك وتوم بنشر وهبة رؤوف الذين يعملون ويتكلمون حول قضايا الدين السياسى والعلاقة بين الإسلام والغرب. وفى تفصيل ذلك يروى إسبوسيتو تجربة له فى اليابان حين واجه جمعاً من رجال الأعمال والديبلوماسية اليابانيين الذين دارت أسئلتهم حول عدم توافق الإسلام مع العلم الحديث، إذا كان المسلمون يستطيعون التوفيق بين «مكة»، «الميكنة» mecca and mechanization أو أن دينهم وثقافتهم تمكنهم من تبني الحداثة، وقد أخبرتهم

وانتصارهم فى المعركة على أن يبحثوا عن مبادئ أخرى للجهاد فى الداخل أو فى أراض إسلامية أخرى.

وقد أثبتت سياسات العديد من الحكومات الإسلامية أنها عامل مساعد للراديكالية والإرهاب الموجه مباشرة إلى بلادهم وتجاه مؤيديهم الغربيين. ويتعرض الكتاب للسنة والشيعية، وكيف أن الحرب على الإرهاب أدت إلى تجاهل التنوع بين المسلمين والبلدان الإسلامية، وكان عدم فهم الأصول البارزة للطائفتين السنية والشيعية فى العالم الإسلامى إلى نتائج كارثية فى غزو واحتلال العراق وتهديد قدرتنا فى المستقبل على التناول الفعال للسياسات السنية والشيعية فى قضايا العالم الإسلامى، خاصة فى الخليج وباكستان، وكانت نفس الإدارة التى خططت لغزو العراق قد تعامت عن الدور الذى سوف يلعبه الإسلام الشيعى وشيوخه وميليشياته بعد «الصدمة والرعب» وقد أثبتت السنوات الأولى من الاحتلال الأمريكى مدى عدم فهم إدارة بوش وبول بريمر للسباق التاريخى والسياسى، ولم يكونوا يستطيعون حتى تحديد الأصدقاء والأعداء المحتملين بين القادة الشيعيين الرئيسيين، وفى وقت كان فيه الوعى بالعنف الطائفى المستمر فى العراق وتعدد السياسات السنية والشيعية والصراعات المحتملة فى الخليج وباكستان أمراً أساسياً.

ويناقش إسبوسيتو مصادر العداء الأمريكى وتلازم السياسة الخارجية الأمريكية مع العمل العسكرى وتوسيع نطاق الحملة العسكرية، وتحديد ماسمى «محور الشر» الذى يتكون من أقطار معظمها مسلمة وغزو واحتلال العراق، وفشلت إدارة بوش فى الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى وحروب لبنان وغزة، كل هذا أدى إلى إزكاء مشاعر العداء لأمريكا ينظر إليها كدولة إمبريالية التى استخدمت

وفيهما يتعلق بالتساؤل حول لماذا يتحول الجهاد من جهاد محلى إلى جهاد عالمى، وعما يعنى هذا التحول بالنسبة للأجيال مقاومة؟

يجيب إسبوسيتو أنه رغم أن الجهاد كان مصدر إلهام للمسلمين عبر القرون، إلا أن النصف الأخير من القرن العشرين قد شهد عولمة جهاد «جديد» الذى استغل عالمياً للتجنيد القوى للأفراد، وكذا للتحركات السياسية والاجتماعية سواء من التيار العام أو بين المتطرفين، وكان وجهاً أساسياً فى المقاومة والنضالات من أجل التحرر والحروب المقدسة وغير المقدسة، وليس هناك دلالة أن مستقبلها سوف يقل فى المستقبل، فما هى أصول الجهاد العالمى اليوم، وكيف ولد الجهاد الجديد؟

لقد شنت الحرب الأفغانية - السوفيتية ١٩٧٩ - ١٩٨٩، خلال الحرب الباردة فى نفس الوقت الذى كان فيه الغرب وعديد من الأمم المسلمة تخشى ليس فقط الشيوعية ولكن أيضاً تصدير الثورة الخومنية، وكانت الحرب الأفغانية ذات طابع خاص بسبب البلدان التى أيدتها، ووسائل الإعلام الجماهيرية التى غطتها، والطريقة التى جعلت منها وسائل الإعلام واقعاً مباشراً، وفى الوقت الذى كان فيه الكثيرون فى أمريكا وأوروبا وباكستان والسعودية ودول الخليج تخشى جهاد إيران الشرير كان كل من البلدان العربية والإسلامية قد احتضنت وكانت شغوفة بتأييد الجهاد الأفغانى «الطيب» بالمال، والأسلحة والمستشارين وكان هذا التأييد يرى بوضوح من خلال التغطية الإعلامية العالمية فى الحال والتى رفضت العرب والمسلمين لتأييد هذا النضال بحق، وكانت التغطية المباشرة قد ساعدت فى رفع وعى المسلمين وتجديد الإحساس بالانتماء إلى مجتمع عالمى وهو «الأمة»، وقدم هذا دافعاً للعمل، حيث بعث العديد من المسلمين مساهماتهم المالية، وذهب البعض إلى أفغانستان للاشتراك فى الجهاد، وقد أدت عولمة الحرب الأفغانية والانتصار الملهم للجهاديين ضد السوفييت الأقوياء، إلى تشجيع المسلمين على استخدام رموزهم الإسلامى فى النضالات العديدة الأخرى التى كانوا منخرطين فيها عالمياً، وسواء كانت حركات مقاومة أو إرهاب، ودينية أم علمانية أو حروب مقدسة أو غير مقدسة فى البوسنة، وكوسوفا، شيشينيا أو كشمير، العراق أو فلسطين، فقد ماتوا شهداء، وعن غير قصد قدمت الحرب الأفغانية أرضاً واقعية لتدريب الجهاديين فى المستقبل والذين أصبحوا يعرفون بالعرب الأفغان، وكذلك شجعتهم خبرتهم



ما مكان ودور الجماعات
المسلمة فى أمريكا والغرب، وهل اندمجوا
فى هذه المجتمعات واحترموا قوانينها وقيمها، وإذا
كانوا لم يفعلوا ذلك فلماذا؟ وإذا كانوا
قد فعلوا، فإلى أى مدى؟





يقول إسبوسيتو إنه يكتب عن الإسلام باعتباره مستقبلنا جميعاً، فالإسلام والمسلمون اليوم هما لاعبان متكاملان فى التاريخ العالمى

الإصلاحيين فى مئات الكتب والمقالات والفضائيات وافتتاحيات الصحف وفتاوى رجال الإفتاء وعلى الإنترنت، وكما هو الحال مع المسيحية فإن التغيير فى الإسلام لم يعد محصوراً فى المناقشات حول العقيدة والقانون ولكن يتضمن أيضاً الاتصال فى السياسة والمجتمع فى وقت العنف والإرهاب. ويذكر إسبوسيتو أن الكثيرين فى أمريكا والغرب قد نسوا أن المسيحية قد ناضلت بقوة عبر العديد من القرون لإصلاح الكاثوليكية الرومانية حول قضايا متنوعة مثل البابوية والقساوسة وصكوك الغفران، وهو النقاش والجدل الذى نتج عنه التنوير، ومثل المسيحيين فإن المسلمين يمثلون توجهات متعددة من الحرفيين Litralistics والأصوليين، والمحافظين والتقليديين والعلمانيين والإصلاحيين، وعلى النقيض من الإصلاح المسيحى الذى نما وتقدم فى المقام الأول بالظروف فى الغرب عبر عدة قرون فإن الإسلام والمسلمين لديهم فقط عقود وليس قرون لتحقيق تقدم مهم فى عالم معولم، ويتميز بالتقدم الغربى السياسى، والعسكرى، والهيمنة الاقتصادية.

واليوم فإن العديد من المسلمين يتبعون الإصلاح ليس من موقع القوة والسلطة، ولكن من موقع ضعف نسبي ويناضلون من أجل التغيير فى وجه نظم سلطوية والقهر وحرية محدودة للتعبير فى بعض حالات الحرب الأهلية.

ويوضح إسبوسيتو أن الإصلاح كان جزءاً متكاملًا من تاريخ الإسلام، وقد ناضل النبي المصلح محمد ومجتمعه المبكر لتحسين عالمهم بتأسيس نظام إسلامى، وفى كل عصر فإن التباين سواء كان حقيقياً أو متصوراً بين إرادة الله وبين حالة العلم قد ألهمت الإصلاحيين الدينيين (المجددين) والحركات التى دعت المسلمين لإصلاح مجتمعاتهم واتباع الإسلام بشكل أكثر صدقاً، وكان هذا الاعتقاد مؤيداً من الحديث الذى قال إن الله يرسل لمجتمعه من يجدد دينه، وفى وقت الانقسام والانحدار كان معظم الباحثين الدينيين من التيار الرئيسى ولكن بعضهم من المتطرفين قد ظهروا لدعوة مجتمعهم للعودة إلى رسالتها الأصلية، ومنذ أيامه الأولى امتلك الإسلام تقليداً غنياً من الإصلاح ومفهوماً للتجديد كان من المكونات الأصلية لوجهة نظر الإسلام العالمية المتجذرة فى القرآن وسنة النبي، واليوم يعتمد الإصلاحيون بشكل كبير على أفكار واستراتيجيات طورها القادة المسلمون الذين واجهوا أزمة الاستعمار الأوروبى والسيطرة فى نهاية القرن الـ ١٩ ووسط انحدار سياسى واقتصادى، فإن

الإصلاحيين المسلمين من شمال إفريقيا إلى جنوب شرق آسيا دعوا إلى الاجتهاد والإسلام فى الوقت الذى كانوا يجاهدون لتلبية متطلبات الحياة الحديثة وقبل العلمانيين المسلمين فإن الإصلاحيين المسلمين كانوا متأثرين بتحدى وتهديد «نجاح الغرب»، وحيث كان الغرب قوياً والمسلمين ضعفاء يخضعون للسيطرة الغربية، وقد دعوا إلى النهضة الإسلامية لكى تستجيب بشكل ملائم للأفكار والمؤسسات العربية الحديثة، واعتقدوا أن مثل هذه النهضة الإسلامية سوف تكون الخطوة الأولى على طريق إحياء الإسلام واستعادة القوة الإسلامية والحصول على الاستقلال الوطنى.

وقد جادل الحداثيين الإسلاميين بأن انحدار المجتمع لا يرجع إلى أى ثغرة فى الإسلام نفسه ولكن إلى الابتعاد عن العقيدة الديناميكية وسلوك النبي محمد والمجتمع المسلم الأول والأسماء التى ظلت حية حتى يعود مثل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧)، ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، وفى شبه الجزيرة الهندية سيد أحمد خان (١٨١٧ - ١٨٩٨)، ومحمد إقبال (١٨٧٦ - ١٩٣٨)، وجميعهم دعوا إلى النقاء وإعادة البناء وتجديد الإسلام لكى يحل محل الركود السائد وجهة النظر العالمية للقرون الوسطى. وكانت هناك دعوات للتطور التعليمى، والعلمى، والنيولوجى أى إصلاح إسلامى.

ومع نهاية القرن الـ ١٩ جادل سيد أحمد خان إلى الحاجة إلى خطاب دينى جديد قال «اليوم كما كان فى الأيام السابقة نحن نحتاج إلى خطاب ونبي جديد يوفق بين معتقدات علم عقيم وبين نظريات الإسلام الصحيحة».

وقد كرس أحمد خان حياته ليس فقط للإصلاح الدينى، ولكن أيضاً التعليمى ومؤسسا لجامعة aligarh التى كانت مناهجها الحديثة على غرار جامعة كامبريدج، وبعد ذلك بعقود وفى جنوب الهند فإن محمد إقبال الشاعر الفيلسوف

الذى نال درجة القانون من لندن، والدكتوراه من ألمانيا ودعا بوضوح إلى إصلاح إسلامى «نحن نحتاج إلى خطاب دينى جديد وخبرة شبيهة بالإصلاح البروتستانتى ودرس حركة لوثر لا يجب أن يفقد».

ويركز إسبوسيتو أن الحداثيين المسلمين ركزوا على عدم تعارض الإسلام مع العقل والعلوم والتكنولوجيا، واستدعوا التراث الإسلامى فى الرياضيات والجبر والفلك والطب والعلوم لكى يظهروا أن الإسلام هو دين العقل والتقدم، كما دعوا إلى إعادة تفسير جرىء والاجتهاد فى التعاون والخطاب الدينى الإسلامى وشكل يميز بين مراعاة القانون الإسلامى غير المتغير مثل الصلاة والصوم والحج، وبين التشريع الاجتماعى مثل الزواج والطلاق والعقود وفى النظام السياسى، والتى يمكن إعادة إصلاحها وتغييرها بشكل يواجه متطلبات المجتمعات المتغيرة والحياة الحديثة. ومما يثير الاهتمام أن معظم الإصلاحيين ليسوا بالضرورة باحثين دينيين تقليديين ولكن متعلمين ومهنيين قاوموا سلطة العلماء المحافظين باعتبارهم الحفاظ الوحيدين، وهم يعيدون تفسير الآيات القرآنية لكى يروجوا لمزيد من المساواة بين الجنسين وتغيير تعدد الزوجات والحق المتفرد للزواج والطلاق، وتنمية تعليم النساء، ورغم هذا فإن تأثيرهم يحد منه النظم السلطوية والمؤسسات الدينية المتحصنة، وزيادة على ذلك فإن معظم الإصلاحيين فشلوا فى فهم الحاجة إلى منظمات إصلاحية قوية، ولهذا فإن أفكارهم لم تتحول بشكل سريع إلى حركات جماهيرية شعبية، ورغم هذا فإن قوة إعادة تفسيرهم للإسلام شكلت أساساً قوياً بنى عليه الكثيرون اليوم، فميراث محمد عبده وإقبال وخان مازال حياً بين الإصلاحيين الذين يعملون لإضفاء الشرعية وأسلمة الأفكار الحديثة عن الديمقراطية والحكومات البرلمانية وحقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين



من الأسئلة العديدة التى يطرحها فى هذا السياق هى: هل مستقبل الإسلام فى الإصلاح أم فى الثورة؟ وهل يتعارض الإسلام مع الحداثة؟



والإصلاحات لتأسيس مؤسسات تعليمية تجمع بين «المناهج الحديثة» والدراسات الإسلامية، وقد دخلت الأفكار والقيم الإسلامية الحديثة فى تيار الخطاب الإسلامى وأصبحت جزءاً من التيار الرئيسى للفكر الإسلامى.

ويعتبر إسبوسيتو أن من التحديات الكبيرة بالنسبة لكل الإصلاحيين أهمية ربط وإظهار الاستمرارية بين التغيرات المقترحة وبين العقائد التى طال الاعتقاد فيها والتقاليد، ولكن ليس غريباً أن الإصلاحيين يؤكدون دائماً على أنهم يدافعون عن شىء جديد جذرياً وأن التقليد الإسلامى قد اعترف دائماً بالحاجة لإعادة تفسير مصادره فى ضوء الواقع الثقافى والاجتماعى، وشأن المسلمين الحداثيين لأواخر القرن الـ ١٩ وأوائل القرن العشرين، فإن معظم الإصلاحيين اليوم يميزون بشكل حاد بين الفرائض لله وبين الأمور الدينية مثل الزواج والطلاق والميراث والعقود وفوائد البنوك والرهونات التى يمكن أن تتغير استجابة للظروف الجديدة. ويمكن لإصلاحيين مثل طارق رمضان ونور شويش Nour Chopich أن يرفضوا من جانب العلماء المحافظين ومسلمين آخرين باعتبارهم رجالاً عاديين تتأثر أجندتهم بتعليمهم وتأثرهم بالغرب، ولكن هناك أيضاً علماء بارزين الذين يعكسون أفكاراً إصلاحية، فقد أعلن الشيخ على جمعة مفتى مصر أن الله قد منح الحرية لكل البشرية وهذا يتضمن الحق فى اختيار دينهم دون أن يفرض عليهم من الخارج، ولكن على جمعة يؤكد أن الحرية تعنى المسؤولية. كذلك يدعى القرضاوى أن كل شىء مقبول أو حلال ما لم يثبت أنه حرام بنص واضح من القرآن أو الحديث، الأمر الذى لا يضعه فقط باعتباره باحث دينى تقليدى حديث، ولكن أيضاً فى صراع مباشر مع المسلمين السنة وغلاة المحافظين والأصوليين الذين يعتبرون أن كل شىء ممنوع ما لم يثبت أنه مقبول.

ويذكر إسبوسيتو بأن سيطرة المخاوف من الإرهاب والتطرف فى الغرب يجعلنا ننسى أحياناً أن مثل هذا العنف يمثل أيضاً قوة تدميرية أكبر ضد المسلمين، وأنهم ليس فقط أغلبية الضحايا فى الهجمات الإرهابية ولكن أيضاً أن استمرار العنف عبر العالم يربط عقيدتهم بكل ما هو شرير ومهدد. لذلك أدان العديد من القادة المسلمين هجمات ١١ سبتمبر وأعمال الإرهاب الأخرى وأقاموا خطأً فاصلاً بين الإسلام «الحق» وبين الإسلام «المتطرف» ومع هذا فإنهم يختلفون حول تحديدهم للعنف المشروع وغير المشروع وما يشكل الإرهاب وظلت الهجمات الانتحارية فى



وما هي التجارب والتحديات التي يواجهها المسلمون الأمريكيون والأوروبيون؟ وهل تكييفوا؟ وإن لم يكن فلماذا؟ وإذا كانوا قد تكييفوا فكيف؟

التشدد هي عملية تستفيد وتعتمد إلى حد كبير على الفكر الإسلامي. وثمة مجموعة من الباحثين الإسلاميين والقادة الدينيين في أوروبا وأمريكا هم أصوات فعالة في عملية الاندماج وهم يناقشون قضايا العقيدة والهوية والاستيعاب Assimilation والتعددية الدينية والتسامح. وثمة تطورات مهمة تأتي من مسلمين أوروبيين مثل البريطاني وينتر والسويسري رمضان، وكذلك سيريك في البوسنة والهرسك، وهم في رفضهم لوجهة نظر استقطابية والتي تضع «المسلمين» ضد «الغرب»، فإنهم يدافعون عن هوية أوروبية أو أمريكية مركبة تقوم على القيم المشتركة.. ورغم اعترافهم بالخلافات الدينية والثقافية، إلا أنهم مع هذا يؤكدون على التوافق الجوهرى للإسلام والغرب وينبهون أن مثل هذه الخلافات يمكن أيضاً أن توجد بين الكاثوليك في هولندا والنمسا، أو بينهم وبين الكنائس المسيحية، وعلى هذا فهي أشكال مختلفة للإسلام. ولكن هل هناك صدام للقيم الأساسية بين الإسلام الأوروبي والأمريكي وبين القيم الغربية والعلمانية؟ إن كلا من رمضان وسيريك يتحدثون عن القيم المشتركة (الإسلامية والغربية) كأساس للمواطنة فأخلاقيات المواطنة تتطلب أن توضع القرارات باسم المبادئ المشتركة وليس على أساس واحد من الهوية الدينية. ويعتقد رمضان أن تبنى الإسلام والمجتمع المفتوح ليس خيانة للمبادئ الإسلامية، فهي تمكن كل المواطنين أن يعيشوا معاً، وهذا الشرط الضروري للحرية الدينية للمسلمين الآخرين، وهكذا فهو يدعو المسلمين الأوروبيين لنشر رسالتهم في الداخل والخارج «فنحن نعيش في ديمقراطية ونحترم الدولة وحكم القانون ونحترم الحوار السياسى ونريد ذلك لكل المسلمين».

ويعتبر رمضان أن السؤال «هل تستطيع أن تكون أوروبياً مسلماً سؤالاً مضى عليه الزمن passe فليس هناك في القرآن أو سنة النبي أو الدساتير الأوروبية ما يمنع المسلم من أن يكون كلا منهما: مسلم مشارك وأوروبى موالٍ، كملايين المسلمين الذين يعيشون ويعملون ويصوتون في أوروبا هم شهادة حية أن الفرد يستطيع أن يكون مسلماً وأوروبياً في نفس الوقت فليس هناك تناقض. ورغم هذا يعتقد رمضان أن الاندماج لا يعنى استيعاباً كاملاً، فالمسلمون يجب أن يسمح لهم أن يطوروا هويتهم وثقافتهم الأوروبية المسلمة، فمثلاً فعلت العقائد والجماعات العربية الأخرى قبلهم، والتكامل هو قبول المسلم للدستور والقانون والإطار العام لأى بلد أوروبى

مقبولة كلية، وعنده أنه من الأمور الكريهة للإسلام أن تدعى جماعة ما احتكار الدين ويشكل يصبح فيه من هم خارج هذه الدائرة غير دينيين. وفي الوقت الذى يدعو فيه الإسلاميين لإقامة دولة إسلامية وينتقدون أو يدينون الديمقراطية، فإن مصطفى سيريك مفتى البوسنة والهرسك يعتبر أن الديمقراطية هي إحدى المزايا العظيمة التي صنعتها الدولة الحديثة، وهو يدين المسلمين الذين يعارضون الديمقراطية وتعدد الأديان والحياة القومية التعددية ملاحظاً أن القرآن يقرر عدة مرات أنه لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة، ولكن يريد أن يجعلكم أمة مختلفة. ومن خبرات نور شويش مجيد الداعى للديمقراطية، وفي تعامله مع نظم سوكارنو وسوهارتو في إندونيسيا، جعلته يعترض بعقم معارضة الأحزاب السياسية في الدولة، إضافة إلى أن التجارب وعدم قدرة الأحزاب السياسية للعمل مع قادته لأن يستخلص أن خلط الدين بالدولة هو أمر يأتي بآثار عكسية، كان شعاره المعروف جيداً «الإسلام نعم».. الأحزاب السياسية الدينية لا، وهو كذلك يرفض اقتناع الإسلاميين الحداثيين بأنه من الضروري فرض الشريعة لجعل مجتمع إندونيسيا أكثر إسلامية، وفي رفضه «للدولة الإسلامية» فإن مجيد يواصل دفاعه عن الديمقراطية في اعتقاد أن الديمقراطية لها سوابق قرآنية والأفكار القرآنية والتقاليد الإسلامية في المشاورة والشورى، ومع هذا فإن البلدان المختلفة تحتاج لأن تضع نماذج مناسبة لبيئتها.

أما عن التساؤل المهم حول ما إذا كان المسلمون في الغرب يستطيعون أن يكونوا مواطنين على ولاء لمجتمعاتهم الجديدة؟ وهل يستطيع الفرد منهم أن يكون أمريكياً أو أوروبياً؟ أم أن الإسلام يتطلب منهم أن يكونوا مجرد مسلمين يعيشون في أمريكا وأوروبا؟ ويجيب إسبوسيتو على هذه التساؤلات بأن عملية الاندماج Integration وليس اختيار العزلة أو

هل فصل الدين عن الدولة ممكن في الإسلام؟ وهل لا يتفق الدين مع الديمقراطية؟ ويقول إن الإصلاحيين اليوم لديهم الكثير الذى يقولونه حول هذا الموضوع، فهؤلاء الذين يتهمون أن الإسلام والديمقراطية متعارضان إنما يعتمدون على حقيقة أن عدداً قليلاً من الدول الإسلامية ديمقراطية، والعديد منهم نظماً أوتوقراطية تستند شرعيتهم واستقرارهم على قواتهم العسكرية والأمنية أكثر منها على الانتخابات والإرادة الشعبية، نجد أن هذا النقد يتغافل عن دور البلدان الأوروبية في إقامة أو الموافقة على العديد من القادة السلطويين والدور المستمر الذى يلعبونه في دعم هذه النظم التى تستحق المعارضة، وزيادة على ذلك فإن العديد من الدول الإسلامية من مثل تركيا وبنجلاديش وباكستان وماليزيا وإندونيسيا، كما يمثلون في الواقع تنوعاً من «الديمقراطيات» وبعض الديمقراطيات «الموجهة» مع رؤساء دول منتخبين، مثل هذه الحقيقة يجب أن توضع ضمن مزيج الانطباعات حول الإسلام والديمقراطية.

في مثل هذه الظروف فإن الناشطين السياسيين الإسلاميين في الحقب الأخيرة أصبحوا لاعبين كبار في السياسات الانتخابية وتولوا مراكز مهمة في الحكومة وفي الوقت الذى حاول فيه الحكام التعاون معهم أو احتوائهم، وحظرهم، فقد حصلوا على تأييد شعبى وتأييد سلطات دينية كبيرة مثل يوسف القرضاوى، ورغم هذا فإن على جمعة مفتى مصر وصف المنظمات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين ومنظمات وبيوت الاستثمار بأنها غير إسلامية، وهو يميز بشكل حاد بين وظيفتين للسياسة، الأولى هي النظر في الشؤون الداخلية والخارجية للبلد وهو أمر إسلامى، وبين الحصول على السلطة والذي هو عمل الأحزاب السياسية «الحديثة»، الأمر الذى يعتبر أنها غير

فلسطين مسألة مختلف عليها، ويمثل Timothy Winter الزعيم الدينى المسلم والأستاذ بجامعة كامبريدج الكثير من المسلمين في رفضه الواضح والمباشر للمتطرفين من القاعدة باعتبارها غير شرعية أو أصيلة إسلامياً، وكان الشيخ القرضاوى واحداً من أوائل الباحثين الإسلاميين الذين أدانوا هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية وشجع المسلمين أن يتبرعوا بالدم للضحايا، فالمسلمين ليس مسموحاً لهم بقتل أى شخص ما عدا هؤلاء الذين يحاربون المسلمين بشكل مباشر، موضحاً أنه من غير الأخلاق قتل الأبرياء نتيجة لأخطاء حكوماتهم.. واعتبر وينتر أن الإرهاب العالمى هو نتاج المتطرفين المسلمين والغربيين، والمسئولون الكبار هم المحافظون الجدد الأمريكيون وصقور الحرب والإرهابيون المسلمون الذين يشتركون في سمات صارخة، وكلاهما استولوا على الماضى لتمجيد الحاضر.

بينما أخذ القرضاوى اتجاهاً مختلفاً جداً مرجعاً التطرف الدينى للغطرسة والضحالة الثقافية والافتقار للمعرفة والبصيرة الدينية.

وتشير الهجمات الانتحارية التى تستهدف المدنيين الأبرياء وغير المحاربين جداً حاداً بين السلطات الدينية الإسلامية، فبينما يعتبرها الشيخ أحمد ياسين وعكرمة صبرى مفتى القدس ومعهم العديد من القادة العرب والمسلمين أنها ضرورية ومبررة لمواجهة احتلال إسرائيل غير شرعى إلا أنه في تناقض حاد، فإن عبدالعزيز الشيخ مفتى السعودية أدان كل الضربات الانتحارية بدون استثناء باعتبارها غير إسلامية وشجى الإسلام كذلك، فإن الشيخ محمد سيد طنطاوى مفتى مصر السابق وشيخ الأزهر أعلى سلطة دينية حالياً قد فرق بشكل حاد بين الضربات الانتحارية والتى تمثل التضحية بالنفس والدفاع عن النفس، وبين قتل غير المحاربين «إن الهجوم على الأبرياء ليس عملاً شجاعاً وسوف يعاقب عليه يوم القيامة، إنه ليس من الشجاعة مهاجمة الأطفال الأبرياء والنساء والمدنيين، إنه من الشجاعة أن تحمى الحرية والدفاع عن النفس».

ولم يكن طنطاوى وحده، فقد أعلن الشيخ محمد عبدالعزيز السبيل إمام المسجد الكبير في مكة: أن أى هجوم على الأبرياء ليس شرعياً ومناقض للشريعة، أن المسلمين يجب أن يحموا الأرواح وشرف وممتلكات غير المسلمين الذين تحت حمايتهم والذين عقدوا معهم اتفاقيات سلام، أن الهجوم عليهم مناقض للشريعة. وينتقل إسبوسيتو إلى قضية أخرى وسؤال آخر:

ما مدى تمثيل الأصولية الإسلامية؟

وهل هي تهديد للمجتمعات الإسلامية
وللغرب؟ وهل يمكن أن تكون الأقليات المسلمة
مواطنين على ولاء للبلاد التى يعيشون
فيها في أمريكا والغرب؟





إن المواجهة الناجحة بين الإسلام والغرب لها متطلبات متداخلة، فالمسلمون يجب أن يحتضنوا هويتهم الأوروبية، والحكومات الأوروبية يجب أن تسهل اندماج المسلمين

جديداً إلى الأمام نحتاج أن نعرف ما الذي يقوله كل فرد عن اتجاهات المسلمين وعقائدهم ومظالمهم وآمالهم ورغباتهم، ولكن ما الذي تقوله الأغلبية السائدة. وعبر السنوات أثير سؤال بشكل متكرر: لماذا يكرهوننا؟ والإجابة العامة كانت «أنهم يكرهون طريقتنا في الحياة، وحریتنا وديمقراطيتنا ونجاحنا»، وفي الوقت الذي يعتقد فيه الكثيرون أن معاداة أمريكا ترتبط بخلافات دينية وثقافية لا يمكن تجاوزها، فإن الحقيقة تقوض هذه الإجابة المبسطة والتي لا تخدم إلا نفسها.. فنحن فشلنا في أن نميز بين كراهية المتطرفين وبين الكراهية الواسعة لأمريكا من هؤلاء الذين يعجبون بإنجازاتها وقيمنا وكلهم يدينون ما يرونه تكبراً ومشاريع الهيمنة.. وفي الوقت الذي يريد فيه المتطرفون قتلنا فإن معظم المسلمين يريدون منا أن نتوقف عن جعل العالم مكاناً خطيراً.



إن مستقبل الإسلام والمشروعات السطحية والفاشلة مثل «إنهم يكرهون طريقتنا في الحياة» والتي تهبط بالعلاقة بين العالم الإسلامي والغرب إلى «صدام» حتمي بين الحضارات والقيم والمصالح.. إن كل أمريكي وأوروبي يعلم أن الغرب وحدة مترابطة monolithic وكذلك ليس هناك عالماً إسلامياً واحداً، وفي الوقت الذي ينادون فيه بالحرية وتعميم الديمقراطية، فإنهم لا يرون أن هذه القيم تطبق في معاملة المسلمين، وهذه الفجوة بين سياسات الولايات المتحدة وبين المبادئ الأمريكية ينتج عنها اتهام الولايات المتحدة قد اتبعت معايير تمييزية مزدوجة في ترويجها للديمقراطية وحقوق الإنسان.. وي طرح إسبوسيتو سؤالاً عن: ماذا يريد المسلمون؟ ويجب أن أعداد كبيرة من المسلمين عبر العالم غير سعداء مع الوضع الراهن ويريدون بوضوح ديمقراطية أوسع. إن الحكومات الغربية التي تدافع عن حق تقرير المصير والديمقراطية تحتاج إلى أن تثبت بسياساتها وكذلك بياناتها أنها تحترم حق جميع الحركات والأحزاب السياسية، فالترؤج للديمقراطية بالأفعال وليس مجرد الكلمات يمكنها أن تغلب على «الاستثنائية الديمقراطية» فاحترام وتأييد عملية الديمقراطية.. وحقوق الإنسان يجب أن ترى على أنها عالمية حقاً. ويلاحظ إسبوسيتو أن العديد من الرسميين والحكوميين العلمانيين والمحليين السياسيين والصحفيين في الغرب عندما يسمعون المسلمين يتكلمون عن دور الدين

أنهم يفعلون ذلك مثلما فعل باحثون بارزون للإسلام وأعضاء الحركات الاجتماعية الإسلامية، ورجال الإفتاء النشطين الذين يعتبرون فحص الآراء الدينية الكلاسيكية المسيطرة وينتجون تفسيرات جديدة، وتؤكد أنه من حق المرأة وواجبها أن تشترك في هذا النضال وأن تقود نهضة إسلامية وإعادة بناء العقل المسلم، «وإصلاح فهمنا للقرآن والنبي لفهم الإسلام وممارسته». وتشير هبة رؤوف أنه على عكس ما قد يتوقعه المرء في العالم الغربي من أن دخول المرأة في قوة العمل سوف يؤدي بالطبيعة إلى زيادة حق التصويت في السياسة، ففي العالم العربي فإن دخول المرأة المتزايد في المراكز التنفيذية والاشتراك في القضايا الاجتماعية قد سار موازياً لابتعادهم في نفس الوقت عن الأحزاب السياسية والنقابات، فمثلاً في مصر فإن ٦ أو ٧٪ من عينة عشوائية للنساء الذين يتولون مراكز تنفيذية في الأجهزة الرسمية وقطاع الأعمال الخاص هم أعضاء في الأحزاب السياسية، وبالنسبة لرؤوف فإن تمكين المرأة سياسياً يتطلب عدم تمكين النظم السلطوية، وهي تتساءل عما إذا كان تعيين المرأة في مراكز رئيسية في الحكومة يعكس حقاً تغييراً ديمقراطياً في نفس الوقت الذي تشير تقارير منظمات مثل العفو الدولية وتقرير الشفافية الدولية إلى أنها كانت ضد المرأة وحقوقها الإنسانية الأساسية في نفس البلدان.

ويخصص إسبوسيتو الفصل الأخير من الكتاب لبناء طريق جديد للمستقبل لعلاقة أمريكا بالعالم الإسلامي، وهو يعتبر أن صناعات السياسة الأمريكية يميلون إلى الاعتماد في تحديد العلاقة مع العالم الإسلامي على آراء الخبراء والحكام المسلمين والصفوة، غير أن ثمة سؤالاً حرجاً حول صياغة السياسة الخارجية الأمريكية وهو: ما الذي يفكر فيه المسلمون عالمياً، خاصة التيار الرئيسي بينهم ذلك أنه لكي نرسم طريقاً

تراجيدية لأيديولوجية الخوف هي أن تحول المجتمعات وأعضائها إلى ضحايا». ويرى رمضان مفهوم «الضحية» كخوف مشترك وخطر مشترك وخطر «أن إصرار العالم الإسلامي أنه ضحية دائمة على أيدي الغرب هو رد فعل عنيف لاتهامات الغرب أن المسلمين يعملون على تدمير القيم والحرية الدينية. وقد أصبحت عقلية الضحية عند المسلمين، والتي تفترض أن أي عمل من جانب الغرب مدفوع بكراهية عميقة للإسلام، عقلية خطيرة مثل الأيديولوجية التي تنمي العنف في أمريكا وأوروبا وتفترض أن سكوت المسلمين مدفوع بالكراهية ورفض الغرب. وهكذا كان الفشل في أن تظل وفياً للمبادئ الديمقراطية في مناخ الخوف يخاطر بخسارة أكثر للمظاهر الجهورية للديمقراطية الغربية، فالخوف المتبادل ومفهوم الضحية يدعم رؤية «نحن»، «هم» للعالم الذي يمنع فهم الأسباب وراء أفعال «الأخر».

ويعالج إسبوسيتو قضية مهمة في فهم الإسلام وهو دور المرأة والمجتمعات الإسلامية وتمكينها، فهو يرى أن الاشتراك الكبير اليوم للمرأة في المجتمع يمكن أن يرى على عدة جبهات، فبعض الحركات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين في مصر والأردن والنهضة في تونس ولبنان والكويت وتركيا وماليزيا وإندونيسيا قد أكدت فرصاً متزايدة للتعليم وفرص عمل واسعة للمرأة، كذلك أصبحت النساء موجودات بشكل أكثر في مجال المنظمات الإسلامية والمرشحين الإسلاميين، كما توجد المرأة المسلمة بشكل متزايد في المهن المختلفة، الأطباء والصحفيين والمحامين والمهندسين والعمال الاجتماعيين وأساتذة الجامعات. وترى هبة رؤوف الأستاذة بجامعة القاهرة والناشطة الاجتماعية والتي تلقت تعليمها في القاهرة ولندن أن المرأة المسلمة المعاصرة قد ناضلت بجرأة لكي توازن الطبيعة الأبدية للقرآن وطريقة تطبيقها في سياق تاريخي وثقافي، وتشير



أصبحت النساء موجودات بشكل أكثر
في مجال المنظمات الإسلامية، كما توجد
المرأة المسلمة بشكل متزايد في المهن المختلفة، الأطباء
والصحفيين والمحامين والمهندسين والعمال
الاجتماعيين وأساتذة الجامعات



يعيش فيه المسلمون ويعكس هذا الاعتقاد موقف رمضان من الفتيات المسلمات اللاتي يرتدين الحجاب فهو يصر «أن أحداً لا يجب أن يجبر اختيار المرأة أن ترتدي الحجاب أو لا ترتديه»، ولهذا فقد رفض الحظر الفرنسي على الحجاب، ومع هذا فهو ينصح فتيات المدارس المسلمات أن يحترمن القانون الفرنسي، وحتى يمكن تغيير القانون يمكن استبدال حجابهم برداء أكثر قبولاً، وأن على المسلمين أن يكونوا واضحين لمواطنيهم وللمسلمين حول العالم: إننا نحترم القانون حتى لو اختلفنا معه. ويقرر رمضان أن كل ما يسمى مشكلات إسلامية: مثل الأحياء الفقيرة slums، والجريمة والبطالة والتي تقدم كمثال لعدم توافق الإسلام مع الغرب ليست في الحقيقة متصلة بالدين، ولكنها تعكس عدم مساواة اجتماعية واقتصادية وتعليمية والتي تواجهها الجماعات الإسلامية المهاجرة، ولهذا وبسبب طبيعتها وأسبابها الأولى، فإنها تتطلب حلاً اجتماعياً وليس دينياً. وبالنسبة لمصطفى سيركي كما هو الحال مع رمضان، فإن المواجهة الناجحة بين الإسلام والغرب لها متطلبات متداخلة، فالمسلمون يجب أن يحتضنوا هويتهم الأوروبية، والحكومات الأوروبية يجب أن تسهل اندماج المسلمين من خلال التعايش على أساس مؤسس على حاجاتهم الدينية.



وتحت عنوان الإسلام والغرب: «مواجهة أيديولوجية الخوف»، يذكر إسبوسيتو بقول مصطفى سيركي في عام ٢٠٠٥: «أخشى أننا على حافة أن نرى موقفاً سيتطور بحيث يمكن أن يكون جريمة أن تكون مسلماً في أوروبا. وقد جعلت أحداث ١١ سبتمبر الأمور أسوأ.. فليحمننا الله»، ولذلك ليس غريباً عندما سئل كيف يرى مستقبل الإسلام في أوروبا؟ قال «ليس جيداً جداً». مشيراً إلى صعود الفاشية وموقف رسمي يؤيد ما هو غير معقول حول الإسلام، غير أن هذا ليس معناه أن يتحكم فينا مفهوم «نهاية الزمان» ودعا المسلمين أن يكونوا أقوياء ومنظمين حتى إن قوتهم في دولة ما سوف يدعم الجماعات الإسلامية في بلدان أخرى «ذلك أننا نعيش في عصر كل أفعالنا لها انعكاسات عالمية، فإذا كنت قوياً ومتحدداً ومنظماً هنا فسوف تكون بالطبيعة أقوياء ومتحدين ومنظمين في البوسنة وكشمير وفلسطين وبقية العالم.. وكواقعي وصوت ضد التطرف الديني حذر طارق رمضان المسلمين وغير المسلمين معاً «أن أول نتيجة

كتاب
الزاوية

كعب بن زهير

المدائح النبوية

وقال كل خليل كنت أمله

لا ألفينك إنى عنك مشغول

فقلت خلّوا سبيلي لا أبا لكم

فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آلة حديد محمول

أنبئت أن رسول الله أوعدنى

والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ

قرآن فيها مواعيط وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم

أذنّب وإن كثرت فى الأقاويل

إن الرسول لنور يستضاء به

وصارم من سيوف الله مسلول

فى عصابة من قريش قال قائلهم

ببطن مكة لما أسلموا زلوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف

عند اللقاء ولا ميل معازيل

شم العرانيين أبطال لبوسهم

من نسج داود فى الهيжа سراويل

الكونجرس، وسوف يواجه الرئيس أوباما تحدياً أن يتبع إسرائيل استراتيجية قصيرة وطويلة الأجل لم يتبعها رئيساً أمريكياً، وهذه الإجراءات تتضمن ليس فقط تأييد وجود وأمن إسرائيل، ولكن قيام دولة فلسطينية آمنة ومدمعة اقتصادياً وهي أيضاً الإذعان لقرارات الأمم المتحدة: إعادة الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٦٧، والرجوع عن ضم الأراضي والمباني وبناء المستوطنات غير الشرعية، وإدانة العنف غير المشروع الذي يرتكبه ليس فقط الفلسطينيون ولكن أيضاً العسكرية الإسرائيلية.

وهكذا يواصل البروفيسور إسبوسيتو جهده النزيه والموضوعي والذي بدأه منذ كتابه «التهديد الإسلامى: أسطورة أم واقع»، وهو بكتابه الجديد يقدم للمجتمعات الأمريكية والغربية العديد من الحقائق حول الإسلام والمسلمين وبنههم إلى تيار المصلحين والمجددين الذين يلقون تغطية ضئيلة فى الصحافة الغربية، وكما عبرت كارن أرمسترونج فإنه بعد إسبوسيتو لم يعد هناك غدر بالجهل بأعمال هؤلاء الإصلاحيين الذين يفصحون عن تيار مهم فى التفكير الإسلامى يتحدى الرؤية الغربية للإسلام، ويدرك أن القوانين والعادات كانت محكومة بالظروف التاريخية التى تطورت فيها ويجب أن يعاد تفسيرها فى ضوء هذا الفهم، وهو - شأن التيار الرئيسى فى المجتمعات الإسلامية - يمتد الإرهاب والعنف. ولعل من أهم ما أفصح عنه الكتاب هو أن فشل السياسة الخارجية الأمريكية والأوروبية كانت أحد أسباب الوعكة الراهنة فى العالم العربى والإسلامى، وسوف تستفيد أمريكا والغرب كثيراً لو استمعوا إلى نصيحة إسبوسيتو أن ما يحدث فى غزة وأفغانستان اليوم من المحتمل أن يكون له انعكاساته غداً فى لندن أو واشنطن، وأن الإصرار على أن كل الشعوب الإسلامية تؤيد الإرهاب وتعارض الديمقراطية وتعادى بشكل سلفى الحرية ليس له فقط آثار عكسية على المصالح الغربية، ولكنه يناقض الواقع، مثل هذا التحذير يجعل قارئ الكتاب يستخلص أن مستقبل الإسلام لا يعتمد ببساطة على فعالية قلة من الإصلاحيين المسلمين ولكن أيضاً على الولايات المتحدة والغرب، وكما عبرت أرمسترونج أيضاً فإنه إذا كانت وجهة النظر القصيرة للسياسات الغربية قد ساعدت على خلق المأزق الراهن فإنها إن لم تصحح فسوف يظل لها تأثير سلبى على المنطقة وسوف تضعف قضية الإصلاح وتقوى من دعاوى وقوى التطرف. ■

فى السياسة والمجتمع فإنهم يطلقون على هؤلاء المسلمين «أصوليين» بما يعنى أنهم جميعاً جامدون ومعادون للحدثة، ومتخلفون يريدون فقط إقامة الدولة الإسلامية.

ومثل هذا الاتجاه يدعم ويستخدم بعض الحكومات السلطوية والنخبة العلمانية فى العالم الإسلامى ليس فقط بسبب اهتمامهم الأمن والاستقرار، ولكن أيضاً لأن الانتخابات المفتوحة وبدائل سياسية بما فيها الأحزاب الإسلامية إنما تهدد سلطتهم وامتيازاتهم.

ومثل هذه المخاوف قد أثرت فى بعض المفكرين الليبراليين الذين فشلوا فى التمييز بين الحركات الإسلامية المتطرفة وبين التيار الرئيسى للمسلمين الذين يعتقدون أن الديمقراطية تتفق مع مبادئهم وقيمهم الدينية.. ويذكر إسبوسيتو أمريكا والغرب أننا ننسى أن الديمقراطية عملية غريبة الأطوار Erratic وخطرة، وأن الخبرة الأوروبية كانت عملية تخضع للتجربة والخطأ مصحوبة بالحروب الأهلية والصراعات الدينية والثقافية وأن الديمقراطية الأمريكية كانت نتاج ثورة مسلحة وحتى حرباً أهلية دامية، وتقريباً مرقنان قبل أن نعتزف بالحقوق المتساوية للنساء الأمريكيتين الإفريقيين.. وبالمثل فى الشرق الأوسط، فالمجتمعات التى تحاول المشاركة، وكذلك دور الهوية والقيم الدينية سوف تمر فى كثير من الحالات بعملية من التجربة والخطأ وحيث ستكون الأخطار القصيرة الأجل هى ثمن مكاسب طويلة الأجل.. وقد تستطيع الحكومات الأوتوقراطية أن تؤخر أو تخنق عملية التغيير لأنهم فى هذا مما يؤجلون فقط ما هو حتمى.

ويدعو إسبوسيتو أنه فى الوقت الذى لا يجب أن يكون فيه تسامح مع الإرهابيين، فإنه يجب أن نسمح للتيار الرئيسى من المسلمين، خاصة الأحزاب السياسية أن يتواصلوا مع حكوماتهم والأمم الغربية، فإذا ما منعوا أو قهروا ولم يسمح لهم أن يصوتوا أو يمارسوا السلطة السياسية فإن النتيجة المحتملة هى المزيد من الاغتراب والتطرف.. ومع العلاقة بين أمريكا والغرب يعتبر إسبوسيتو أن الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين يعتبر اهتماماً رئيسياً فى العالم الإسلامى وحجر عثرة فى علاقات أمريكا مع المسلمين، ورغم هذا فإن التوصل إلى تقدم مهم سيكون أشبه بصراع سيزيفى نحو القمة.

ويطالب إسبوسيتو بأن على السياسة الأمريكية أن تكون مدفوعة بشكل أقل بالوبيات الداخلية الإسرائيلية وحلفائهم الصهاينة المتشددون ونفوذهم فى

أنا الآن مسكينة

لورين بوث
Lauren Booth



دبليو بوش في حربه على العراق، قبل أن يتولى ملف الشرق الأوسط كمبعوث للرباعية الدولية. السيدة البريطانية «البيسطة» كتبت في «الجاردريان» تتسائل: لماذا كل هذه الضجة؟ وهنا ترجمة للمقال:

لورين بوث (٤٣ عاماً) هي شقيقة زوجة رئيس الوزراء البريطاني السابق توني بليير. تحولت إلى الإسلام قبل أسابيع، بعد أن كانت قد زارت غزة (٢٠٠٨) والدوحة وإيران أخيراً. وكان لخبر اعتناقها الإسلام دوى كبير، بسبب علاقة القرابة التي تربطها بالرجل الذي كان الحليف الأول لجورج



في السعودية، الحليف الوثيق لحكومتنا في الأسلحة وتجارة النفط. ولكن الكفاح من أجل حقوق المرأة يتم تكييفه - للأسف - بما يتوافق مع احتياجات ومصالح حكوماتنا.

بدأ مساري في الاتجاه إلى الإسلام عندما أدركت الفجوة بين مفاهيمي الخاطئة عن حياة المسلمين وبين ما رأيته في الواقع.

هؤلاء الذين نتحدث عنهم هم في النهاية بشر، خلال زيارتي لإيران في سبتمبر الماضي، ما لاحظته من الوضوء والسجود، وما رددوه من تلاوات الصلاة في المساجد التي زرتها جعلني أتذكر رأي الغرب في عقيدة أخرى غير الإسلام، عقيدة تنبذ العنف وتحتضن السلام والحب من خلال التأمل الهادئ، ثم سرعان ما أصبحت صرعة «مودة» لدى نجوم السينما مثل ريتشارد جير الذي كان من السهل عليه أن «يعترف» باعتناقه البوذية في العلن، في الحقيقة إن الانحناء والسجود والخشوع في الإسلام أثناء الصلاة تتعالى معه كلمات تحمل السلام والطمأنينة. فكلها تبدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وتنتهي بعبارة «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

يواجه معتنقو الإسلام الجدد

اجتماع حول موضوع الخوف من الإسلام «الإسلاموفوبيا» في الإعلام هذا الأسبوع، فكرت بكل جدية أن أقوم بشراء أي شيء متعلق بأبو حمزة. وبعد كل ذلك، إذا حكمنا من خلال رد فعل كتاب الأعمدة النساء، فأنا أشكل صيداً سميناً لناصرى حقوق المرأة. دعنا نأخذ نفساً عميقاً وسأعطيك لمحة عن العالم الآخر للإسلام في القرن الـ ٢١.

بالطبع، لا يمكننا أن نستبعد الطريقة المروعة التي يتعرض لها النساء وسوء المعاملة ضدهم من قبل الرجال في بعض المدن والثقافات المسلمة. فالنساء اللاتي يتعرضن لسوء المعاملة والاستغلال من قبل أقاربهن الرجال يتعرضن لتلك المعاملة من الرجال وليس من الله، خرجت كثير من الممارسات والقوانين الإسلامية من البلدان التي لا تمت بصلة لأصول الإسلام، وتقوم بدلاً من ذلك على الممارسات الثقافية أو التقليدية الذكورية، وهي العادات التي تم حقنها في هذه المجتمعات، على سبيل المثال، في المملكة العربية السعودية، لا يسمح للنساء بقيادة السيارات.

هذا القانون من اختراع نظام الحكم

أو اثنان منهم بتلك اللحية المُرعبة التي نراها في نشرات الأخبار المتلفزة التي تأتينا بالصور من أماكن بعيدة قمنا بقصصها قبل أن تتحول إلى أشلاء. الغريب (بالنسبة لي) أنني بدأت أيضاً في التعامل مع الكثير من النساء من جميع الأعمار، نساء مختلفات، ليس فقط في طريقة حجابهن، بل أيضاً هن مختلفات باختلاف كل أنواع أغطية الرأس التي يرتدين، وبعضهن تولى مناصب في السلطة، فالمرأة المسلمة، صدقوا أو لا تصدقوا، يمكن أن تكون متعلمة، وتعمل بنفس عدد ساعات العمل القاتلة لدينا، وترأس زوجها حتى أمام أصدقائه وتستطيع في بعض الأحيان أن تطلب منه مغادرة الغرفة لتنتهي من إعداد العشاء.



فهل يكفى هذا المدى من الاستعلاء بالنسبة لكم؟ أتمنى ذلك!، فلقد كان اعتناقي للإسلام ذريعة لانطلاق حملة من التعليقات الساخرة تمثل وجهات النظر التي تنظر للمرأة المسلمة باستعلاء في كل مكان، وبدرجة كبيرة لدرجة أنه في طريقى إلى حضور

■ ■ لقد مرت خمس سنوات على زيارتي الأولى لفلسطين، وعندما وصلت إلى المنطقة للعمل جنباً إلى جنب مع المؤسسات الخيرية في غزة والضفة الغربية، ذهبت ومعى تلك الأفكار التي تعتقدها عادة النساء البيض من الطبقة الوسطى (سواء في الظاهر أو سرا) نحو المرأة المسلمة المسكينة، وهي المرأة التي افترضت أنها أكثر قليلاً من تلك «الصورة الذهنية» للباسها السوداء، وكامرأة متحررة غربية كنت أتوقع أنني سأتعامل مهنيًا بالضرورة مع الرجال وحدهم، ففي النهاية، هذا هو العالم الإسلامي، أليس كذلك؟

ثم كان أن أدركت من خلال صرخات الرعب التي تلقيتها من زملائي كتاب الأعمدة بعد سماعهم نبأ اعتناقي الإسلام، أن تلك النظرة النمطية لا تزال سائدة تجاه أكثر من نصف مليار امرأة تعتنق الإسلام حالياً.

خلال أول رحلة إلى رام الله، وما تلاها من زيارات إلى فلسطين ومصر ولبنان والأردن، تعاملت بالفعل مع رجال يعملون بالسلطة، ويا عزيزي القارئ، كان واحد

ترجمة: محمد عبدالسلام رضوان

I'm now a Muslim. Why all the shock and horror?



هناك الكثير لتعلمه والاستمتاع به في الإسلام، منذ بضعة أيام قال لى بعض المتحولات من النساء للإسلام إن هذه مجرد البداية، وأنهن لازلن يحبون حتى بعد ١٠ أو ٢٠ سنة. واليكم ملاحظة أخيرة، أود أن أقترح عليكم ترجمة سريعة للاختلاف بين الإعلام الغربى والثقافة الإسلامية، التى قد تساعدكم على تحمل صدمة البعض منكم بسبب تغييرى لحياتى، فعندما يظهر المسلمون على شبكة «البي بي سى» الإخبارية فى مكان ما فى الشرق الأوسط وهم يهتفون: «الله أكبر»، فنحن الغربيين اعتدنا على الاعتقاد أنهم يقولون: «نحن نكرهكم أيها البريطانيون الجالسون فى منازلكم. وها نحن فى طريقنا لنفجر أنفسنا فى Lidl» عندما تتوجهون لشراء بقالتكم الأسبوعية».

فى الواقع، ما نقوله نحن المسلمين هو أن «الله هو الأكبر» محاولين تعزية أنفسنا فى مواجهة ما نقوم به الأمم غير المسلمة عندما تهاجم قرانا، وعادة ما تعلن هذه العبارة رغبتنا فى العيش فى سلام مع جيراننا، إخوتنا البشر مسلمين وغير مسلمين، وإذا تعذر ذلك، مثلما هو الحال الآن، فإنها مجرد رغبة لتركنا نعيش وحدنا فى سلام. ■

أيضاً وجوداً ساحراً وخصباً للإسلام والحب والأمل، ففى الوقت الحالى، أعيش حياتى اليومية العادية وأقوم بطهو العشاء وأشاهد برامج تلفزيونية عن فلسطين، وأقوم بالصلاة لحوالى نصف ساعة فى اليوم. ويبدأ يومى مع صلاة الفجر حوالى الساعة السادسة صباحاً، وأقوم بالصلاة مرة أخرى فى الواحدة والنصف بعد الظهر، وأخيراً فى العاشرة والنصف مساءً، انتهيت من قراءة ٢٠٠ صفحة من القرآن. وطلبت المشورة من الأئمة والمشايخ وآيات الله، لكن كلاً منهم قال إن رحلة كل شخص مع الإسلام تخصه وحده، فالبعض يقرأ القرآن بأكمله قبل أن يتحول إلى الإسلام، أما بالنسبة لى فإن قراءة القرآن ستتم ببطء وعلى وتيرتى الخاصة بى.



ولقد حاولت فى الماضى الإقلاع عن المشروبات الكحولية، لكن كل محاولاتي فشلت، ولكن الآن، ومنذ لحظة اعتناقى للإسلام، لا أستطيع أن أتخيل فكرة تعاطى الكحوليات مرة أخرى، وأنا على يقين بأن هذا سيستمر للأبد.

نفعل فى الغرب، ونحن نفعل ذلك فعلاً، أليس كذلك. وأخيراً، شعرت بما يشعر به المسلمون عندما يكونون فى الصلاة الحقيقية: انسجام حقيقى، ورجفة من الفرح والامتنان لكل شىء. لدى مثل أطفالى، يقين بأننى لست بحاجة إلى أى شىء أكثر من الصلاة، لكى أشعر بالطمأنينة.

ولقد قمت بالصلاة فى أحد المزارات فى إيران بعد أن قمت بالوضوء وطهرت وجهى ورأسى وقدمى وساعدى بالمياه، وعندها اختلف كل شىء. نعم.. الأمر بهذه البساطة. وقال لى الشيخ الذى تحولت على يده إلى الديانة الإسلامية فى مسجد فى لندن قبل بضعة أسابيع: «لا تتسرعى، يا لورين! خذى وقتك، الله ينتظرك، تجاهلى هؤلاء الذين يقولون لك: «يجب عليك أن تقومى بكذا أو كذا، عليك ارتداء كذا، يجب أن يكون شعرك هكذا»، وغيره، فقط اتبعى أحاسيسك وما تشعرين به، واتبعى القرآن الكريم، وسيهديك الله».

ولقد لمحت الآن الكذبة الكبيرة المتعلقة بحياتنا العصرية، وأن المادية والاستهلاك والجنس والمخدرات ستجلب لنا السعادة الدائمة، ولكن لمحت

صعوبات خاصة بطبيعة لغة الصلوات ولغة القرآن، وبالنسبة لى مثلت هذه المسألة صعوبة بالغة، ولكنى تخطيت تلك العقبة دون أن ألاحظ، ثم تعرضت لنوع من المد والجزر العاطفى سببه صحبتى للمسلمين الآخرين الذين شعرت معهم بشعور مفعم بالانفتاح والدفع، على الأقل كان الأمر كذلك بالنسبة لى، على أى حال.



وبعد ذلك، اتضح لى مدى قسوة أصدقائى غير المسلمين، أتساءل: لماذا لا يمكننا البكاء أو العناق فى العلن وأمام الجميع ونقول لبعضنا: «أحبك» أو «أحبكم» لصديق أو أصدقاء جدد، دون أن نواجه ذلك بالشك أو السخرية، فلقد كنت أشاهد تلك العواطف الجياشة فى البيوت وأرى الأسر تتبادل التحيات وسط صوانى الحلويات.

وأتساءل إذا كان قانون الله قائم على الخوف، فلماذا لا يتخلى أصدقائى الذين أحببتهم واحترمتهم، عن ممارستهم ويبدأون فى الشرب، لكى يحصلوا على المتعة الحقيقية كما

ليست فقط ندرة في المياه أسئلة العرب المناخية

أمة العالم السوسنة



■ ■ تحتل قضية تغير المناخ مكانة هامة في جدول أعمال السياسات الدولية وتعد قضية التنمية البشرية المميزة لجبلنا. وقد توثق بشكل حاسم أن حرارة سطح الكرة الأرضية ارتفعت في المتوسط بما يقرب من درجة مئوية على مدى القرن الماضي. ويتوقع ارتفاع متوسط درجة الحرارة العالمية بمقدار أربع درجات مئوية بحلول نهاية القرن الحادي والعشرين. وينسب هذا التغير في درجات الحرارة على نحو قاطع إلى انبعاث غازات الدفيئة.

منطلقنا هو أن تغير المناخ حقيقة قائمة. فدرجة حرارة الأرض في ارتفاع، مطلقة سلسلة من التأثيرات البيئية التي بدورها تتفاعل مع غيرها من التحديات لتحديث عقبة رئيسية أمام التنمية البشرية. هناك بعض الأصوات التي تشكك في ذلك، لكن ثمة توافقاً في الآراء بين الأوساط العلمية عموماً على أن الاحترار العالمي موجود؛ كما أن الحكومات أيضاً متفقة على كون هذا الأمر إحدى القضايا الرئيسية على جدول أعمال السياسات الدولية.

وفي الواقع، تعمل حكومات العالم باطراد على بناء تلك الأرضية المشتركة منذ انطلاق اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ؛ في ريودي جانيرو ١٩٩٢، وما تلاها من اجتماعات واتفاقيات في كيوتو، ومراكش، وبالي، وكوبنهاغن، وقرية في كانكون. وتم إنشاء أطر عمل لتخفيف حدة هذه الانبعاثات أو احتباسها. والغرض من هذه الجهود، المعروفة باسمها الجامع: التخفيف Mitigation، هو الحد من الانبعاثات الإجمالية في أقرب وقت ممكن، ومع الوقت، من أجل تجنب أسوأ السيناريوهات لوطاة التغير المناخي في المستقبل. ومع أن التخفيف لازم لمنع أسوأ السيناريوهات في المستقبل، فإنه لن

يحمي الناس من مستوى التغير المناخي الذي أصبح بالفعل أمراً لا مفر منه بسبب التراكم الحالي والمستمر للانبعاثات في الغلاف الجوي. وفي الواقع، حتى في أفضل السيناريوهات، لن يبدأ التخفيف بإحداث فرق إلا في نحو العام ٢٠٣٠ فصاعداً. حتى ذلك الحين، يجب على البلدان اتخاذ إجراءات مسبقة لتخفيض المخاطر والحد من الأضرار التي يسببها تغير المناخ. وهذا التكيف ضروري على المدى العاجل والأجل لمعالجة الآثار الناتجة من الاحترار الذي سيحدث حتى بحسب السيناريوهات المقدرة لأدنى استقرار.

ويشعر الكثير من السكان في مختلف أنحاء العالم بمفاعيل التغير المناخي، والأفقر بينها هي المتأدية حالياً أكثر من غيرها. فالأشخاص والمجموعات من ذوي الموارد القليلة نسبياً هم الأقل عدة و قدرة للتكيف وللتعافي من التدمير الممكن نتيجة للحالات المناخية القصوى كالعواصف، والفيضانات، وتآكل السواحل، وموجات الحر، وحالات القحط. والخسارة اللاحقة من المياه النقية للشرب، وفقدان الظروف الإنتاجية للزراعة، وانتشار الأمراض الناتجة عن المناخ تولد أخطاراً على الصحة والحياة السليمة. ولهذه التغيرات تأثيرات في كل المجتمعات تراوح من تخفيض النمو الاقتصادي إلى زيادة عدم الاستقرار، وتالياً تمثل تحديات استراتيجية تضاف إلى تحديات المساعدة الإنسانية.

والخسائر من تغيرات المناخ والحالات المناخية القصوى الحالية والمتوقعة مستقبلاً هي بالفعل كبيرة، ومتزايدة. والاستجابات المنفردة، وغير المنسقة، والتي هي ردود فعل ليست كافية. فحماية المكاسب ومواصلة الارتقاء بالتنمية البشرية في جميع أنحاء العالم سوف يتطلبان بذل جهود منسقة واستباقية لبناء القدرة على تحمل تغير المناخ. والمجتمعات فرادي ليست في وضع يمكنها من الاختيار بين التكيف Adaptation أو التخفيف Mitigation، إذ ليس في وسع أي منهما وحده تجنب جميع وطأت التغير المناخي. لكن في استطاعة كل منهما أن يكمل الآخر، بحيث يمكنها معاً تعزيز المنة في مواجهة تغير المناخ إلى حد كبير. فليس الهدف الأشمل هو التكيف ذاته ولا التخفيف ذاته، بل التنمية البشرية المستدامة بمعناها الأوسع.

إننا نشهد تأثيرات تغير المناخ كل الوقت. فقد لا يكون ممكن القول بيقين مطلق إن الفيضانات في باكستان التي تسببت في تشريد نحو ١٤ مليون نسمة هي تأثير مباشر لتغير المناخ؛ كما لا يمكن للمرء قول ذاك الأمر عن الفيضانات الأخيرة في الصين أو النيجر أو تشاد، أو موجات الحر في روسيا. لكن إذا كانت تلك الموجات الحارة والفيضانات أموراً يبني عليها، فإنها تعطينا مذاق ضخامة ما يمكن أن يأتي - وما يمكن أن يأتي على نحو أكثر تواتراً - إن لم يتم

الالتزام باتخاذ إجراء حاسم بشأن التخفيف والتكيف على حد سواء.

الأسئلة المطروحة، في الواقع، هي: كيف سيكون رد فعلنا تجاه تغير المناخ؟ إن كنا نرى فيه تهديداً، فهل سنفاعل معه أم لا؟ هل سنأخذ تدابير للتخفيف من تأثيراته والتكيف معها، أم ننتظر حتى حدوث المزيد من المأسى قبل اتخاذ أي إجراء؟

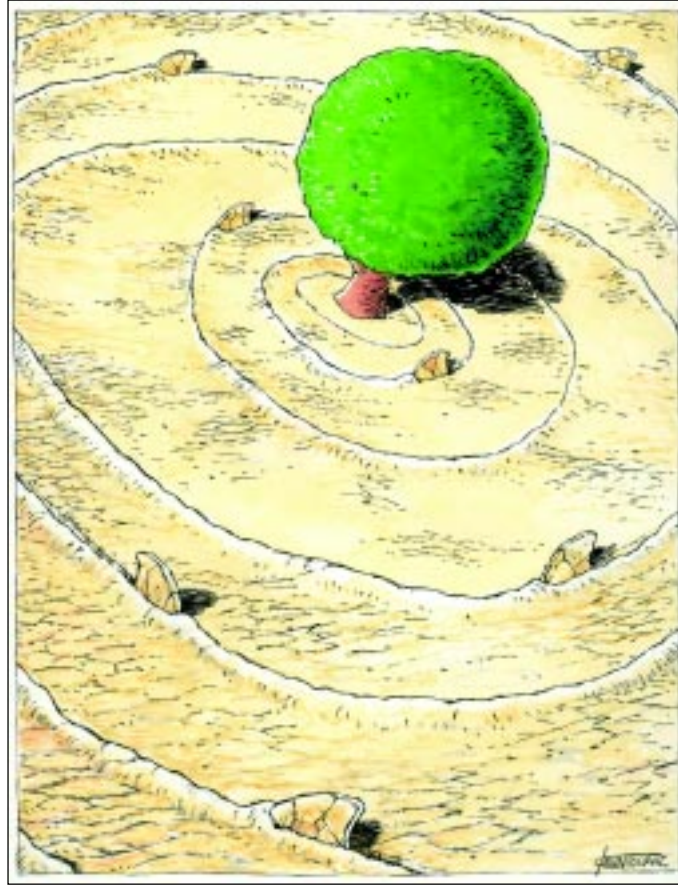
في البلدان العربية، ما زالت هذه الأسئلة بلا إجابة إلى حد كبير. صحيح أن هناك عدداً من الاستجابات الملحوظة والمتزايدة في السنوات الأخيرة. ولكن، من الصعب جداً تكوين تصور واضح حول كيفية اعتزام الدول العربية التعامل مع ظاهرة تغير المناخ بجوانبها المختلفة والمتشعبة، وما نعرفه على العموم عن وضع المنطقة واحتمالات تأثر بلدانها بتغير المناخ لا يبعث كثيراً على الاطمئنان.

فالدول العربية تعرضت تاريخياً لمخاطر مرتبطة بمناخ قاس. وهي حالياً الأولى بين مناطق العالم من حيث ندرة المياه، و٩٠٪ من مساحة سطحها تقع ضمن مناطق قاحلة، ونصف قاحلة، وجافة شبه رطبة. لكن تظهر العديد من الإسقاطات أن ظروف مناخية أقسى قد لا تزال بالرصد.

وتشير سيناريوهات تغير المناخ في المنطقة العربية إلى أن فترات الجفاف ستزداد تواتراً. وتظهر إسقاطات الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ انخفاضاً مقبلاً لهطول الأمطار في المنطقة. ومن المرجح جداً أن تكون منطقة غرب آسيا خاضعة لتخفيف شديد في العقود المقبلة، مع توقع ارتفاع الحرارة أكثر من ٤ درجات مئوية في جميع أنحاء الجزء الشمالي الأقصى في الصيف، وانخفاض في معدلات سقوط الأمطار بما يزيد على ٣٠ في المائة في بعض المناطق.

وسيوذي ارتفاع درجات الحرارة وانخفاض هطول الأمطار إلى الإقلال من تدفق الأنهار والجداول، وإبطاء معدل ما تحتاج إليه خزانات المياه الجوفية لتعبئة نفسها، وجعل المنطقة كلها أكثر قحولة. ستكون لهذه التغيرات سلسلة من الآثار، لا سيما في الزراعة، والطاقة، والأمن الغذائي.

من المتوقع أيضاً أن يزيد تغير المناخ



وتيرة الظروف المناخية القصوى والكوارث ذات الصلة وحدثتها، الأمر الذي يؤدي إلى أحداث أشد قسوة مثل الجفاف، والفيضانات، والأعاصير، والعواصف الترابية. وقد شهدت المنطقة العربية في السنوات القليلة الأخيرة عدداً متزايداً من الأحداث المناخية المتطرفة مثل الجفاف، والفيضانات الخاطفة، والأنواء العاصفة. ومع أن الضرر المرتبط بهذه الأحداث نادراً ما قيس كمياً، فإن التقديرات الأولية تشير إلى تكاليف اقتصادية واجتماعية وبيئية ضخمة وإلى خسائر يمكن أن تقيد التنمية في بلدان عديدة.

وقد يؤدي ارتفاع مستوى سطح البحر إلى غمر المناطق الساحلية الطويلة في المنطقة العربية، حيث تتجمع الغالبية الساحقة من السكان. ويرى أن هذا الأمر يمثل خطراً بنوع خاص على الدول الجزرية الصغيرة في المنطقة، فضلاً عن الجزر الطبيعية والمصطنعة. إضافة إلى ذلك، يمكن أن تلوث المياه المالحة المياه الجوفية، مما يؤدي إلى تدهور حاد للأراضي وخسائر فادحة في التنوع الحيوي.

من بين الآثار المرصودة، والمتوقع ازديادها، لتغير المناخ في بعض البلدان العربية، أن يزداد التوسع الحضري/ المدني وهجر المناطق الريفية. ومن المرجح أن يؤدي تغير أنماط هطول الأمطار، وتوسيع نطاق التصحر، وانخفاض الإنتاجية الزراعية إلى تقويض سبل العيش في الريف، وسوء احتمالات توافر فرص العمل في المناطق الريفية، وتسريع الهجرة إلى المناطق الحضرية حيث سيكون توفير البنية التحتية والخدمات العامة الملائمة تحدياً رئيسياً، لا سيما بالنظر إلى احتشاد مجموعات سكانية في المدن محرومة من الخدمات وأخرى حاصلة على أقل مما يلزم من الخدمات.

ويضخم النمو السكاني تحديات تغير المناخ من خلال تزايد الطلب على الغذاء والماء، فيما يضع كذلك ضغوطاً متزايدة على استخدام الأراضي. وقد تضاعف عدد سكان البلدان العربية ثلاث مرات تقريباً بين ١٩٧٠ و ٢٠١٠، قافراً من ١٢٨ مليون نسمة إلى ٣٦٠ مليوناً. وتنبأ شعب السكّان في الأمم المتحدة بأن يصل عدد سكان المنطقة العربية بحلول ٢٠٥٠

إلى ٦٠٠ مليون نسمة - أي ٢٤٠ مليوناً أكثر مما هو عليه في عام ٢٠١٠. وقد ينطوي تغير المناخ على إمكان التسبب بعدم الاستقرار أو النزاع. فمحاولات السكان المحليين غير المنسقة للمواجهة أو للبقاء على قيد الحياة قد تشمل هجرة غير طوعية، أو منافسة مع جماعات على الموارد الشحيحة، أو إثقال كاهل قدرات الحكم المحلي أو الوطني. وقد تكشف اتجاهات كهذه عن نفسها في شكل نزاعات محلية وتوترات متصاعدة حول الموارد.

على الرغم من المؤشرات الواضحة على التهديدات التي تواجه المنطقة، مازالت الدول العربية على نحو ملحوظ غير مدركة أن تأثيرات تغير المناخ عامل يهدد تنميتها واستقرارها. وقد انضم معظم الدول العربية إلى اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ وبروتوكول كيوتو، فضلاً عن عدد من المنظمات والمعاهدات البيئية الدولية والحكومية الإقليمية؛ لكن الوعي والمشاركة في أوساط القادة المجتمعيين والوطنيين تجاه تغير المناخ لا يزالان منخفضين.

في هذه المنطقة، كما في مناطق عديدة أخرى، نعرف أن صانعي القرار يميلون إلى تجنب اتخاذ قرارات صعبة ومكلفة. وفي حالة تغير المناخ، سوف يعبر عن هذا الاتجاه كأفضلية لمجرد التفاعل مع كوارث تغير المناخ عند وقوعها، بدلاً من محاولة تخفيف تأثيراتها أو التكيف معها على نحو مستدام. ومن دون أدنى شك، فإن ثمة حاجة لمعالجة الكارثة عندما تقع؛ لكن هذا الأمر لا يمكن أن يكون الهدف الاستراتيجي. إن تنفيذ التدخلات الإنسانية الهائلة هو في

الواقع أكثر تكلفة بكثير من بناء المرونة التي تحمي السكان من الكوارث. فتأثيرات تغير المناخ التي لا يستعد لها تحمل أيضاً في طياتها إمكانية كونها مزعزعة للاستقرار. وسوف تتطلب الاستجابات الفعالة لتغير المناخ وجود قيادات ومؤسسات قادرة على وضع وتنفيذ رؤية شاملة لمواجهة تغير المناخ.



تستلزم مكافحة تغير المناخ استجابة متفانية، منسقة، متعددة الأوجه، سوف تعتمد على الصعيدين الوطني والمحلي على التفاعل بين مجموعة من المؤسسات، من وزارات مركزية كوزارة المالية، إلى الوزارات القطاعية مثل المياه والزراعة، إلى القطاع الخاص، والمجتمع المدني، والأوساط الأكاديمية، ووسائل الإعلام. ويسعى المكتب الإقليمي للدول العربية في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي إلى الإعداد لمبادرة إقليمية لمواجهة آثار تغير المناخ وتوفير الدعم اللازم في هذا الإطار من خلال تعزيز القدرة على الاستجابات المتكاملة للتأثيرات والتحديات المرتبطة بها.

وتستهدف هذه المبادرة التركيز على مستوى السياسات، وتعزيز قدرة المؤسسات على تحديد الأخطار والفرص المتاحة، وعلى التكيف مع ظروف تغير المناخ مع الوقت بطريقة متكاملة؛ كما ستقدم الدعم على المستوى الوطني لمؤسسات تسعى لوضع استراتيجيات للتكيف مع تغير المناخ ونشاطات التنمية ذات الكربون المنخفض.

واستناداً إلى المشاورات التي قمنا بإجرائها في كل من دمشق والقاهرة والمنامة هذا العام خلال الشهرين الماضيين والدراسات المتوافرة حول تحليل وقع تغير المناخ وتقويم القدرات وبناء على التوافق العربي الرسمي الذي تضمنه الإعلان الوزاري العربي حول التغير المناخي الصادر في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ يرى أن تركز المبادرة على معالجة ثلاثة تحديات أساسية، هي:

١ - ندرة المياه والجفاف والأمن الغذائي.

٢ - وارتفاع مستوى سطح البحر وتأكل السواحل.

٣ - والكفاءة في استخدام الطاقة والاستثمار في الطاقة المتجددة. أثبتت التجربة على نحو لا لبس فيه أن المبادرات الإقليمية لا تكون ذات وقع حقا إلا إذا قامت على أساس مشاورات معمقة مع الجهات المعنية، وتبادل مكثف لوجهات النظر، وارتباط بهيئات معرفية عالمية المستوى ومختصة بالمنطقة، وإشراك القادة السياسيين، والأوساط الأكاديمية، ووسائل الإعلام.

ومن الضروري أن تعتمد المبادرة الإقليمية لمواجهة آثار تغير المناخ هذه المنهجية لبناء القوة الدافعة. ولذلك قمنا بإجراء مشاورات إقليمية ووطنية لمناقشة تطوير استراتيجيات متكاملة لمعالجة تحديات تغير المناخ. وتسعى المبادرة في الوقت نفسه إلى زيادة الوعي بالقضايا المطروحة وفهمها، وتحديد سرعة التقدم في صياغة السياسات، فيما تحشد الجهات الفاعلة الرئيسية على أعلى المستويات لتوجيه الاهتمام إلى ما يتعلق بهذا الأمر من السياسات، والإجراءات الاستراتيجية. كما أن العملية التشاورية ملائمة في هذا التوقيت فيما تستعد البلدان لمؤتمر قمة المناخ في المكسيك هذا العام.

في هذا الإطار، يسعى برنامج الأمم المتحدة الإنمائي إلى المساهمة في وضع إطار استراتيجي للتعامل مع تغير المناخ في المنطقة من خلال تأسيس نهج متكامل لا يتبنى نهج التكيف مع التأثيرات المستمرة فحسب، وإنما أيضاً نهج الحفاظ على النمو الاقتصادي والتنمية البشرية وتوسيعهما. ■

خلف الأبواب المغلقة

ستيف كول
Steve Coll

وغيرها من الميليشيات التي تهاجم الجنود الأميركيين وترعى الإرهاب الدولي. ففى إحدى المرات تلقى أوباما بمكتبه تقارير حول تكرار مرات تلك الخيانة من الجانب الباكستانى. «إن تغيير الإحصاءات الباكستانى أمر أساسى لتحقيق أهدافنا الأساسية»، حيث جاء ذلك فى كلمة ألقاها الرئيس الأمريكى لوزراء حربه فى مطلع خريف عام ٢٠٠٩، حينما بدأ فى النظر بمسألة إرسال أمريكا للمزيد من الجنود الأمريكين للحرب.

لم يتغير شئ يذكر منذ ذلك الحين. وقد حاول فريق الرئيس منح باكستان بعض الإغراءات: حيث أمدت الولايات المتحدة الجيش الباكستانى بطائرات الهليكوبتر، منحتها التشجيع والوعود بالشراكة الاستراتيجية. فضلا عن اتباع الولايات المتحدة لأسلوب التهديد: فبعد فشل تفجير تايمز سكوير، فى الربيع الماضى، أصدرت الولايات المتحدة دليلا على أن المتأمرين قد خضعوا للتدريب فى باكستان، حيث حذر جيمس جونز، مستشار الأمن القومى، الرئيس الباكستانى آصف على زردارى بأنه ليس هناك أى وسيلة لإنقاذ تحالف بلاده مع الولايات المتحدة، ما لم تقم باكستان بعمل أى إجراء للقضاء على الإرهابيين. فى الربيع الماضى، كتب وودوارد: «أكدت مصادر مخابراتية بعبور شاحنات للحدود (الأفغانية) محملة بمقاتلى طالبان وهم مسلحون بجميع أنواع الأسلحة معبأة خلف الشاحنات... وهذا ما أعطى للبيت الأبيض الحق للعودة لانتهاج ما بداؤه».

لقد جاء فى تعليقات أوباما الخاصة، والتي أرخت فى الكتاب، إلى أن أوباما أصبح يلم بتفاصيل اللغز الباكستانى ويمتلك أيضا رؤية بناءة لمستقبل جنوب آسيا نحو طريق تحقيق الاكتفاء الذاتى، وهو مستقبل ستكون الهند ركيزته الأساسية. فكما يروى وودوارد «وفق تقرير رفعه مدير مكتب الاستخبارات الوطنية إلى الرئيس» أفضل طريقة للخروج من هذا بالنسبة له هو «التوصل إلى نوع من السلام بين الهند وباكستان». وفى



إذ يمكن للكاتب القول على سبيل السرد، بأن باكستان حليف غير جدير بالثقة للولايات المتحدة. حيث يصف مايك ماكونيل المدير السابق لجهاز الاستخبارات الوطنية فى عهد جورج دبليو بوش لأوباما قبل انتخابه كرئيس للولايات المتحدة هذا الوضع بقوله: «إنهم يعيشون كذبة».

فكان حينئذ ماكونيل يعنى بأنه على الرغم من قدرة باكستان العسكرية وخدماتها فيما يخص كشف شبكات الجاسوسية لصالح جهاز المخابرات الباكستانية^(١)، أو «I.S.I»، فهى فى مقابل ذلك تحصل على بليونى دولار سنويا كتمويل من الولايات المتحدة، إلا أنها لا تزال تؤيد سراً حركة طالبان الأفغانية

مقتطفات منه أو من خلال المقابلات التى أجريت معه. فما يزال، أسلوب عرض وودوارد «Bob Woodward» للأحداث التى وقعت فى عام ٢٠٠٩ بين البيت الأبيض والبنجاب حول تحديد الغرض من الحرب الأفغانية، بالإضافة لحصر عدد القوات الأمريكية اللازمة لإنهاء هذا الصراع، يتسم بحدّة بالغة. حيث يرصد الكتاب بدقة حرص الرئيس، وفى بعض الأحيان، جهوده المتخمة لبناء نهج مقبول فيما يخص إرثه من أفغانستان وباكستان، فكما أوضح وودوارد للعيان من خلال عرضه لجدول البيانات كدليل يؤكد ملابسات صنع القرار الذى كان يعرف سابقا للجمهور كخطوط عريضة.

■ منذ اندلاع أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وقيام الكاتب الأمريكى بوب وودوارد «Bob Woodward»^(١) بإصدار خمسة كتب يتناول من خلالها فترة اتخاذ البيت الأبيض لقرار خوض الحرب، والتي لم يقتصر بها دوره على أن يكون مراسل استقصائى ولكنه كان بمثابة شاهد على العصر، مؤرخ معاصر، صانع للأحداث الجارية التى تمس سمعة واشنطن، كما أنه يعد بمثابة مفتش عام فيما يخص العلاقات المدنية - العسكرية الأمريكية، وذلك باسم جمهور الناخبين فاقدى الأمل بشكل متزايد من جراء الحروب، حيث تم استثمار حالة الإحباط التى أصابتهم لاتخاذ قرار خوض الحروب التى شنتها أمريكا فى تلك الفترة.

إن مسألة حمل وودوارد «Bob Woodward» على عاتقه تلك الأدوار من منطلق البحث عن الثروة، الشهرة، التميز والتفوق فى مجال النشر يثير بعض التعقيدات: فإصداره الأخير «حروب أوباما»، والذي إما تم تسريب

Steve Coll joined The New Yorker from the Washington Post, where he was the managing editor from 1998 to 2005. In 1990, he shared a Pulitzer Prize with co-writer David Vise for a series of articles about the Securities and Exchange Commission. Coll is the author of "The Bin Ladens: An Arabian Family in the American Century,, which won the PEN/John Kenneth Galbraith Award for Nonfiction in 2009. His other books include "Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001.,

Woodward, Bob. Obama,s Wars. Simon & Schuster, 2010

بترتيب مع:
The New Yorker

ترجمة: رحاب منير صالح



يرصد الكتاب بدقة حرص

الرئيس، وجهوده لبناء نهج مقبول فيما يخص
إرثه من أفغانستان وباكستان



الكاردينال ثيودور إي. ماكاريك
Cardinal Theodore E. McCarrick

قدم مساعدات أساسية لهؤلاء العراقيين، حتى إن عددا صغيرا منهم أعيد توطينه في دول ثالثة، من ضمنها الولايات المتحدة وأوروبا، ولكن أية حلول طويلة المدى لهذا التهجير الجماعي تظل بعيدة المنال.

من بين اللاجئين العراقيين الذين زرتهم في الأردن مثلا، كان الكثير منهم يعيش في شقق صغيرة تسكنها أساسا عائلة أو أكثر، ومدخراتهم تكاد تنبخر، وبدون الحصول على إقامة قانونية ليس لديهم أمل كبير في الحصول على عمل ثابت في البلد المضيف. اضطرت بعض العائلات إلى إرسال أطفالها للعمل خدما في المنازل أثناء النهار، مما يعنى تسربهم من الدراسة وتعرضهم للاستغلال.

ويزداد عدد البنات والأولاد العراقيين الذين يقعون ضحايا لتجارة تهريب البشر ودعارة الأطفال. وقد أخبرتنا امرأة شابة كانت ضحية للعنف الجنسي، عن معاناتها من نبت عائلتها لها بعد تحميلها مسؤولية تحولها إلى ضحية. وقد عبر كل من التقية تقريبا عن الخوف من العودة إلى منازلهم في العراق - إذا لم تكن قد احتلت فعلا من قبل آخرين - خاصة الآن والقوات الأمريكية تقوم بالانسحاب.



فوق كل هذا، فقد خفض المجتمع الدولي من دعمه، وليس العكس كما ينبغي. وقد حافظت الولايات المتحدة على مستوى تمويلها ولكنها لم ترفعه بما يكفى لتلبية الاحتياجات الراهنة. وفي هذا العام يقول المفوض الأعلى للاجئين التابع للأمم المتحدة (UNHCR) وهي الوكالة المختصة بمعالجة أزمة اللاجئين، إن النقص يعادل ٢٥ بالمائة من ٧٠٠ مليون دولار أمريكي تقريبا مطلوبة لتغطية الاحتياجات

■ في ٣١ أغسطس، أعلن الرئيس أوباما أن العدد الأكبر من القوات الأمريكية قد غادر العراق، تاركا حوالي ٥٠ ألف أمريكي للمساعدة في الحفاظ على السلام ودعم الجيش والشرطة العراقيين. كان هذا خبرا طيبا للجنود الأمريكيين، وعائلاتهم والأمة. ولكن هذا الانسحاب ينبغي ألا يصاحبه سحب دعمنا للشعب العراقي، خاصة ملايين العراقيين الذين فروا من منازلهم وما زالوا يعيشون مهملين داخل العراق وخارجه في دول أخرى. ومؤخرا خلال اشتراكي في بعثة لملاحظة أوضاع هؤلاء العراقيين المشردين على الطبيعة، توضحت لي الحقيقة المؤلمة.



في العادة، لا يغطي الإعلام، الآثار الإنسانية لحرب السنوات السبع هذه على المدنيين العراقيين. منذ ٢٠٠٣، فر ٢.٥ مليون عراقي من البلاد معظمهم انتهى به الحال في الأردن وسوريا ولبنان، في حين تم تهجير مليونين آخرين داخل العراق، الكثير منهم يعيش الآن في مخيمات مؤقتة في أطراف بغداد والمدن الأخرى. كانت الدول المجاورة في معظمها ترغب في إيواء العراقيين الفارين ولكن بدون منحهم وضع قانوني، وهذا التدفق قد تسبب في إجهاد شديد على سكان تلك البلاد ومواردها. ولالإنصاف فإن المجتمع الدولي بقيادة الولايات المتحدة

Cardinal Theodore Edgar McCarrick is the Archbishop Emeritus of Washington and a consultant to Catholic Relief Services. (October 2010)

ترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصري

تحت دعوى وجود أهداف أكثر توسعية، ولكن الرئيس الأمريكي لجأ أيضا لأسلوب التفاوض للتأكد من تعليق قاداته وأعضاء مجلس الوزراء معا على قراره النهائي، فقد تم الإعلان قبل عشرة أشهر، عن إرسال مزيد من القوات الأمريكية يبلغ عددها ثلاثين ألف جندي للقتال، على الرغم من تحديد تاريخ يوليو عام ٢٠١١، موعدا لبدء بعض الانسحابات تدريجيا. ولهذا فهناك القليل مما يمكن وصفه بأنه بطولة كلاسيكية حول الأداء الرئاسي والموقف هنا، ولكن هناك الكثير مما وعد به أوباما ناخبيه عندما سعى للبيت الأبيض: وهما التحلى بالواقعية والذكاء.

لقد نشر وودوارد، كملحق، مذكرة قام الرئيس الأمريكي بكتابتها في نوفمبر الماضي بوصفها «أوامر نهائية» أو كمحام يكتب «ورقة ملزمة»، تهدف إلى تنظيم زيادة عدد القوات الأفغانية ولضمان عدم عودة البنتاجون لطلب المزيد من الجنود أو المهام. ونقلنا عن الجنرال ديفيد بتريوس، وهو رجل معروف باهتمامه بالتفاصيل وإدمان العمل، ومعربا عن استغرابه بقوله: «ليس هناك رئيس في التاريخ قام بكتابة خمس صفحات على شكل سطور مفردة بنفسه. فهذا ما يحصل عليه الموظفون كاجر للقيام به». يأتي تعليق الجنرال عما جاء في الصفحات التي كتبها أوباما بورود بعض الأخطاء، حيث مثل ذلك بالرئيس جيمي كارتر كرجل مدمن البحث في التفاصيل.

وخلاصة القول أن الوثيقة الكاملة التي كتبها أوباما توحى بشيء يبعث على الطمأنينة: يعتبر أوباما رئيس مسئول عن معظم القرارات المصيرية التي تستدعي منه اتخاذها.

فمن المحتمل أن الرؤساء فقط الذين كانوا جنرالات سابقا هم الذين يمكنهم تخيل ما يمثله استدعاء الجنود للحرب. ولذلك فوودوارد يتركنا مع أوباما كرئيس حرب بشكل كامل، كمؤلف يكتب عن الأحياء والأموات في الحرب. وهو لذلك يحب أن يتحمل مكاسبها وأعباءها على عاتقه. ■

اجتماع تلو الاجتماع، يحث أوباما مستشاريه على التفكير بعمق في المشكلة الباكستانية الكامنة دائما وراء اندام الأمن بشأن الهند، وهذا الخوف، كما دون أوباما، يفسر دعم المخابرات الباكستانية (I.S.I) لحركة طالبان وجماعات متشددة أخرى، كدفع ضد الهيمنة الهندية المحتملة. وهو يتساءل: «لماذا لا نستطيع إجراء محادثات مباشرة مع الهند لمعرفة ما هي الأهمية البالغة التي ستأتى من جراء استقرار الوضع الباكستاني؟». ولذلك، يعتزم أوباما السفر إلى الهند بعد أسابيع قليلة من الفترة الحالية، لوجود الكثير من الأمور الحتمية التي يجب مناقشتها والتي عرضها على مستشاريه.

لقد أخذ الرئيس على عاتقه منذ بداية حملته الانتخابية عهدا بوضع حل للحرب الأفغانية. فما شعر به من تناقض لدى توليه السلطة، ومحاولته لتحقيق ما التزم به على أكمل وجه لهو أمر شاق للغاية معرفته. فبدلا من التردد، على أية حال، سعى أوباما بوضوح خلال عام ٢٠٠٩ لتحديد الوسائل والأهداف من تواجده في أفغانستان. لقد جاء في رواية وودوارد بأن الرئيس نفسه، وليس مستشاروه، هو وحده الذي يعرف أهداف الحرب الأمريكية. إن هدفه هو تحقيق الاستقرار وتسليح نظام الرئيس حامد كرزاي الضعيف، بحيث تستطيع الولايات المتحدة الانسحاب من القتال المباشر دون ترك أي حرب أهلية أو اندلاع ثورة من جانب طالبان بعد شحذ قوتها مرة أخرى، وليس أكثر. حيث رفض أوباما رأى نائبه جو بايدن الذي يرى ضرورة تقليل التكلفة عن طريق نشر كتيبات صغيرة لتوجيه ضربات لمكافحة الإرهاب، لأنه من المرجح أن يتسبب ذلك لأن ينتهى الأمر في سيطرة طالبان.



ففى الوقت الذى أصر فيه أوباما على استراتيجية الخروج عندما عرضها البنتاجون في البداية ولم يستجب لها أحد، حيث لجأ جنرالاته لحق الفيتو



لا يمكننا التخلي عن اللاجئين
العراقيين والعائلات المهجرة. لا يمكن للولايات المتحدة والعالم ترك أزمة إنسانية وراءهما
على أمل أن تحل نفسها



البارزة. وطبقا لتقرير صدر مؤخراً «حتى الآن، لم تسمح دول التوطين سوى بإدخال أقل من نصف ٨٠ ألف حالة عراقية قدمتها المفوضية. وكان من المخطط أن أغلبية هذه الحالات سوف يعاد توطينها في الولايات المتحدة»^(١). ولكن لن يسمح للدخول إلى الولايات المتحدة خلال ٢٠١٠ إلا بعدد ١٧ ألف لاجئ.

ومع انسحاب القوات الأمريكية، يمكن أن تشهد الأوضاع المزيد من التدهور. يمكن أن يزداد العنف وسيجد الكثير من العراقيين الذين ما زالوا في العراق أنفسهم مضطرين إلى الهروب مما يخلق المزيد من اللاجئين في المنطقة. وما زال على الولايات المتحدة أن تعلن خطة لمعالجة التحديات الإنسانية التي يمكن أن تعقب الانسحاب. إنها مسئوليتنا الأخلاقية التي ينبغي أن نلتزم بها.

وفوق ذلك، أصبح المسيحيون العراقيون أهدافا لعنف منظم ومنهجي، خاصة في الموصل ونيوى (الموصل هي عاصمة محافظة نينوى - المترجمة). وهؤلاء المسيحيون ينتمون إلى مجتمعات عريقة نمت وازدهرت في عصور ماضية ولكنهم الآن يواجهون احتمال الانقراض. أبلغني المسيحيون في العراق بالتهديدات التي تصلهم لترك ديارهم أو الموت. ووصف آخرون كيف هوجمت منازلهم وكناشهم.

في ٢٥ أغسطس، وهو توقيت انسحاب القوات الأمريكية، قيل إن الجنود العراقيين انتشروا في شوارع الموصل متوقعين عودة العنف الطائفي. إذا لم تتحسن حالة الأمن في الأحياء المسيحية، تتضاءل وتخبو حظوظ المسيحيين في العودة إلى العراق في المستقبل القريب وإعادة إحياء مجتمعاتهم.

ماذا يمكن للولايات المتحدة وأعضاء المجتمع الدولي الآخرين عمله لمعالجة هذه القضايا؟ أولاً، ينبغي ألا يفترضوا أن نهاية العمليات العسكرية يعنى نهاية الدعم الإنساني. كمسألة أخلاقية، ينبغي ألا نزعّم النصر في العراق في حين أن

سوف تكبر وتتحول إلى مشاكل سياسية أكثر تعقيداً، تؤثر على قدرة الولايات المتحدة في تحقيق أهداف سياسية مهمة أخرى.



في النهاية، لا يمكننا التخلي عن اللاجئين العراقيين والعائلات المهجرة. لا يمكن للولايات المتحدة والعالم ترك أزمة إنسانية وراءهما على أمل أن تحل نفسها. مثل هذه النتيجة لن تفشل في مساعدة الناس الذين هم في أمس الحاجة، فقط، وإنما تخلق عداوة طويلة المدى في المنطقة. سوف تزيد من إحساس الجيل التالي من العراقيين بالغربة، الجيل الذي نعول عليه لبناء أمة مستقرة ومسالمة. ■

(١) ألكساندرا مولر Alexandra Moller «حساب غير المحسوب: إعادة توطين اللاجئين العراقيين» موقع foreignpolicydigest.org مارس ٢٠١٠.

هناك ملايين العراقيين الذين فقدوا منازلهم، وليس لديهم أمل كبير في استعادتها، وهم مكرهون الآن على العيش في ظروف بالغة الصعوبة. وأكثر أهمية من كل ذلك، أن الولايات المتحدة بالتعاون مع الحكومة العراقية والمجتمع الدولي، ينبغي أن تتوصل إلى خطة لما بعد الحرب، شبيهة بما أنجز بعد الحروب الأخرى لإيجاد حلول دائمة للاجئين والمشردين العراقيين. من شأن خطة كهذه أن تعزز دور القانون والأمن داخل العراق، وبهذا تمكن العراقيين من ضمنهم المسيحيون من البقاء في بيوتهم أو العودة. إذا كانت العودة مستحيلة، ينبغي أن تراعى الخطة العمل مع الدول المجاورة لدمج اللاجئين في مجتمعاتها أو إعادة توطينهم في دول ثالثة.



لا بد أن تكون أول خطوة هي تلبية الحد الأدنى من طلب التمويل السنوي

حدث في منتصف الليل

مـازن النـجار



■ ■ الحدث: قوات الكوماندوز الإسرائيلية، من البحر والجو، تهاجم الزوارق الستة المكونة للأسطول الصغير المتجه لكسر الحصار على غزة، والتي كانت تبحر في المياه الدولية لتقديم الإغاثة الإنسانية للفلسطينيين المحاصرين في قطاع غزة. في غضون دقائق، كان تسعة من نشطاء السلام قد لقوا حتفهم، بعد أن أطلق عليهم الإسرائيليون النار، وأصيب عشرات آخرون. وتم اعتقال السبعمئة شخص الموجودين على متن السفن، ثم نقلوا إلى مراكز الاعتقال في إسرائيل، ثم تم ترحيلهم بعد ذلك. في غضون ساعات، وفي جميع أنحاء العالم ترددت الأصدااء وردود الأفعال الغاضبة من إسرائيل. وقامت مظاهرات عفوية في أوروبا والولايات المتحدة وتركيا وغزة نفسها تندد بهذا الهجوم. أطلق رئيس الوزراء التركي على هذا الهجوم «المنذبة الدموية»، و«إرهاب الدولة». ووصفه رئيس الوزراء اللبناني بأنه «خطوة خطيرة ومجنونة من شأنها أن تؤدي إلى تفاقم حدة التوتر في المنطقة».

على صفحات هذا الكتاب، يقوم مجموعة من الناشطين والصحفيين والمحللين بسرد الأحداث التي وقعت في تلك الليلة من شهر مايو ويحللون معانيها المتعلقة بالحصار الإسرائيلي غير المشروع الذي استمر لثلاث سنوات على غزة، وبشكل أعم ما يتصل بعقود من الصراع العربي الإسرائيلي.

يمزج الكتاب بين شهادة شهود العيان، وسجل وثائقي، ورسوم توضيحية، مع تحليل عملي واقعي، واستعراض تاريخي؛ ليكشف الأسباب التي قد تجعل الهجوم على أسطول كسر الحصار على غزة هو بداية النهاية للفصل العنصري في فلسطين.

محرر الكتاب مصطفى بيومي هو أستاذ اللغة الانجليزية في كلية بروكلين بجامعة مدينة نيويورك^(١)، وقد صدر له أيضا قبل عامين كتاب بعنوان «ما الذي تشعر به لدى كونك مشكلة؟: أن تكون شابا وعربيا في أميركا»^(٢)، الذي فاز بجائزة الكتاب الأمريكي وجائزة الكتاب العربي

Moustafa Bayoumi, *Midnight on the Mavi Marmara: The Attack on the Gaza Freedom Flotilla and How It Changed the Course of the Israeli/Palestine Conflict* (Haymarket Books, 2010).

الأمريكي. وتظهر كتاباته دوريا في مجلات «نيشن»، و«لندن ريفيو أوف بوكس»، و«فيليج فويس».

شارك في تأليف فصول الكتاب ثلة من أبرز الكتاب والأكاديميين والمثقفين من الشرق والغرب: على أبو نعمة، وإياد السراج، وليس أندوني، وعمر برغوتي، وجورج بشارت، وماكس بلومنتال، ونعوم تشومسكي، ومارشا كوهين، وخوان كول، وممراد داغلي، وجمال الشيال، وسمية إرتكين، ونورمان فنكلشتين، ونيفيه غوردن، وغلن غرينوالد، وأرون غوبتا، وأميرة هاس، ونادية حجاب، وأدم هوروفيتز، ورشيد خالدي، وستيفن كنز، وإيلا لي، وهينينغ مانكل، وبول لارودي، وغديون ليفي، وعاليا مالك، ولبنى مصاروة، ومايك مركوسي، ويوسف منير، وكين أوكيف، ودانييل لوبان، وكيفن أوفندن، وإيلان بابيه، ودورون روزنبوم، وسارة روي، وبن سول، وأدم شابيرو، ورجا شحادة، وهنري سيغمان، وأهداف سوييف، وراجي الصوراني، وريتشارد تيلينغاست، وأليس ووكر، وستيفن والت، وفيليب فايس، وحنين الزعبي.

بدأت قصة الكتاب بأن أرسل كولن روبنسن وهو صاحب دار النشر الطليعية «OR Books» رسالة بالبريد الإلكتروني إلى الدكتور مصطفى بيومي، بعد بضعة أيام من الهجوم الإسرائيلي على السفينة مرمرة، وسأله ما إذا كان بمقدوره أن يضع كتابا عن هذا الموضوع، ووافق بيومي. فقد شعر أن هذا الحدث قد اهتز له ضمير معظم العالم، وأن من الضروري أن يفهم العالم هذا الحدث في إطار شهادات شهود العيان وسياقه وتحليله، وهو ما يمكن للكتاب أن يقدمه أفضل من أي وسيلة أخرى.

في البداية كان كولن روبنسن يريد نشر سريعا للكتاب، لا سيما أن هذا النموذج في النشر كان ناجحا مع دار نشر «OR Books» في الماضي. ولأن دار النشر هذه تستخدم موقعها الإلكتروني في نشر الكتب فإن عملية النشر تكون سريعة جدا، وأراد روبنسن الاستفادة من هذه الميزة ليجعل ما ينشره من كتب تدور مباشرة حول الأحداث الجارية.

تقرر منذ البداية أن يكون الكتاب مزيجا من أفضل المواد المنشورة حول هذا الحدث بالإضافة إلى المواد الجديدة التي أراد المحرر إضافتها.

خطط المحرر لكي يكون الجزء الأول من الكتاب مخصصاً لشهادة الشهود العيان على أن يتناول الجزء الأخير التحليل والتاريخ والسياق. سعى المحرر لمقابلة العديد من المتطوعين الذين استقلوا الزوارق مثل: لبنى مصاروة وحنين زعبي، ليطلب منهم تقديم مساهمات في هذا الكتاب ووافقوا بسرور على المشاركة. بعض المتطوعين مثل الناشط كين أوكيف والكاتب السويدي هينينغ مانكل، كانوا قد قاموا بالفعل بكتابة مقالات قوية عن هذا الموضوع وسعى بيومي للحصول على حقوق الطبع والنشر لها.

كان العنوان المقترح للكتاب في أولى مراحل إعدادة هو «جريمة قتل على سفينة مرمرة» لكن تم تغييره إلى «منتصف الليل على متن ماوى مرمرة» ليكون العنوان مقبولا لدى معظم القراء. كما أن هناك العديد من المشاركين في الكتاب من الأكاديميين والروائيين والصحفيين المشهورين بالإضافة إلى أحد الشعراء. ولأن موضوع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي مثير لنطاق واسع من المشاعر والنقد اللاذع، ما جعل محرر الكتاب يعد نفسه لهجمات تتناوله شخصيا بصورة غير موضوعية، لذلك آثر اختيار عنوان أكثر حيادية.

لا يعتبر الكتاب مناقشة لموضوع واحد، بقدر ما هو محاولة لتقديم رؤية أقل شيوعاً (على الرغم من أنها بالتأكيد شائعة اليوم أكثر من ذي قبل) لأحداث تلك الليلة وللصراع العربي الإسرائيلي عموماً. تعد أحداث هذه الليلة - ويجب ألا ننسى أن تسعة أشخاص لقوا مصرعهم فيها - على درجة عالية من الأهمية من عدة زوايا. فقد أظهر أسطول كسر الحصار المفروض على غزة العدد المتزايد من الناس العاديين حول العالم الذين ينضمون إلى الدعوة لإنهاء الاحتلال والتوصل إلى حل عادل للصراع. وأظهر الموقف كيف أن طبقة السياسة في إسرائيل، التي تستعبد بها القوة العسكرية الباطشة، تزيد من عزلتها في العالم في السنوات الأخيرة، بشنها سلسلة من الهجمات وردود الأفعال المتهورة غير المتناسبة على الإطلاق عقاباً لخصومها على ما يفعلونه.

كانت ردود الأفعال على الهجوم توضح ما يطلق عليه الكاتب والصحفي اليهودي الأميركي بيتر بينارت أزمة المؤسسة الأمريكية

اليهودية الليبرالية^(٢)، في الوقت الذي لم يعد فيه الكثيرون يدعمون تلقائياً ما تتخذه إسرائيل من إجراءات وصاروا غالباً ما ينتقدون «دولة إسرائيل». يناقش الكتاب أيضاً استراتيجيات المقاومة الشعبية المتزايدة ومعظمها صور مقاومة غير عنفية، يستخدمها الفلسطينيون وحلفاؤهم في الوقت الحاضر. من نواح عديدة، يحاول الكتاب أن يظهر اتجاهات ومسارات الصراع كما هي الآن.

السؤال الذي يحاول مؤلف الكتاب طرحه: هل من الكثير علينا أن نطلب وضع حد للصراع الفلسطيني الإسرائيلي، يقوم على أساس مبادئ العدالة والمساواة الحقيقية للجميع؟ بالإضافة إلى هذا، يحاول محرر الكتاب أن يتحدى السردية أو الرواية الإسرائيلية للأحداث التي دارت في تلك الليلة، والتي بصراحة لم يعد يصدقها الكثير من الناس في مختلف أنحاء العالم (فيما عدا الولايات المتحدة وإسرائيل). تقدم شهادات شهود العيان في هذا الكتاب فرصة نادرة لقراءة ما حدث في تلك الليلة، وبأقلام أولئك الذين نجوا منها.



لا يخفى أن الكثير من وسائل الإعلام الغربية - لا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية - تنقل الأحداث غالباً من وجهة النظر الإسرائيلية فقط. فعلى سبيل المثال، قامت صحيفة نيويورك تايمز بنشر مقالتي رأي على الأقل تدعمان الموقف الإسرائيلي أو وجهة النظر الإسرائيلية، وفيهما مقالة بقلم السفير الإسرائيلي، ولكنها لم تنشر

رأياً بقلم أي من الأشخاص الستمئة المشاركين في أسطول ماوى مرمرة. لذلك سيكون من الرائع أيضاً أن نرى كيف سيؤدى الكتاب إلى الاهتمام باستمرار النضال الفلسطيني في اعتماد المزيد من استراتيجيات المقاومة غير العنفية.

كان الهجوم الإسرائيلي الوحشي على السفن التي انطلقت لكسر الحصار على غزة طفرة جعلت العالم يدرك مدى القسوة الإسرائيلية التي تمارس على غزة. ربما لم يتمكن أسطول التحرير الصغير من تسليم ١٠ آلاف طن من المساعدات الإنسانية إلى قطاع غزة المحاصر، لكنه أنجز شيئاً أكثر أهمية، ألا وهو كسر الحصار الذي ضربه إسرائيل على إدراك ورؤية العالم لكارثة غزة.

ينبغي النظر إلى الهجوم الإسرائيلي على الأسطول جنباً إلى جنب مع الهجوم الإسرائيلي على غزة في شتاء ٢٠٠٨-٢٠٠٩ على أنهما يبدشان عهداً جديداً، تحولت فيه رؤية العالم للاحتلال الإسرائيلي تحولا لا رجعة فيه. مع بداية هذا العهد، ظهرت وحشية الاحتلال الإسرائيلي كاملة على مرأى ومسمع من الجميع؛ وعُرضت قضية تعرض الفلسطينيين للاضطهاد في صفحات الرأي الافتتاحية في الجرائد وظهرت حتى في مذكرات قانونية. في المحصلة، قد تكون هذه الأحداث علامة فارقة تضع حداً لإفلات إسرائيل المزمّن من العقاب.

من وجهة نظر تاريخية، يمكن أن ينظر إلى عملية «الرصاص المصبوب» (الحرب على غزة في شتاء ٢٠٠٨/٢٠٠٩) والهجوم على «ماوى مرمرة» على أنهما يمثلان حرباً مضادة لحرب عام ١٩٦٧. فقد كانت حرب عام ١٩٦٧



الهجوم الإسرائيلي الوحشي على السفن التي انطلقت لكسر الحصار على غزة طفرة جعلت العالم يدرك مدى القسوة الإسرائيلية التي تمارس على غزة



هي التي ساعدت على ترسيخ صورة إسرائيل في أعين العالم، وبخاصة أمام يهود أمريكا، على أنها الدولة المستضعفة للشعب المشتت الذي تمكن من تغيير حظه. لكن هذه الصورة تغيرت الآن تغيراً أديداً؛ فقد دفع الحصار المستمر لقطاع غزة الكثير من الناس إلى إعادة النظر فيما زرعتة الصهيونية في الشرق الأوسط. ويعد تقرير جولدستون هو لائحة الاتهام المميزة لهذا العهد الجديد.

خلص التقرير إلى أن كلا من إسرائيل وحماس ارتكبتا جرائم حرب مع احتمال ارتكابهما لجرائم ضد الإنسانية، وهو ما يتضمن تحديداً اضطهاد غزة. كما سلط التقرير الضوء على حالات قامت فيها إسرائيل عمداً بمهاجمة البنية المدنية التحتية، بما في ذلك آبار المياه ومزارع الدواجن وآخر ما تبقى من مطاحن الدقيق الصالحة للعمل في القطاع. وليس من المستغرب أن يصبح التقرير وجولدستون نفسه هدفاً للانتقادات المتواصلة والنقد اللاذع لأنه كشف النقاب عن الأعمال الإسرائيلية.

بالنسبة لأولئك الذين راودتهم بعض الشكوك حول ما توصل إليه تقرير جولدستون من نتائج، فقد تبדת شكوكهم بفضل الهجوم على الأسطول. فجرائم القتل التي ارتكبت على سفينة ماوى مرمرة بررت قراءة جولدستون للأساليب الإسرائيلية. ويلاحظ أن دفاع وزارة الدفاع الإسرائيلية عن أفعالها هذه هو نفس دفاعها عن أفعالها في غزة: لدينا الحق في عبور الخطوط الدولية، فقد تعرضنا للاستفزاز الشديد، ما يفترض أنهم مدنيون كانوا بالفعل مقاتلون، لا يمكن لأى دولة أن تسمح بتحمل هذا الوضع، لقد دافعنا عن أنفسنا، انظروا إلى تسجيل الفيديو.

وفي حين تقول الحقائق إنه في غزة قتل الإسرائيليون ما يتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠، في حين لم يلق مصرعه إلا القليل جداً من الجانب الإسرائيلي؛ كذلك كانت أرقام الضحايا غير متوازنة بين الجانبين على السفينة مرمرة.

والآن تتصاعد الجهود الرامية إلى تشويه سمعة الناشطين الذين كانوا على القوارب باعتبارهم من الجهاديين، وهو ما تناولته بحماسة صحيفة الواشنطن بوست وصحف أمريكية أخرى، ولنتذكر الجهود التي

بذلت لتصوير سكان غزة على أنهم مجموعة من السكان المتطرفين المخابيل.

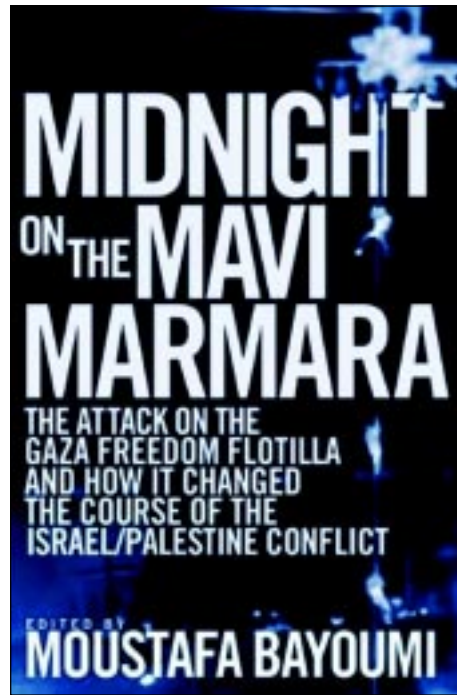
كان دفاع جولدستون هو أن أى شخص لديه عينان فى رأسه يعرف أن هناك خطأ فادحا فيما يتعلق بما فعلته إسرائيل مع السفن- كما يكون لأى شخص لديه عينان فى رأسه- أن يعرف أن هناك خطأ فيما يتعلق بالهجوم على غزة.

ولكن فى ذلك الحين، كان الغرب لا يزال فى حالة إنكار. بيد أن الرفض الإسرائيلى الأمريكى لتقرير جولدستون يمكن اعتباره الآن على أنه جهد دفاعى الغرض منه التغطية على الفضائح الإسرائيلية. لكن من يستطيع أن يشكك الآن فى النتائج التى توصل إليها تقرير جولدستون، والتى تتلخص فى أن إسرائيل استهدفت تدمير البنية التحتية المدنية فى غزة بصورة غير متناسبة، وبدون تمييز بين المدنيين والمقاومين؟ لقد أظهرت لنا إسرائيل مرة أخرى الطريقة التى تلعب بها.

يمكن رؤية هذا الوعى فى تحول الخطاب الدائر حول الهجوم على قافلة سفن كسر الحصار، لاسيما على شبكة معلومات الإنترنت، حيث يقوم صحافيو الشبكة العنكبوتية بقيادة على أبو نعمة بفضح جهود التزييف الإعلامى الإسرائيلى. توغل هذا الوعى ليصل إلى وسائل الإعلام القائمة. فعلى موقع صحيفة نيويورك تايمز، تقوم مدونة روبرت ماكاي بفهرسة كتابات أولئك الذين يكشفون القصص الإسرائيلية الملفقة.

أبرز ماكاي تقرير ماكس بلومنتال حول التسجيل الصوتى الذى تلاعب فيه الجيش الإسرائيلى للهجوم على السفن، وما كتبه ناعوم شيزاف حول الصور التى التقطها أترك من على متن سفينة مرمرة للهجوم عليها وهو ما يتناقض مع ادعاءات الجيش الإسرائيلى. تشمل التقارير المهمة الأخرى مقال ليا تاراتشانسكى ومقال بلومنتال اللذين يدحضان ادعاءات الجيش الإسرائيلى بوجود صلة بين السفن وبين تنظيم القاعدة، ومقال جارد مالمسين الذى يؤكد التلاعب فى التسجيل الصوتى، وإعادة رسم أبو نعمة لمسار «ماوى مرمرة» موضحا أنها كانت تضر بالفعل فى وقت الهجوم الإسرائيلى.

على الرغم من الجهود الحثيثة التى تبذلها وزارة الخارجية



مهيئة. لم تنجح هذه الأغنية إلا فى التأكيد على أن الكثير من الإسرائيليين يصمون آذانهم تماما عن المشاعر التى تجتاح الناس حول العالم.

فى عصر آخر، ساعد الرواى ليون يوريس على تقديم سردية للصراع الإسرائيلى الفلسطينى، واستمرت هذه السردية لأجيال، إلا أن القصة اليوم تروى على الإنترنت ممن عايشوها. كانت أجزاء من الهجوم الإسرائيلى على سفينة «ماوى مرمرة» قد تم بثها على الهواء مباشرة تقريبا، عن طريق قناة بث مباشر على الإنترنت. علاوة على ذلك، تمكن العديد ممن التقطوا أفلاما على متن السفينة من تهريب بعض اللقطات، وعلى الأخص الناشطة إيارا لى من «مشروع ثقافات المقاومة»، والتى ساعد ما سجلته من لقطات على دحض السردية الإسرائيلية الرسمية للأحداث. حتى الآن لم تجد إسرائيل ردا مناسباً على «دمقرطة» وسائل الإعلام. ومن يدرى - فربما قبل مرور وقت طويل- قد يتحدث الناس عن كيف انتهى المطاف بسكان غزة إلى الإقامة فيها فى المقام الأول، أى نكبة ١٩٤٨ التى جاءت باللاجئين إليها. من سيصدق أسطورة «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض» بينما هناك عشرة تسجيلات فيديو على الأقل بموقع يوتيوب تثبت خطأها؟

الإسرائيلية، إلا أن صحافى الإنترنت هؤلاء كانوا قادرين على تجميع القصة وملء الفراغات المهمة فى سردية الهجوم، هذه الفراغات كان سببها هو رفض إسرائيل نشر إجمالى تسجيل الفيديو واللقطات (الصور) الثابتة التى صادرتها من ركاب السفن.



فى الماضى، كانت سيطرة إسرائيل على قصة الصراع، ولاسيما فى الغرب، مصدرا هائلا للقوة. أما الآن فنحن نشاهد انكسار شوكة قوتها بوتيرة سريعة لا تُصدق. كان النجاح الوحيد الذى حققته جهود التلغيف الإعلامى الإسرائيلى هو تسجيل الفيديو العنصرى المقلد «نحن نخدع العالم» (We Con The World) وهو أغنية على لحن وإيقاع أغنية «نحن العالم» (We Are The World) لمايكل جاكسون وليونيل ريتشى وستيفى وندرواخرين، كانوا قد كتبوها وغنوها فى ١٩٨٥ من أجل جمع التبرعات لضحايا القحط والمجاعات بإفريقيا. فى المحاكاة الإسرائيلية للأغنية بصورون الناشطين-على متن سفن قافلة كسر الحصار- على أنهم إرهابيون من حماس يستبدون عطف العالم لجمع التبرعات لغزة، ويسخر الإسرائيليون فيه من العرب والمسلمين بصورة

نريد أن نقول إن عصر إفلات إسرائيل من العقاب قد يكون اقترب من نهايته بسبب التزايد الكبير فى الجهود الشعبية الدولية لمحاسبة إسرائيل. حفز الهجوم الإسرائيلى على غزة الدعوة المعروفة اختصارا بـ«BDS»، أى الدعوة لمقاطعتها عالميا، وسحب الاستثمارات منها، وفرض العقوبات عليها. وجاء الهجوم على قافلة كسر الحصار ليضيف المزيد من الوقود إلى النيران. فى الأسبوع التالى للهجوم على القافلة، اندلعت ثورة من أنشطة المقاطعة فى جميع أنحاء العالم بدءا من عمال الموانئ فى السويد الذين رفضوا تفريغ السفن الإسرائيلية، إلى أكبر اتحاد عمالى فى بريطانيا يوناييت «UNITE» الذى قرر الترويج لحملة مقاطعة إسرائيل، إلى إحدى الفرق الغنائية الشعبية التى رفضت أن تعزف فى تل أبيب.

وبالإضافة إلى هذا، استدعت الإكوادور وتركيا وجنوب إفريقيا سفراءها فى إسرائيل-وأكثر من خمس عشرة دولة أخرى- استدعت سفراء إسرائيل فيها للتعبير عن غضبها. يبدو أن هذا الغضب يتكاثف أيضا فى الأمم المتحدة، حيث يدفع الأمين العام بان غى مون قدما بخطط لإجراء تحقيق دولى فى الهجوم على السفن بالرغم من المحاولة الإسرائيلية لعرقلة الجهود باستخدام لجنة تحقيق محلية.

يشير البعض بالفعل إلى هذا التحقيق الجديد للأمم المتحدة على أنه «تقرير جولدستون الثانى». ويوضح المعلق الفلسطينى على أبو نعمة فى موقع «الجزيرة نت» الإنجليزى أنه فى حين حرك الهجوم على غزة شعوب العالم، فيبدو أن الهجوم على السفن قد حرك حكومات العالم. وأشار إلى التكوين العالمى للأسطول وكتب قائلاً: «فى هذا اليوم صار العالم كله غزة. وكشأن سكان قطاع غزة، من غير المرجح أن يقبل العالم الكذب عليه. ومن ثم، فإن الهجوم على أسطول غزة قد ثبت فى أحد الأيام أنه نقطة فاصلة فى التاريخ الحديث. ■

(1) City University of New York's Brooklyn College
(2) Moustafa Bayoumi, How Does it Feel to be a Problem?: Being Young (Penguin and Arab in America 2008) Press,
(3) انظر مقال بيتر بينارت، فشل المؤسسة اليهودية الأمريكية، الكتب وجهات نظر، عدد أغسطس/آب ٢٠١٠.



إن السينما لم تزدهر سوى في المدينة، وقد قامت صناعة السينما في المدن الكبرى،
مثل هوليوود (لوس أنجلوس)، وباريس، وروما،
والقاهرة، وبكين، ونيودلهي..



محمود قاسم

المدينة والفيلم



اتسع بلا نهاية

المدينة والسينما.. صنوان:

■ لا يمكن لإحدهما أن تنفصل عن الأخرى، وبينهما نقاط تشابه عديدة، مثل الاتساع، والتجدد، والغموض، وازدحام الحوادث، والحياة..

ومع كل صباح جديد، تستلهم السينما من المدينة قصص أفلامها الجديدة، وتستقبل قاعات المدينة المزيد من الأفلام لعرضها على عشاق السينما، كى يروا فى هذه الأفلام انعكاسات حقيقية للحياة التى يعيشها الناس..

وقد دأبت السينما على تصوير المدينة، وما يحدث فيها، لدرجة أن السينما هى مدينة لا نهاية لها من الاتساع، وأن المدينة ليست سوى فيلم لا تنتهى أحداثه، فى حالة مستمرة، من العرض، ولا يعرف التوقف..

ونحن نتكلم بشكل عام عن الطرفين، ففى كل فنون السينما فى العالم، لاحظنا مدى العلاقة الجبرية بين الفيلم والمدينة، فعلى مستوى الصناعة، فإن السينما لم تزدهر سوى فى المدينة، وقد قامت صناعة السينما فى المدن الكبرى، مثل هوليوود (لوس أنجلوس)، وباريس، وروما، والقاهرة، وبكين، ونيودلهي..

أما عن الموضوعات، فإن المدينة موجودة فى القصص، حتى فى السينما الصحراوية، أو الريفية فإن هناك رجالا من المدينة يأتى إلى هذه الأماكن، للإقامة المؤقتة أو الدائمة هناك..

لكن ما المقصود بالسينما والمدينة حسبما نود أن نطرح مفهوم العلاقة..؟ إنها بلا شك الصورة التى جاءت عليها المدينة، أياً كان شكلها فى السينما الروائية خاصة فى مصر، بمعنى إلى أى حد صورت الأفلام التى رأيناها أبعاد المدينة، وحدودها، وسكانها، والمؤسسات بها، وما يعتمل فى قاع المدينة، وفى أركانها المختلفة من أسواق، وميادين، ومنتديات، وغيرها..

من أعلى، تقترب الكاميرا، كى تصور المدينة بمثابة مجموعة من المباني المتلاصقة، بعضها شاهق العلو، يعكس هوية المدينة وثراءها، والبعض الآخر، مبان منخفضة، يحضن بعضها البعض الآخر، أو تتكدس تكدس البشر الذين يعيشون فى أروقتها..

ولعل أسهل مدخل لفهم هذه العلاقة، هو أسماء الأفلام نفسها، وعلى المستوى الشخصى يعجبني كثيراً عنوان فيلم أخرجه وكتبه حسين حلمى المهندس عام ١٩٦١، يحمل عنوان «تحت سماء المدينة»

وهذا العنوان يختصر الكثير مما نود أن نفسره فى هذا المقال، فتحت سماء المدينة تحدث فى كل لحظة، وكل ساعة، عشرات الحكايات التى تصلح لأن تصنع فيلماً، وتحت هذه السماء هناك البيوتات بما تحمل من أسرار، وهناك المصانع، والمقاهى، والعشش، والمتاجر، وقصور الأغنياء، وبنات الليل، والجرائم التى يتم اكتشافها، أو تظل مجهولة، يستمر أصحابها دوماً فى ممارسة كل ما هو ضد شرائع الطبيعة، والحياة..

وبالتالى فإن الرجوع إلى كلمة «مدينة» فى عناوين الأفلام يعطى تعبيراً مختصراً عن أشياء كثيرة تدور فى هذا المكان المتسع، ولعل من العناوين المليئة أيضاً بالبلاغة ذلك المأخوذ عن إحدى أقاصيص يوسف إدريس «قاع المدينة» فى الفيلم الذى أخرجه حسام الدين مصطفى عام ١٩٧٤، وهو عنوان ملىء بالبلاغة، والدلالة. إنه يتحدث عن أماكن بعينها فى المدينة، ويشر يسكنون هذه الأماكن، والغريب أن الفيلم ليس عن قاع المدينة كمكان، بقدر ما هو عن قاض، من طبقة أرستقراطية يعيش حياة ماجة، يستجلب امرأة فقيرة للعمل عنده كخادمة، لا تلبث أن تصير عشيقة له.. وإذا كان اسم المدينة نفسه نادراً فى العناوين، فإن أسماء المدن موجودة أيضاً

لما، خاصة العاصمة «القاهرة»، فالاسم موجود فى العديد من الأفلام قليلة القيمة، والغريب أن هناك فيلماً بريطانيا تم تصويره فى مصر عام ١٩٦٣، قامت ببطولته فائق حمادة، وكمال الشناوى وجورج ساندروز وريتشارد جونسون يحمل اسم «القاهرة»، والمدينة بالنسبة لصناع الفيلم لم تعد أن تكون المتحف المصرى الذى تجرى سرقة، وأماكن الليل فى شارع الهرم..



وقد برز اسم القاهرة على أفشيات أفلام قليلة للغاية، وهى أفلام تكاد تكون مجهولة، مثل «امرأة من القاهرة»، وهو أول أفلام المخرج محمد عبد العزيز فى عام ١٩٧٤. ثم هناك فيلم من إنتاج مصر البحرى باسم «حبى فى القاهرة» إخراج عادل صادق عام ١٩٦٦، إلا أن أهم هذه الأسماء على الإطلاق هو «القاهرة ٣٠»، كما أن هناك «القاهرة فى الليل» لمحمد سالم عام ١٩٤٣..

بالإضافة إلى أن كافة المناطق القاهرية، صارت عناوين للأفلام، خاصة فى الأفلام المأخوذة عن نجيب محفوظ، أو التى كتبها خصيصاً للسينما، وهى

كلها أسماء لمناطق صغيرة يعيش فيها عدد محدود من البشر مثل «بين القصرين»، و«قصر الشوق»، و«السكرية»، و«زقاق المدق»، و«خان الخليلي».. كما تجولت عناوين الأفلام بين «بنات وسط البلد»، و«فى شقة مصر الجديدة»، و«باب الحديد»، و«فضيحة فى الزمالك»، و«السكاكينى»، و«درب المهايل»، و«الدرب الأحمر»، و«فتوات الحسينية»، و«سوق السلاح»، و«كذلك فى الزمالك»، و«شارع محمد على»، و«شارع السد»، و«الشرابية»، و«فى محطة مصر»، و«الفحامين»، و«جدعان الحلمية».. وغيرها..

هذا بالإضافة إلى أسماء مقاه، ونواد ليلية، وأماكن يتردد عليها الناس بشكل دائم، وجماعى، والملاحظ من خلال هذه الأسماء، والعناوين، أن هناك عدة ملحوظات يمكن أن نوجزها كالتالى:

«أغلب الأماكن العامة، أو الأسماء التى جاءت كعناوين للأفلام، الخاصة بالقاهرة، باعتبارها المدينة الأم، والأكبر، هى أماكن تخص الفقراء، أو فلنقل أنها موجودة فى أحياء شعبية، بمعنى أن هناك حالات ملحوظة من التكديس السكانى، من ناحية، وأيضاً ازدحام وتواصل فى العلاقات، ففى هذه الأحياء تختلف طبيعة البشر، وعلاقاتهم فيما بينهم، هم يأتلفون بالمكان، وتحس كأنما ليس هناك فاصل بين البنايات، أو حتى بين الشقق، ففى بعض الأفلام، تبدو النوافذ والشرقات مفتوحة على بعضها، لشدة اقتراب الشقق والسكان مثل «هذا هو الحب»، و«السفيرة عزيزة»، و«حياة عازب». وهى أفلام تم إنتاجها فى فترات متفاوته..

أما خارج البيوت، فإن حالة «زقاق المدق» تبدو أفضل نموذج ملىء بالألفة والتقارب اللذين يجمعان بين الناس، فالمحلات متجاورة، صالون الحلالة، إلى محل المعلم كرشة، وصانع البسبوسة، والمقهى، وغيرها، يقعون فى دائرة ضيقة للغاية، مما يوحى بروح العائلة، بل إن الزقاق نفسه أشبه بشقة واسعة، أقرب إلى الربع فى أحياء القاهرة القديمة، وفى هذا الزقاق المحدود المساحة، يقيم السكان أفراحهم وأحزانهم، وفى هذا الفيلم بالذات فإن أغلب السكان من القاهرة، وليسوا من النازحين من خارجها، والناس هنا يتحابون ويتزاحمون فيما بينهم، طموحاتهم لا تتعدى حدود المكان..

وقد تكرر الأمر نفسه فى أغلب الأفلام التى كتبها نجيب محفوظ، حول جزء فى



فلم عبد الوهاب

يقدم

تحية كارينوكا
محمد عبد الوهاب
في

بلد الحبوب

إخراج حلمي رفلة * موسيقى وألحان محمد عبد الوهاب
قصة وعوار: أبو السعود الأبياري

ظلت المدينة دوماً سبباً لجذب أبنائها، بمعنى أن المدينة نفسها تجبر أبناءها على البقاء فيها، حتى لو رحلوا إلى الخارج مضطرين، بحثاً عن لقمة عيش



أما البرج الأعلى الذى يطل على المدينة، فمنذ تأسيسه فى عام ١٩٦٠، والسينما تحج إليه كثيراً، بين وقت وآخر خاصة فى أول أفلام هذه السلسلة مثل «موعد فى البرج» لعز الدين ذو الفقار عام ١٩٦٢، حيث يبدو البرج شامخاً فى أفيش الفيلم، وقد تشعل عليه بطلاه، اللذان يتواعدان على اللقاء فوق البرج بعد ستة أشهر، لكن فى يوم اللقاء، تمنع الظروف الطرفين من اللقاء، ومن الواضح أن السينما قد أعدت احتفالية خاصة بالبرج فى هذا الفيلم، وأهمية المبنى هنا أنه يطل على المدينة ويمكن مشاهدة القاهرة بمجرد الدوران فى مساحة صغيرة بأعلى البرج، وقد حاول المخرج الاستفادة من العلو الشاهق للبرج، حيث كاد اثنان من أفراد عصابة أن يرفعا عادل كى يرميا به من أعلى.. ورغم أن حالات انتحار قد حدثت فى الواقع من أعلى البرج، فإن السينما لم تهتم بتحويلها إلى أفلام، لكن الجزء الأخير من فيلم «آخر الرجال المحترمين» لسمير سيف عام ١٩٨٤ يدور فى أعلى البرج، حيث تأتى امرأة خطفت تلميذة، كى تنتزه مع الطفلة، وإلى المكان تأتى الشرطة، وأهل قرية الفتاة، وتحاول المرأة التهديد باللقاء الطفلة من أعلى إن قبضوا عليها، أى أن استخدام التهديد باللقاء شخص، هو سمة رئيسية فى الأفلام التى تصور المدينة من خلال البرج..



وعلى كل، فبرج القاهرة، مكان ضيق، لعل ظهوره فى السينما المصرية، كان أقل بقليل من ظهور برج إيفل. الذى صعد إلى أعلاه أبطال أفلام عديدة منها «التوربينى» عام ٢٠٠٧. وقد اتسم برج القاهرة بأنه يكشف عن الجانب الحديث من المدينة، والأحياء الراقية، فالمرأة التى خطفت التلميذة فى «آخر الرجال المحترمين» تسكن الزمالة. أما القلعة (قلعة صلاح الدين) فإنها كمكان يقع فى أعلى المدينة يختلف تماماً عن البرج، باعتبارها الأقدم، والأكثر اتساعاً، وهى تطل مباشرة على أحياء مصر القديمة، وعلى مبانيها الأثرية، وعلى الفقراء.. وقد بدت القلعة شاهداً على أسرار المدينة أكثر من البرج، الذى تم بناؤه فى مكان يخلو تماماً من السكان، أما القلعة فقد أقام أسفلها أبطال أفلام عديدة منها

المفتوحة، مثلما حدث فى «الكيف» لعلى عبد الخالق عام ١٩٨٥، فرجل العصابة هنا يمتلك قطعة أرض نيلية، وهو يستحضر المهندس الذى ابتكر تركيبة المخدرات كيميائياً، كى يخبره على عمل التركية، وتبدو الأحداث الدامية على خلفية المدينة التى يطل المنظر عليها.. وعلى ذكر نهر النيل، فإن هناك رموزاً بعينها، ما إن يظهر أحدها، أو كلها فى فيلم، فإن هذا يعنى المدينة دون غيرها، مثل بروج المدينة، وأنهارها، وقلعها، وجامعاتها، والمباني التجارية، أو أماكن العبادة، والمواصلات، ولو توقفنا عند القاهرة، كرمز للمدينة الضخمة، الواسعة، التى كانت مكاناً دائماً لمئات الأفلام، فإن نهر النيل الذى يخترق المدينة، وجسوره العالية، والأحياء المطلة على جانبيه، قد صار البطل الرئيسى فى أفلام عديدة، منها «العوامة رقم ٧٠» لخيري بشاره عام ١٩٨٢، و«نهر الخوف» لمحمد أبو سيف عام ١٩٨٨، حيث تدور الأحداث حول رجل موتور، يأخذ مركباً نهرياً، ومن عليه من ركاب كرهينة، ويتحرك المركب النهري فوق صفحة النيل، ويرسو أحياناً فوق إحدى الجزر حيث تتم المفاوضات بين الشرطة، والموظف الموتور، ويكاد يكون الفيلم هو أحد الأعمال القليلة التى تدور أحداثه بالكامل فوق النهر، لكن الفيلم المهم بالفعل هو «ثرثرة فوق النيل»، الذى يدور فوق عوامة على نهر النيل، تعيش فوقها مجموعة من الباحثين عن المتعة، والهروب من الضغوط النفسية، ورغم أن هناك عوامات عديدة يعيش فى داخلها سكان، وأسرات، فإن السينما نظرت إلى العوامات باعتبارها مكاناً للمتعة، وقضاء وقت ممتع، مثلما حدث فى فيلم «ليلة ساخنة» لعاطف الطيب عام ١٩٥٥..

وقد تجول أبطال بعض الأفلام الغنائية فوق سطح النهر، يغنون للحبيبة، مثلما فعل عبد الحليم حافظ فى «أيام وليالى» لبركات عام ١٩٥٥، وفريد الأطرش فى «قصة حبى» لبركات أيضاً عام ١٩٥٥.

ولا شك أن علاقة الأفلام المصرية بالنهر تحتاج إلى دراسة فى كتاب متخصص، فالمكانة التى يتمتع بها النيل فى حياة المصريين قد انعكست فى عشرات الأفلام، سواء التى تدور خارج إطار المدينة مثل «صراع فى النيل»، أو الأفلام التى تدور فى القاهرة باعتبارها المدينة الأكبر، والأكثر حضوراً فى السينما..

ولا تزال هذه الصدمة الممزوجة بالإبهار موجودة لدى أبطال الأفلام، حتى وإن جاءوا من مدن أخرى، وليس فقط من الريف..

بدت الدهشة الأولى على وجوه أبطال فيلم «أرزاق يا دنيا» لنادر جلال عام ١٩٨٤، فالفتاة التى جاءت لتعمل خادمة بصحبة أبيها، تبدو عيناها غير قادرتين على استيعاب اتساع المكان الذى تنظر إليه، أما الشاب صاحب الساق الخشبية، فبدا مثل غيره، ممن جاءوا إلى المدينة بحثاً عن الرزق، وعقب تلك النظرات الغامضة الجائعة، فإن المدينة سوف تصدم الطرفين بعنفها الشديد، ودمويتها، فلقمة العيش ليست مليئة بالمرارة، بل بالدم والاغتصاب، والقهر، وهذا هو حال المدينة..



إذن، فالمدينة تباينت صورتها، من عالم وردى، ملئ بمظاهر الربيع، وجمال الطبيعة، وحميمية الصحبة فى أفلام عديدة مثل «شم النسيم» لفريتيشيو عام ١٩٥٢، و«أميرة حبى أنا» لحسن الإمام عام ١٩٧٤، وغيرهما، حيث يذهب الناس لقضاء إجازاتهم فى الجناين، والأماكن الواسعة، ويعطينا هذا النوع من الأفلام الإحساس أن المدينة مليئة بالخضرة والحدائق، وعلى كل فهذه الأفلام قليلة للغاية، قياساً إلى تلك التى تصور صورة العنف، والوحشية فى أروقة المدينة، خاصة جبال المقطم، والمناطق المجاورة، وصحراءها، فقد قتلت الراقصة الأولى فى منطقة قمر، تطل على المدينة فى فيلم «أبناء وقتلة» لعاطف الطيب عام ١٩٨٧، وقامت مجموعة من الشباب باختطاف عروس، واغتصابها أمام عريسها ليلة زفافهما فى فيلم «الأوباش» لأحمد فؤاد عام ١٩٨٦، وحول الموضوع نفسه قدم سعيد مرزوق فيلمه «المغتصبون» عام ١٩٨٩، وكانت المدينة بالغة التوحش، أشبه بأرض تدور عليها معارك عسكرية بين أطراف متطاحنة مثل «١٣١ أشغال» لنادر جلال عام ١٩٩٣، وفى هذه الأفلام وغيرها، اختلطت دماء الضحايا والقتلة بتراب المدينة، وهذه الأمثلة المذكورة، تم العنف فيها تحت السماء، ليلاً أو نهاراً، وليس فى الأماكن المغلقة. وقد امتلأت أروقة المدينة بأوكار يعيش فيها زعماء عصابات التهريب لا يمكن لشرطة أن تقترب من أوكارهم

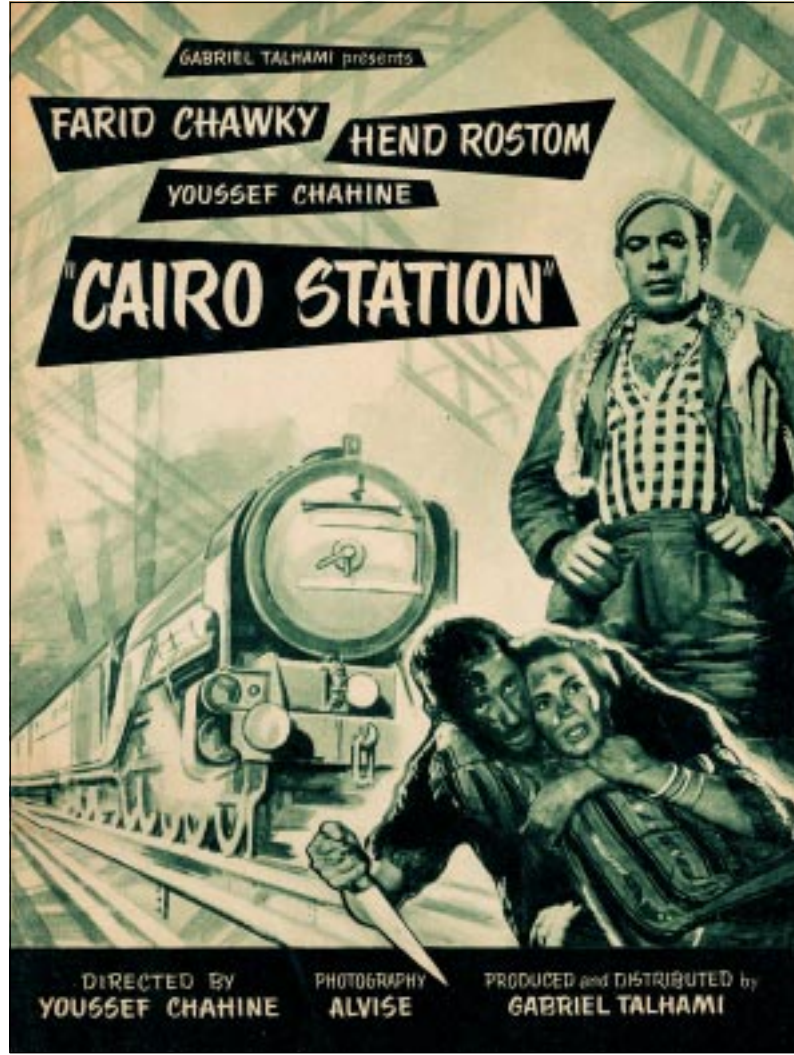
المدينة، سواء المأخوذة عنه رواياته مثل «خان الخليلي»، و«المطاردة»، و«شهد الملكة»، والتى كتبها مباشرة للسينما، ومنها «درب المهابيل»، و«فتوات الحسينية»، فالمدينة رغم اتساعها، فإنها تبدو ضيقة بأهلها وسكانها، والناس فى هذه الأماكن من المدينة شبه محكوم عليهم بالإقامة الجبرية، لا يستطيعون، ولا يرغبون فى الخروج منها ولو مرة واحدة، فحميدة فى «زقاق المدق» التى تستجيب إلى فرج بأن تذهب إلى منطقة عماد الدين محكوم عليها بالموت، وألا تعود إلى الزقاق سوى جثة هامدة، محمولة على أعناق عباس الحلو، والأم فى «الثلاثية» طردها زوجها من جنته، لمجرد خروجها من البيت مرة واحدة، لزيارة الحسين، وفى «درب المهابيل» فإن الحلم بالثروة، والحصول على المال لا يرتبط قط بالخروج من المكان.

وقد ظلت المدينة دوماً سبباً لجذب أبنائها، بمعنى أن المدينة نفسها تجبر أبناءها على البقاء فيها، حتى لو رحلوا إلى الخارج مضطرين، بحثاً عن لقمة عيش، مثلما حدث فى «عودة مواطن» لمحمد خان عام ١٩٨٦.. أى أن المدينة هنا تحولت إلى شبه حارة ضيقة، وزقاق بيوته بمثابة جدران سجن..

يعنى هذا أن المدينة رغم اتساعها الملحوظ من أعلى، تظل بمثابة مكان ضيق على سكانها، لا يخرجون من الأطر الضيقة لهذه المدينة إلا فى أقل الحدود، وتبدو هذه السمة، فيما أطلقت عليه السينما بأفلام الواقعية، خاصة عند صلاح أبو سيف، فسوق الجملة فى «الفتوة» هو المسكن، ومكان العمل، والصراع وسبيل الحياة الوحيد لكل من يعيش فيه، وعلى المرء أن يظل هناك فى حالته عمل ومنافسة من أجل البقاء على قيد الحياة..

وفى بعض أفلام هذا المخرج، فإن القادمين إلى المدينة، فعلوا ذلك بهدف البحث عن وسيلة للرزق، فالتعليم الذى جاء من أجله إمام فى «شباب امرأة» هو وسيلة للرزق فى المستقبل، وأيضاً لقد جاء مئات من البشر للعمل فى سوق الخضار فى «الفتوة»، وكما امتلأت المدينة بأمثال هريدى، وإمام فى أفلام كثيرة، جاء أغلبه عن طريق القطار..

وتلعب محطة القطار الرئيسية دوراً فى التعرف على المدينة، وقد تعمدت أفلام عديدة تصوير كيف كان اللقاء الأول المبهر الذى حدث للقرويين والصعايدة القادمين من قرى صغيرة إلى عالم واسع،



محطة مصر... ١٩٥٨



بين القصرين... ١٩٦٤

المدارس، فإن الجامعة حاضرة في الأفلام بقوة ملحوظة، أكثر من المدارس، باعتبار أن الأولاد والبنات قد صاروا أكثر قدرة على الحرية، والتصرف، وهم في الجامعة، لذا كانت هي البؤرة التي تشكل فيها الطلاب سياسياً وعاطفياً، وقد ارتبط الغضب، والتمرد، والثورة ضد الأنظمة السياسية من خلال مظاهرات الطلاب في أفلام كثيرة منها «في بيتنا رجل» لبركات عام ١٩٦١، و«العاصفة» لخالد يوسف عام ٢٠٠١، و«الكرنك» لعلی بدرخان عام ١٩٧٥، و«زوجة رجل مهم» لمحمد خان عام ١٩٨٨، وغيرها... أي أن المكان يتحول من الرومانسية والبهجة، إلى الغضب والرفض، وقد اعتبرت الجامعة بمثابة بؤرة المدينة، فلا تكاد توجد أسرة في أفلام السينما المصرية، إلا وذهب أحد أبنائها إلى الجامعة، وكان له نصيب من الحكى في المكان. بما يعنى تشابك أماكن المدينة، فالفتاة زينب لها دور فعال في الأماكن التي تتواجد فيها، ابتداء من الكلية، ومدرجاتها، ثم بيتها، والبيوت التي تذهب إليها للرقص بدلاً من أمها، بما يعنى أن الأماكن لا تنعزل عن بعضها في المدينة، ولعل الأماكن هنا تبدو مفتوحة تفتح الذين يعيشون فيها، بمعنى أن المدينة المفتوحة تطل بسماحتها على أماكن، والجامعة هي مرآة المدينة، تتسم بالألوان الزاهية المتعددة، وبحضور دائم للربيع، إذ لا يذكر المرء أن هناك مشهداً واحداً للأمطار تسقط فوق الجامعة، وهي مكان مخصص للشباب من الطلاب، مقابل حضور نادر للبالغين، خاصة من الأساتذة، وإذا كنا قد أشرنا إلى أن طلاب كلية الآداب هم الأكثر حضوراً، فإن طلاب الحقوق يأتون في مرحلة تالية، ثم دارسى الطب..

تلعب وسائل المواصلات في المدينة دوراً لا يقل أهمية عن الجامعة، إن لم يزد، فهي شبكة من المركبات والبشر، البالغة التعقيد، والصيرورة، في حالة حركة دائمة، وتنقل من مكان لآخر، وهذه الوسائل أشبه بالملابس في الأفلام، حيث إنها مؤشر ملحوظ على التاريخ الذي ينتمى إليه، ونحن لا نقصد بهذه الوسائل السيارات بالمرة، بل وسائل النقل العام التي يركبها معظم الناس، من ترام وأتوبيس، وترولى، ومترو، وقطارات الضواحي، وكم من قصص عاطفية دارت داخل هذه المركبات وهي تجوب المدينة، ونحن لم ندخل في إظهارها السيارات الخاصة، باعتبارها وسيلة

خاصة، لكن يمكن أن نضم

«الصل والكلاّب» لكمال الشيخ عام ١٩٦٢، و«شحاتين ونبلأ» لأسماء البكرى عام ١٩٩٠، و«حرامى الورقة» لعلی رضا عام ١٩٧٠، و«غرباء» لسعد عرفة عام ١٩٧٣، بالإضافة إلى الأفلام التاريخية التي اتخذت من القلعة مكاناً رئيسياً لها، خاصة فيلم «وا إسلاماه» لأندرو مارتون عام ١٩٦١..

بدأت القلعة شاهداً على ما يدور في المدينة، أكثر منها مكاناً تدور فيه الأحداث، ففى الكثير من الأفلام التي دارت أحداثها في المنطقة المطلة عليها، فإن القلعة تبدو في الأفق، أو أقرب من ذلك، كأنها تحفظ الأسرار، بعد أن تسمعها من أصحابها..

أما جامعة القاهرة، فكانت ذات مكانة خاصة لقصص الشباب والطلاب أكثر من أى جامعة أخرى في المدينة، ولا شك أن ذلك يرجع لعراقة الجامعة، وللبناء المعماري، المتمثل في الساعة، والقبّة، والباب الحديد، ثم الشارع الممتد أمام باب الجامعة، إلى أن يصل المنظر إلى تمثال نهضة مصر، أو بالعكس، وقد بدا مبنى كلية الآداب، الذي يقع مباشرة إلى جوار الباب الرئيسى، هو الأوفر حظاً في قصص الأفلام التي صورت المكان، وذلك باعتبار أنه الأقدم، والأفضل والأجمل كطراز معمارى، وأيضاً لما ارتبط به طلاب الكلية من انفتاح، وأيضاً لجمال السلم الطويل، وقد تم تصوير الكثير من الأفلام في كافيتريا الكلية، وإذا كانت المدرجات تعبر عن ازدحام الطلاب وعلاقاتهم بالأساتذة، فإن أفلاماً بعينها قامت في فناء الكلية، وعلى رأسها «خلى بالك من زوزو» لحسن الإمام عام ١٩٧٢، و«بنات في الجامعة» لعاطف سالم عام ١٩٧١، و«خلف أسوار الجامعة» لنجدى حافظ عام ١٩٨١، وذلك بصرف النظر عن القيمة الفنية للفيلم..

تبدو المدينة في هذه الأفلام في صورة زاهية متحضرة، فالجامعة ملتقى للشباب في أفضل مراحل حياتهم، جاءوا للتعليم، ويعيشون هناك قصص الحب الأولى، وهناك علاقات رومانسية، أو متشابكة، وهناك أبناء الأغنياء، والفقراء يلتقون في مكان واحد، وهناك قصص حب بين تلميذة وأستاذ مثل «الباب المفتوح» لبركات عام ١٩٦٣، وندراً ما رأينا هذه الأماكن بصورة سيئة، فالعيب ليس في المكان، بقدر ما هو في أشخاص بأعينهم، يصدمون مع المكان وأبنائه، من خلال طموحات لا حدود لها. ورغم أن هناك جامعة واحدة، وعشرات الألواف من

إليها سيارات الأجرة، باعتبارها أيضاً وسيلة نقل عام، أى أن السائق الواحد قد يلتقى فى يومه بالعشرات من الأشخاص الذين يركبون معه..

فالترام القديم له مذاقه الخاص، فمجرد ظهوره يعنى العودة إلى تاريخ بعينه، تلك العربة الواحدة المفتوحة الأبواب، حيث السائق، والمحصل، والناس يصعدون وينزلون، وقد استخدم الترام كأداة للتعبير عن الغضب الاجتماعى حين أشعل المصريون المظاهرات فى فيلم «بين القصرين» لحسن الإمام عام ١٩٦٤، وأيضاً فى فيلم «ملش يا زهر» لبركات عام ١٩٥٠، حيث يعمل سائقاً للترام، يغنى فى بدايته للحب، والترام وقد ظهر هذا الترام فى أفلام عديدة من أبرزها «حياة أو موت» لكمال الشيخ عام ١٩٥٤. فالطفلة التى تذهب لإحضار الدواء لأبيها تتركب الترام دون أن تكون معها الأجرة، فيطردها المحصل من الترام، وتتعرف على صبي فى مثل عمرها يأخذها معه كى يدلها على طريق عودة بديل إلى الدار.. وهناك ترام مشابه فى أفلام كثيرة، لكنها فى مدن أخرى، مثل الترام الذى ركبته الطفل كى يلحق بأسرته، من أجل تدبير مجموعة من الرجال لإنقاذ أخته وصديقتها من براثن «ريا وسكينة» فالأحداث هنا تدور فى الإسكندرية، وفى حى القبارى واللبان بالتحديد..

وكم هى كثيرة، الأفلام التى تدور أحداثها فى الأوتوبيسات، وهى وسيلة نقل جماعية، تكشف المعاناة التى يعيشها البسطاء فى رحلتى الذهاب والعودة يومياً من وإلى العمل، وقد ارتبطت هذه الأوتوبيسات فى المقام الأول بالازدحام والتكدس، واحتكاك الناس ببعضهم البعض، والنشالين وهناك أفلام تتحدث عن الحياة الخاصة للعاملين فى هذه المواصلات التى تجوب أنحاء المدينة، وقد خصص عاطف الطيب فيلمه «سواق الأوتوبيس» ليعبر عن الحياة الأخرى التى يعيشها واحد من الذين نراهم يومياً، وقد كساه الفيلم بأجواء إنسانية ملحوظة. فحسن أبو العلا متزوج من فتاة جامعية، ويعانى من الظروف الاقتصادية الخاصة بأبيه، صاحب الورشة، والغريب أن حسن لم يترك وظيفته من أجل التفرغ للورشة، بل إنه أيضاً سائق تاكسى فى أوقاته الأخرى بعيداً عن مهنته الرسمية، وهناك صداقة، ومودة مع زميله السائق الذى يطلب خطبة أخت حسن، وسط الظروف

الاقتصادية المنهارة، ويبدو السائق هنا إنساناً مثل قرينه فى فيلم «٣ لصوص»، فى أقصوصة «سارق الأوتوبيس» التى أخرجها حسن الإمام عام ١٩٦٦، فإن الأسطى فهمى سائق الشاحنة يحاول العثور على دواء لعلاج زوجته التى أصابته نوبة قلبية، وفى الطريق تتركب أوتوبيساً، لكن السائق يتلصقاً، مما يدفع بفهمى إلى أن يقود الأوتوبيس، وأن يتجه إلى حيث يتم العثور على الدواء، وتقوم الشرطة بمطاردة الأوتوبيس..

وفى فيلم «الناس اللى جوه» لجلال الشرقاوى عام ١٩٦٩، هناك سائق أوتوبيس تزوج بفتاة صغيرة، وحبسها فى منزله وهو لا يستطيع التوافق بين حياته الخاصة والمهنية، كما أن فيلم «الكمساريات الفاتنات» لحسن الصيفى عام ١٩٥٧، يتحدث عن تجربة اجتماعية جديدة، حيث تعمل ثلاث فتيات فى مهنة «الكمسارى»، وهى مهنة تليق بالرجال، ولم يحدث أن مارستها امرأة حتى الآن، فى مصر، وفى الفيلم يدبر الرجال بعض المقلب من أجل إبعاد الفتيات عن المهنة، فيتزوجون منهن، ويطلبون إبقاءهن فى البيوت، وهى وجهة نظر تبنتها السينما والمجتمع بشكل يؤكد نظرية الرجل الشرقى للمرأة..



ومن المواصلات العامة حيث تم تصوير المدينة من الخارج، إلى مصاعدها، حيث يلتقى غرباء بشكل عابر، لكن الكثير من القصص تتولد فى المصاعد، باعتبارها مكاناً مغلقاً، قد يستغله شخص لإقامة علاقة ما، سواء تعطل أم سار. فى نهجه بشكل طبيعى، ونحن نعرف التجربة المهمة لصلاح أبو سيف فى «بين السماء والأرض» عام ١٩٥٩، حيث اجتمع كل هذا العدد المتناقض، والمتنوع من البشر داخل مكان ضيق للغاية، يمثلون المدينة بأغلب طبقاتها، لبعض الوقت، كى يتولد بينهم احتكاك مباشر، لكل منهم ظروفه التى دفعته إلى ركوب المصعد، وقد بدا الاختيار عبثياً للغاية. كما أن جزءاً من أحداث الفيلم يدور فى ملعب الكرة، حيث أشخاص آخرون يلتقون أيضاً لأول مرة تحت سماء المدينة، وهناك أفلام كثيرة، تم فيها التعارف بين رجل وامرأة فى المصاعد مثل «الثلاثة يحبونها» لمحمود ذو الفقار عام ١٩٦٥، و«قص ولزق» لهالة خليل عام ٢٠٠٧..

وقد تعددت الأماكن التى صورتها السينما من ملامح المدينة، ابتداء بالمدارس، والمصانع والشركات، والجسور، والمنتزهات، والمراكز التجارية، بالإضافة إلى ما تتركه المدينة على أبنائها من ملابس..

والعلاقة بين الفيلم والمدينة تبدو أكثر اتساعاً من المدينة نفسها، وذلك بتعدد الأفلام التى يعيش أبطالها بين أروقة المدينة وأحيائها، فإذا توقفنا عند حى بعينه، فإن مصر الجديدة تلقى شغفا ملحوظاً من المخرجين من كافة الأجيال، باتساعها، ورقيقها، ونوع العلاقات فيها، وهى ماثلة دوماً فى عشرات القصص، ومن أبرز من صور شوارعها، وبيوتها كان صلاح أبو سيف، المخرج نفسه الذى تجول فى العديد من أحياء الفقراء، وأيضاً الأغنياء، فإنه صور هوليوبوليس بجمالها، ونقاها فى فيلمه «الوسادة الخالية» عام ١٩٢٧، وهما هو صلاح يتجول فى الشارع الرئيسى لمصر الجديدة، قريباً، من بيت حبيبته سميحة، التى تحاول لفت أنظاره من شرفتها، فتصفر له، وقد عاد المخرج نفسه فى أفلامه التالية «لا أنام» عام ١٩٥٧، و«لا تطفئ الشمس» عام ١٩٦٠..

كما أن مصر الجديدة صارت أجمل مكان للذكريات عند مخرجين معاصرين ففى شوارعها، ومدارسها، وكنائسها عام ١٩٦٨ عاش أبطال فيلم «ضحك ولعب وجد وحب» لطارق التلمسانى عام ١٩٩٠، فأدهم التلميذ الفاشل، يقع فى حب ابنة الليل إيش إيش التى تطل شرفتها مباشرة على فناء المدرسة. ولكل من التلاميذ قصة حب، وطموح، وصراعات، وتبدو مصر الجديدة فى هذه الحقبة نبض للوطن، وصورة حية من ذكريات المخرج نفسه..

كما شغف داود عبد السيد، بهذه المنطقة التى يسكن فيها، وعبر عن هذا الشغف بقوة فى فيلمه «أرض الأحلام» عام ١٩٩٣، وفى بداية الفيلم، فإن نرجس تروى عن الشجيرة الصغيرة التى تم غرسها فى أسفل المنزل الصغير، ومع مرور السنوات، زحفت خضرتها وأوراقها إلى الأدوار والنوافذ، فصارت شاهدة على الذكريات والأشخاص، وقد سجل الفيلم وقائع الحياة فى مصر الجديدة، التى عاشت فيها نرجس، وأسرتها، وبدا المخرج شغوقاً بشدة بعالم الليل فى هذا الجزء الراقى من المدينة، الذى عاد إليه محمد خان عام ٢٠٠٧ فى فيلمه «فى شقة مصر الجديدة» مرة أخرى، وبدت التجربة مختلفة. فالمخرج لم يعيش فى المنطقة

نفسها مثلما فعل داود عبد السيد، كما أن الفتاة نجوى التى جاءت لتبحث عن مدرستها غريبة عن المدينة، تأتى إلى المكان لأول مرة، وقد بدا الحى بالنسبة لها أقرب إلى اليوتوبيا، ففيه سوف تلتقى بالمدرسة التى تأثرت بها كثيراً.. وهى وإن لم تلتق بمدرستها؛ فإنها سوف تقابل شاباً سيصبح بلا شك هو قرينها، أى أن مصر الجديدة بالنسبة لها ستكون الحلم، والذكريات مع أكثر من شخص: المدرسة، والشاب يحيى..

ولعل محمد خان، هو أكثر المخرجين شغفاً بالمدينة، وشوارعها، وأزقتها، وأركانها الصغيرة، وأطلالها، وسطحها، ولم يخل فيلم واحد من أفلام المخرج من غزل واضح ومحبة للمدينة، وقد حرص دوماً على تصوير أفلامه فى «أرجاء» المدينة، وفى الوقت الذى يعانى الكثير من المخرجين فى تصوير المدينة من الخارج، فإن خان استطاع بمهارته أن يتغلب على هذه الصعاب، بدليل أنه لم يتوقف عن تكرار تصوير المدينة من أرجائها، وهناك مكان فى بداية شارع الجلاء، يمر عليه كل من يأتى إلى المدينة، هو عبارة عن ممر ضيق لا يثير انتباهها، صورة محمد خان، فى واحد من أضعف أفلامه، هو «يوم حار جداً» عام ١٩٩٥، تعكس الصورة التى رأينا عليها الممر، كيف أعاد المخرج، والمصورون الذين عملوا معه تشكيل هوية المدينة وإذا كان هذا قد حدث فى واحد من الأفلام الأقل أهمية، فما بال بقية أعمال المخرج الذى جاءت المدينة فى تسمية أفلامه «فارس المدينة» عام ١٩٩٢، وأيضاً أماكنها وأحيائها ومنها «بنات وسط البلد» عام ٢٠٠٥، و«فى شقة مصر الجديدة» ثم «طائر على الطريق» الذى دارت أحداثه بين أكثر من مدينة من الإسكندرية والقاهرة والإسماعيلية، والطرق التى تربط بينها..

وقد تواجدت المدينة دوماً فى أفلام المخرج، من الإسكندرية فى «الرغبة» عام ١٩٨٠، و«دعوة على العشاء»، والقاهرة فى «دائرة الانتقام» عام ١٩٧٧، و«ضربة شمس» عام ١٩٨٠، و«سوبر ماركت» عام ١٩٩٠، «الحريف» عام ١٩٨٤، وجزء من «خرج ولم يعد»، و«زوجة رجل مهم» عام ١٩٨٨، وسوف نتوقف عند علاقة المخرج بالمدينة من خلال فيلم «فى شقة مصر الجديدة». انقسم فيلم «فى شقة مصر الجديدة» فى غالبه إلى قسمين ملحوظين، يدور الأول فى شوارع القاهرة التى يحبها المخرج بطريقة جعلته أفضل من يقدم صورة لهذه الشوارع، مهما كان شكلها



دارت أحداث الفيلم، فى غالبها خارج هذه الشقة، ابتداء من مدينة المنيا، ومحطة قطار القاهرة، وبيت المغتربات، ومدرسة الجيزويت، بالإضافة إلى وسائل المواصلات العديدة التى ركبتهما نجوى



الحقيقى كما تراه أعيننا، أما القسم الثانى، فهو عبارة عن مجموعة من المسرحيات القصيرة ذات الفصل الواحد، تعتمد على حوار طويل ممل، به تطويل ملحوظ، تبدو أننا أمام فيلمين، الأول ينتمى بحذافيره إلى اسم المخرج وأسلوبه المتميز، والثانى ينتمى إلى كاتبة السيناريو وسام سليمان التى تميل إلى عمل مثل هذه الحوارات الأسرية، أو الحميمية بين أبطال أفلامها، ومنها «أحلى الأوقات»..

كما أن الفيلم بدا كأنه يصلح أن يحمل عنوانين، الأول «فى شقة مصر الجديدة»، والثانى وهو الأقرب «خارج شقة مصر الجديدة» فقد دارت أحداث الفيلم، فى غالبها خارج هذه الشقة، ابتداء من مدينة المنيا، ومحطة قطار القاهرة، وبيت المغتربات، ومدرسة الجيزويت، بالإضافة إلى وسائل المواصلات العديدة التى ركبتهما نجوى (غادة عادل)، وشوارع المدينة ومنها شارع رمسيس، وشارع منصور.. وغيرها..

بدأ الفيلم بشكل حيوى ملحوظ، وهو يقدم عالم المدرسة، وعلاقة نجوى بمدرستها وهى طفلة، فالمشاهد سريعة، والموسيقى التصويرية أخاذة، وحية، حيث نستمتع إلى ليلى مراد من خلال محاولة التعرف على تأثير أغنياتها «قلبي دليلى» على جيل بأكمله، لكن، لا بد أن ينتابك الإحساس أن محمد خان حاول أن يستجمع شيئاً ما من فيلمه «زوجة رجل مهم»، ابتداء من اختيار المنيا التى تدور فيها أحداث الجزء الأول من الفيلم، ثم أثر الأغنيات على بنات صغيرات فى المدرسة سوف يكبرن حاملات ذكريات أغنية ليلى مراد التى تعلمها المدرسة تهانى لتلميذاتها، فإذا كانت أغنية «أهواك» هى الأكثر تأثيراً فى حياة بطلة فيلم «زوجة رجل مهم» فإن أغنية «قلبي دليلى» صارت هى الحدث الرئيسى فى الجزء الأول من الفيلم، مما يعنى أن هناك مطربة وأغنية وطفلة تنمو مع الوقت، لتصبح نجوى شابة ناضجة، لم تتوقف قط عن مراسلة أستاذتها التى نقلوها من المدرسة عقاباً لها على تعليمها البنات أغنيات عاطفية..

وليس فى الفيلم زمن محدد، ويمكن أن نحس أن أزمنة متعددة، تداخلت معاً، فلو افترضنا أن الأحداث تدور الآن، فى عام ٢٠٠٦ مثلاً، فإن نجوى التى صارت فى الثلاثين من عمرها، كانت تلميذة فى مدرسة الراهبات بالمنيا عام ١٩٩٠، وهو تاريخ لا أعتقد أن أغنية ليلى مراد كانت بهذا التأثير



أفلام الاتحاد "عباس حاتم" تقدم

بملم الكاتب الكبير

نجيب محفوظ

عزت العلابي

بالاشتراك مع

عماد حمدي

شادية

ذات الوجهين

باللوان الطبيعية

مخرج

هسام الدين مصطفى

مدير التصوير

وديع سرى

مختار محمد وجواد

فيصل ندا

التوزيع الرافى

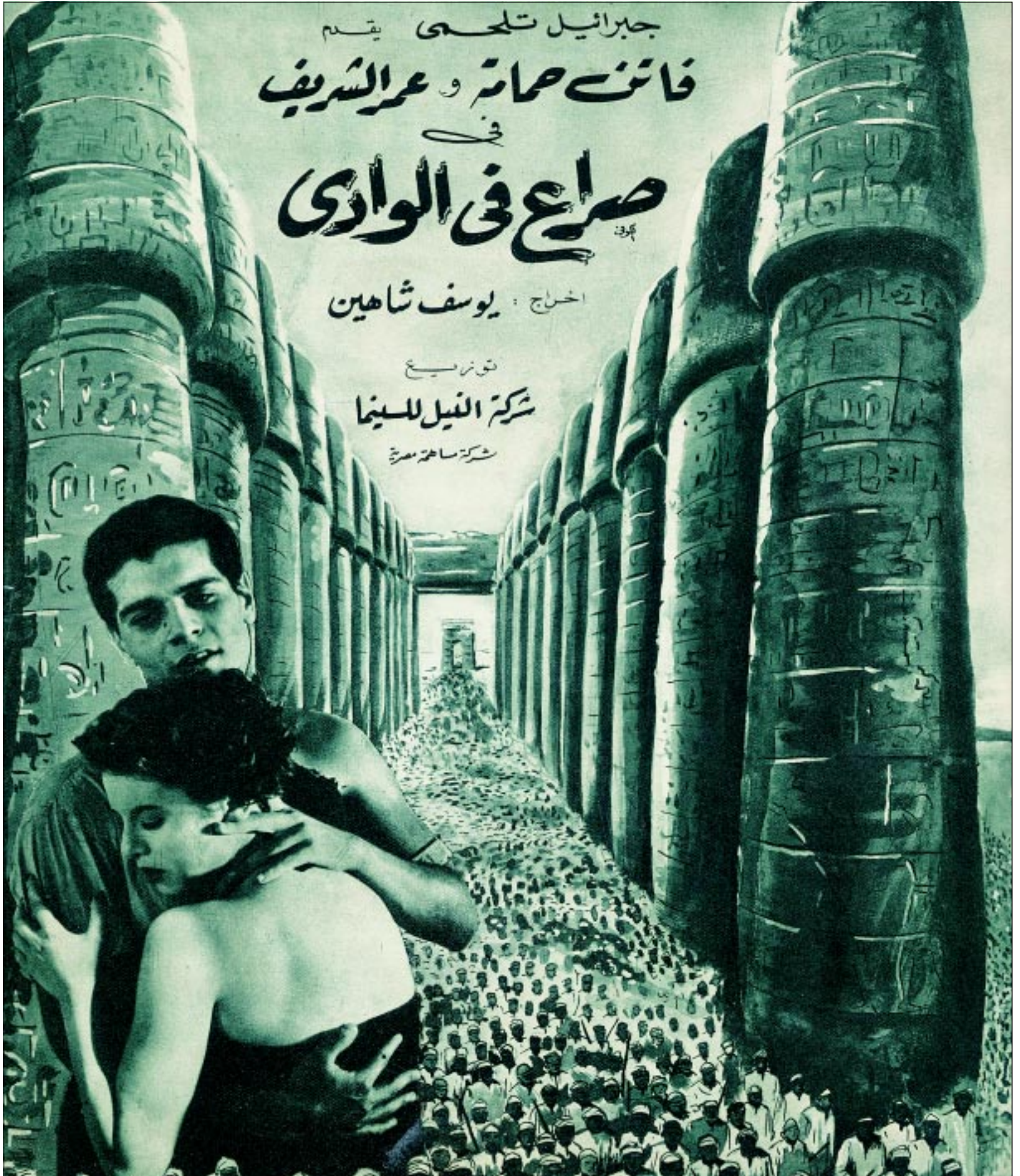
شركة أفلام مصر الجديدة وأفلام الاتحاد ٣٦ شارع زيزي

التوزيع المارمات

أفلام الاتحاد ٤٣ شارع نجاج نصر النيل

ذات الوجهين .. ١٩٧٣

صراع في الوادي .. ١٩٥٤





فى المشاهد الأخيرة أيضاً، بدا كيف أن أبطال الفيلم ينتمون إلى الأفلام القديمة، فلم يفكر أى من الطرفين فى أن يأخذ رقم هاتف الآخر لأى سبب من الأسباب



بيت المغتربات، وهكذا، فقد بدا الجزء الأول من الفيلم براقاً، لامعاً، ثم انطفأت جذوته وسط كل هذه الثثرة، والعلاقات المألوفة، والقصص الروتينية، فالمتفرج يعرف سلفاً، من خلال الحدودية أن قصة حب سوف تنمو فى هذه الفترة القصيرة بين يحيى ونجوى، وأن علاقة الأول بزميلته الحسناء المتحررة داليا سوف تنتهى، مثل الحوار الممل جداً الذى يدور بين نجوى ويحيى فى المصعد الذى توقف فجأة، فصنع ما يشبه الفيلم القصير، أو المسرحية ذات الفصل الواحد، ولعل من شاهد فيلم «الأسانسير» القصير، وما حدث به أثناء عطلة، وما حدث فى مصعد بيت مصر الجديدة، يكتشف الفارق فى حيوية الكتابة والتميز..

أما المغامرة الليلية التى قامت بها نجوى مع يحيى، وذهابه معها إلى مبنى الإذاعة، التى يصير المخرج والفيلم أن لهما تأثيراً حتى الآن فى حياة الناس، فإنها تبدو محاولة جديدة من المخرج للخروج من «حلقة» شقة مصر الجديدة، وفى مكان هادئ تتحدث نجوى عن سبب رفت أبله تهانى من المدرسة، وكيف عرفت الحب وهى فى الرابعة عشرة من عمرها لأول مرة. وأن أغنية «قلبي دليلي»، كانت سبباً فى إظهار هذا الحب، ونكتشف فجأة أن هذه الفتاة الصاعدة الثلاثينية، بدأت تتحدث بجرأة عن مشاعر الحب وهناك فى هذه المشاهد أحاديث بين الطرفين، فى مطاعم، وكازينوهات، يجلس يحيى على طرف، وهى أمامه، وهات يا «رغى»، قد يكون هذا الرغى صورة من الواقع، ومحمد خان لا يحتاج إلى من يخبره الفرق بين أحاديث العشاق حول الموائد فى كازينوهات الواقع، وكيف يمكن لهذه الأحاديث، وما أكثرها، أن تصور فى فيلم يحتفل بالمدينة..

وفى المشاهد الأخيرة أيضاً، بدا كيف أن أبطال الفيلم ينتمون إلى الأفلام القديمة، فلم يفكر أى من الطرفين فى أن يأخذ رقم هاتف الآخر لأى سبب من الأسباب، وقد أدى خالد أبو النجا مشهد النهاية مرتين فى العام نفسه، حيث رأيانه أيضاً يجرى وراء حبيبته، ليلحق بالقطار فى فيلم «لعبة الحب» وها هو يكرر الأمر نفسه فى فيلم «زوجة رجل مهم» إلى زمن عبد الحليم حافظ..

مثلما بدأنا الحديث، فالمدينة واسعة اتساع الأفلام، والسينما تظل تنهل قصصها من المدينة، وتمتلى الصالات بالمشاهدين، من كل الأعمار لتظل السينما دوماً شاهداً: كيف كانت صورة المدينة فى كل الأزمان.. ■



أموح بلا شاطئ.. ١٩٧٦

رتابة، حتى وإن كانت العلاقات مع النساء هى هاجسهم..

وأمام بساطة القصة، فإن الفيلم يحاول إيجاد حوادث أخرى جانبية، مثل نزول نجوى إلى بيت مغتربات، وهناك تلتقى بقصص ونماذج تصنع قصصاً إضافية فى الوقت القصير الذى عليها قضاؤه فى المدينة، مثل رضوى التى تنام فى الغرفة نفسها، والتى تنتحر بتناول أقراص دواء بسبب قصة حب فاشلة، مما يوسع ما يسمى بالزمن الدرامى، وعلى الجانب الآخر، فإن الفيلم يضيف شخصية شقيق صاحب المنزل الذى يسكن به يحيى، والذى يفرد له السيناريو مشاهد طويلة، أقرب إلى الفصل الواحد كى يتحدث عن حبه لتهانى، ويعود الفيلم إلى نجوى كى يضيف قصة أخرى، كى يجعلها تبقى لأطول فترة بالقاهرة، حتى تتبلور مشاعرها العاطفية تجاه يحيى، وهى قصة غير متوقعة، حين يطلب رجل من نجوى أن تبحث عن زوجته فى دورة المياه، وعندما تدخل تكتشف أن الزوجة تلد، ولا أعتقد أن مثل هذا الحادث يمكن أن يؤخر فتاة عن السفر إلى الصعيد، باعتبار أن أناساً كثيرين قد تولوا هذا الأمر، أى أنها لم تكن أحدها، ومن الطبيعى أن تنسحب. لكنها السينما التى يجب أن تكلم لنا هذه القصص، كى تعود إلى بيت المغتربات مرة أخرى، ونشاهد قصصاً إضافية كثيرة..

وقد زاد عدد هذه القصص الجانبية، لدرجة أن شقة مصر الجديدة، قد ابتعدت تماماً عن الأحداث، وهى التى صورها الفيلم على أنها شقة عفارية، أو ما شابه، ومن هذه القصص ما يدور فى

المشاهد نحس أننا نشاهد مسرحيات الفصل الواحد، بشكل متكرر، تعتمد على الحوار الطويل، وعلاقة يحيى بزميلته فى العمل، ونعرف تفاصيل طويلة، مملة، عن هذه العلاقة يمكن اختصارها كثيراً، فهى مطلقة تؤمن أنه «لو تزوجنا، فالأمور التى فيما بينهما سوف تفسد».. فهى تأتيه إلى شقته لقضاء وقت ما ثم تذهب، وفى ديكور الشقة، نرى ديكور للوحة النمساوية الشهيرة «القبلة» دون أن نعرف هل هى تخص أبله تهانى. أم تخص يحيى. فهى ثقافة مصرية مهمة تعكس ذوق صاحبها، خاصة أن يحيى الذى يعمل فى البورصة، ليست له أى اهتمامات فنية، من أى نوع، هو مجرد موظف لا أكثر، يرتكب خطأ، كاد أن يؤثر فى مستقبله المهنى..



لذا، فإنه أمام حيوية دهشة نجوى بوصولها القاهرة ومشاهدتها لبعض معالمها، خاصة عمارة الإيموبيليا التى تسكنها ليلى مراد مع أنور وجدى، فإن المشاهد التى تعبر عن إيقاع حياة يحيى، تبدو رتيبة، رتابة أفكاره، حتى وإن كانت تأتيه عشيقته الفاتنة داليا، لتكسر حدة ملله، وليدور بينهما نقاش طويل، أطول بكثير من علاقتهما فى الفراش. هو محبوس فى هذا المكان، لا يخرج منه إلا للعمل وسوف يستخدم الدراجة البخارية فيما بعد ليخرج إلى المدينة مصاحباً نجوى.. حتى الأماكن التى يذهب إليها هى أماكن مغلقة مثل صالات البلياردو، تدور فيها حوارات أشخاص يعيشون فى

لدى الناس، كما أن الفيلم يدور أيضاً فى العام الذى تم فيه التصوير بدليل أن كاتبة السيناريو لا تعرف أسعار تذاكر الأوتوبيسات، ومن البادى أنها لا تركبها، كما أن السيناريو نفسه قد اعتمد بقوة على مسألة سطوة الراديو، وبرنامج ما يطلبه المستمعون الذى يذيع اسم نجوى، وأستاذتها التى ترسل لها تحية ورداً، فهذا الابن انتهى أكثر إلى الخمسينيات والستينيات، أما الآن. فإن هناك أشياء أخرى كثيرة يسمعونها الناس فى راديوها وكاسيتات سيارات الأجرة. وليس برنامج ما يطلبه المستمعون الذى أذاع بالذات رسالة أبله تهانى إلى تلميذاتها، مما أكد أنها على قيد الحياة..

كما ذكرنا، فنحن أمام فيلمين الأول يدور فى أعماق المدينة، من خلال نجوى التلميذة التى جاءت، فى زمن المحمول، والتى لا تزال تعتمد على المراسلة على طريقة بطلنة رواية «وقائع موت معلن عنه» لماركيز، التى أرسلت لزوجها الذى هجرها عشرات الرسائل التى تم لفها فى «أستيك»، ونجوى هذه التى تنجح فى إصلاح محمول، فإنها لم تسع حتى لأخذ رقم تليفونه إلا فى المشهد الأخير من الفيلم، وهى تحفظه عن ظهر قلب..

نجوى هذه جاءت من المنيا، حيث رأينا النيل، والمدرسة، إلى القاهرة. عبر قطار، ومعها زميلاتها فى المدرسة، تعمل مدرسة، وسوف يقام فى مدرسة الجيزويت حفل غنائى، ونرى تفاصيل الرحلة من خلال القطار، ونزول المجموعة إلى محطة القاهرة لأول مرة، وتبدو الكاميرا هنا مدهشة، وهى ترينا أماكن مألوفة بشكل لم نعتده، ومهما كان اسم المصور، فإننى أعتبرها كاميرا خاصة بالمخرج، الذى صور لنا المنطقة نفسها فى فيلم «يوم حار جداً».. فأحسنا أننا نراها بأعين ليست هى العيون المألوفة فى وجوهنا، وذاكرتنا.. فالكاميرا تبدو منبهرة انبهار نجوى نفسها، وفى هذا المشهد، وصول المجموعة إلى القاهرة، يتأكد لنا أن الفيلم يدور اليوم، بعد أن تم التخلص من تمثال رمسيس. ثم تبدأ رحلة الفتاة داخل المدينة..

وأمام هذه الرحلة فى أدغال القاهرة، رؤية مختلفة، والإيقاع المدهش، الحميمى لتصوير المدينة، فإن السيناريو يحدث تقاطعاً مع الشخصية الرئيسية الأخرى فى الفيلم يحيى (خالد أبو النجا)، لنرى تفاصيل حياته فى شقة مصر الجديدة التى سوف تقصدها نجوى، وفى هذه



العقل العربى . . ومجتمع المعرفة !

إن جوهر الثقافة العربية يتمثل فى قدراتها على الحوار مع الآخر واحتوائه، واستيعاب الوافد وهضمه، والاستفادة من المختلف، والتعامل مع المغاير، هكذا اتسع نسيج الفكر الإسلامى - مثلاً - ليحتوى بداخله فلسفة يونانية ذات عقيدة مختلفة تماماً، إذ ترجمها، وشرحها، واتفق معها تارة، واختلف معها تارة أخرى



زكى سالم

الراهن، لكن الثقافة العربية والإسلامية - عبر تاريخها الطويل - تتميز برحابة الأفق واتساعه، إذ روحها جد متسامحة، وتسعى دائماً إلى الحوار، وتسمح بالخلاف والاختلاف، ولذلك كثرت الفرق الإسلامية، وتعددت المذاهب الفقهية، وبرزت مدارس مختلفة فى علم الكلام، وتباينت الأطروحات الفكرية للشعراء والأدباء، وتنوعت الرؤى الفلسفية بين فيلسوف وآخر، كما تميزت الاتجاهات الفكرية بين ربوع المشرق والمغرب العربى، واعتصم بعض الصوفية بالكتاب والسنة، وتحرر آخرون من كل شئ فتجلى الشطح بلا حدود.



ومن ثم فقد استوقفتنى طويلاً إشارة المؤلف إلى «تيار الغزو الثقافى الجارف». إذ إن هذا الموقف المتوجس من ثقافة الآخر، أو من معتقداته وتقاليد ومعارفه وعلومه يتناقض مع انفتاح مجتمع المعرفة على جميع مناهل العلوم والفنون والآداب، بالإضافة إلى أن جوهر الثقافة العربية يتمثل فى قدراتها على الحوار مع الآخر واحتوائه، واستيعاب الوافد وهضمه، والاستفادة من المختلف، والتعامل مع المغاير، هكذا اتسع نسيج الفكر الإسلامى - مثلاً - ليحتوى بداخله فلسفة يونانية ذات عقيدة مختلفة تماماً، إذ ترجمها، وشرحها، واتفق معها تارة، واختلف

مصمماً لإدراك الظواهر ذات التطور البطيء والمتراكم. وللخروج من هذه الورطة أمامنا بديلان: الأول: تطعيم المخ بمؤازرات إلكترونية، لتقوية مادة المخ (Hardware). والثانى: إنضاج الشق اللامادى، أى العقل، أو شق البرمجيات (Software). وهنا أحب أن أوضح طبيعة اختلافى مع هذا التصور القائم على وجود - ما أسماه المؤلف - فجوة المخ، وفجوة العقل! فنحن، طبقاً للحقائق العلمية، نستخدم نسبة ضئيلة جداً من قدرات عقلنا المعجز، فثمة إمكانات هائلة للعقل لم تستغل بعد الاستغلال الأمثل.

وهذا العقل الجبار لا يُخرج مجمل قدراته، ولا يعبر عن كامل إمكاناته، إلا بعد أن يتم تأهيله من خلال برامج حديثة للتربية الصحيحة، ومناهج متطورة للتعليم الراقى، كما لا بد أن يتمتع العقل البشرى بالاستقلال والحرية، حتى يتاح له التعبير عن قدراته النقدية، وحتى تتفجر ينابيع إبداعه الخلاق.

وقد تحدث المؤلف عن ثلاثية صنع مجتمع المعرفة، متمثلة فى: العقل الإنسانى، والعقل الآلى، والعقل الجمعى. وذكر «أن ثقافتنا تنزع دوماً إلى الإجماع، ولا تستأنس الاختلاف وتضيق ذرعاً بمسائل الخلاف». وهذا يعد صحيحاً بالنسبة لأوضاعنا الحالية، والمتردة على كل المستويات، ومنها بالضرورة وضعنا الفكرى

المعارف والعلوم والفنون والآداب، كما تمكن كذلك من عرضها بطريقة جذابة، ودقيقة، وواضحة لتكون فى متناول القارئ غير المتخصص، أو المثقف العام. وهذه الميزة الكبرى، يقابلها - فى الوقت ذاته - صعوبة تكاد تصل إلى درجة الاستحالة فى دقة التناول، والعرض لكل هذه التفاصيل العلمية الدقيقة فى مختلف التخصصات، ومن ثم فلا بد من وجود بعض الهنات، والتى لم تغب عن ذهن الدكتور نبيل على، وهو يقدم للكتاب، ومن ثم فقد كتب فى المقدمة هذه الكلمات الحكيمة، والمعبرة عن تواضع العلماء: «لا بد أن أقر بأن الدراسة الحالية لا تخرج عن كونها محاولة، وأننى على استعداد تام لإعادة النظر فى جميع ما احتوته من آراء ومواقف باستثناء وحيد هو ما يتعلق باقتناعى الراسخ بأنه لا أمل فى إقامة مجتمع معرفى عربى من دون تكامل إقليمى، ولا سبيل لتحقيق هذا التكامل إلا من خلال مدخل ثقافى معلوماتى ينطلق من اللغة العربية بصفتها البوابة الملكية لتحقيق هذه الغاية».



ثمة تصور - كما جاء بالكتاب - أننا نحمل مخاً لم يصنع لعصرنا، مخاً توقف تطوره البيولوجى منذ ملايين السنين، وقد تكيفت آلياته لكى تكفل البقاء لإنسان الغاب.. أى أنه ليس

■ صدر - فى جزأين - عن سلسلة «عالم المعرفة» كتاب من أهم الكتب التى ظهرت فى السنوات الأخيرة، إذ يتناول مشكلة «العقل العربى» فى مواجهة ظاهرة الانفجار المعرفى، وهل نحن - العرب - نواجه عصرًا جديدًا تماماً بعقل قديم غاية فى القدم؟

والعنوان الكامل للكتاب: «العقل العربى ومجتمع المعرفة - مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول». وهذه الدراسة تحفز عقل المثقف العربى على كسر احتكار المتخصصين فى مجالات معرفية عدة، من خلال الإدراك الواعى للمفاهيم المحورية لعلوم العصر، وهذه المعرفة عبر التخصصية (Inter-disciplinary) هى وسيلتنا الوحيدة لتحقيق التكامل المعرفى، أو مجتمع المعرفة العربى.

وهذا التنوع المعرفى، أو تعدد المجالات العلمية، من علوم طبيعية، وإنسانية، وصورية، ومعارف تكنولوجية، وأجناس الفنون المختلفة، هذا الجمع بينها جميعاً - بفضل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات - يعد أهم مميزات الكتاب، وهو أيضاً - وفى الوقت نفسه - أهم عيوبه! كيف؟

لقد استطاع المؤلف - بجهد يحتاج إلى مؤسسة علمية - أن يلهم بكل هذه

العقل العربى ومجتمع المعرفة، مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول (جزآن)

د . نبيل على

عالم المعرفة - الكويت ٢٠٠٩





توصيف وتفسير العمليات الذهنية الباطنية التي تمر بها المثيرات المدركة وصولاً إلى توليد الاستجابة لها لدى المتلقى. ويعرف هذا بالإدراك المعرفي (Cognition).

وإذا نظرنا إلى عملية اكتساب الأطفال للغتهم الأم - بناء على نظرية ناعوم تشومسكي - نجدها تتم بطريقة تلقائية طبيعية، فاللغة - غريزة - تنمو في عقولنا، والعضو اللغوي ينمو في الطفل كما تنمو بقية الأعضاء. وثمة مبادئ عامة مشتركة بين جميع اللغات، تشكل ما يعرف بالنحو العام (Universal grammar).

وقد أشار الدكتور نبيل إلى «اقتصاد الانتباه»، فالانتباه سلعة نادرة، وقدرة الإنسان على تلقي المدركات الحسية محدودة بقيود فسيولوجيا الجهاز العصبي، وثراء المعلومات الحالي يقابله فقر في الانتباه! ويبدو أثر ذلك في ظاهرة «التلوث الرقمي» بسبب قمامة البريد الإلكتروني، ونفايات سيل الإعلانات والنشرات التي تقذفنا بها مواقع الإنترنت، بالإضافة إلى ضوضاء الويب، ويقصد بها إفراط محركات البحث الحالية في إمطار طالب البحث بفيض هائل من النتائج يتضح أن معظمه لا يهم الباحث.

ومشكلة حمل المعلومات الزائد تتفاقم حدته بفعل زيادة قدرة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على توليد المعلومات بمعدلات متصاعدة، فسرعة الكمبيوتر تتضاعف كل ١٨ شهراً، وسعة تخزين المعلومات كل ٩ أشهر، وسرعة تبادلها كل ٦ أشهر، وفي كل يوم ينضم مائة ألف عضو جديد إلى نادي الإنترنت، ويضاف إليها مليون صفحة جديدة، بالإضافة إلى ما يعرف بمستودعات البيانات (Data warehouses) إنه ماموت معلوماتي هائل الضخامة. فقد قامت الإنترنت على فكرة محورية هي «التشعب النصي» بمعنى أن كل وثيقة يمكن أن تحيل إلى وثائق أخرى من خلال حلقات الربط التشعبي.

وهذا كله يعيدنا إلى أهمية العمل على ترشيح هذا الطوفان الهائل من المعلومات المتنامية، وجمعها معاً بالمعارف عبر التخصصية، أي التكامل

إذ إن سلوك هذه العناصر المتناهية الصغر لا يمكن ملاحظته، وكثيراً ما يتنافى مع الحس الطبيعي الدارج. فثمة عشوائية في حركة الجسيمات المتناهية الصغر التي لا يمكن تحديد موضعها وسرعتها بصورة قاطعة مهما كانت دقة وسائلنا في قياسهما، إنه لا يقين كامن في عمق المادة المغمزة. وقد نجحت فيزياء الكوانتم في التنبؤ بوجود المادة المضادة (Anti-matter)، وفي فهم النشاط الإشعاعي الذي قاد إلى الطاقة النووية. أما البيولوجية الجزيئية فتدرس البنية الداخلية الدقيقة للأعضاء الحيوية، والآليات التي تحكم نموها وضمورها، وذلك على المستوى الجزيئي. وقد أحدثت البيولوجية الجزيئية ثورة في دراسة الكائنات الحية باكتشافها الحلزون المزدوج (Double helix)، وحدة بناء جزيء الوراثة، واكتشاف لغة الجينات التي يصاغ بها السرد الوراثي أو الجينوم.

ويؤكد المؤلف على دور تكنولوجيا المعلومات في نزوع المعرفة الإنسانية إلى التكامل المعرفي، والتجانس الإستمولوجي، من خلال تبادل المناهج والوسائل والتأزر التلقائي في حل الإشكاليات.

ويركز المؤلف على علمين أساسيين من علوم المعرفة، وهما: علم اجتماع المعرفة، وعلم نفس المعرفة. ويتناول علم اجتماع المعرفة العلاقة التبادلية بين المعرفة والمجتمع، وأى منهما له الأولوية على الآخر. فالمعرفة التربوية مسألة اجتماعية وسياسية، وليست مسألة فنية وموضوعية فقط. وفي عصر المعلومات لابد من إتاحة فرص التعلم المستمر مدى الحياة. أما علم نفس المعرفة، فيسعى إلى

على أن تؤول بين ما كان يبدو متناقضاً فيما مضى.

ولذلك يطرح مؤلفنا سؤالاً مهماً: هل سيفلح عقل الإنسان في أن يرشح ذلك الكم الهائل من المعلومات، مستخلصاً منه المعرفة الكامنة في جوفه، وأن يقطر هذه المعرفة، ويسمو بها إلى مستوى الحكمة، التي تعينه على حل مشكلاته وترشيد قراراته؟



يرى ميشيل فوكو أن واجب الفلسفة الأساسي هو تشخيص الحاضر، ورؤية الماضي من منظور الحاضر. ويمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات أن تنقل إلينا نبض هذا الحاضر، كما يمكنها أيضاً أن تكون من أنجع أدوات تغييره، إذ إن تغيير العالم هو الهدف الأهم للفكر الفلسفي من وجهة نظر كارل ماركس، وما زال عالمنا في حاجة ملحة إلى التغيير.

وقد وفرت تكنولوجيا المعلومات، لأول مرة، معملاً تجريبياً لنظرية المعرفة، ووفرت تكنولوجيا الواقع الخائلي (Virtual Reality) بيئة تسمح باختبار الأطروحات الفلسفية، أو الأدبية، أو الفنية، أو غيرها.

وقد توقف الدكتور نبيل عند ما شهده القرن العشرون من فلسفتين قائمتين على العلم، وتعدان ثورتين معرفيتين، الأولى في فيزياء الكوانتم، والأخرى في البيولوجيا الجزيئية. وفيزياء الكوانتم تدرس طبيعة المادة والطاقة على مستوى العناصر الذرية الأولية مثل الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات والجسيمات دون الذرية مثل الكواركات.

معها تارة أخرى. فالحضارة العربية - حين تألقها - عرفت كيف تتعامل مع الثقافات الأخرى، وكيف تستفيد من علوم الآخر ومعارفه، ولعل أعظم ما يعبر عن جوهر الحضارة العربية والثقافة الإسلامية، هي تلك المواقف الخالدة التي كانت تبادل فيها الكتب بالأسرى، وحين كانت تزن ترجمتها بالذهب.

يرى الفيلسوف جون لوك أن العقل الإنساني سيظل ينشد المزيد من المعرفة دون أن يبلغ في ذلك غايته النهائية. ويشبه كارل بوبر إنتاج المعرفة بحلقات تتوالى إذ تبدأ من البحث عن حل مشكلة، وتنتهي بظهور مشكلة أو مشاكل أخرى، ولا تكمن الخطورة - كما قال مارك توين - فيما لا نعرف، بل فيما نعتقد أننا نعرفه حق المعرفة، ومن ثم فلا بد من العمل المستمر على تضيق أفكارنا، وتنقيح علومنا، وتصويب معارفنا.

وقد تصور إديسون أن اختراعه للجرامفون، سوف يحل مشكلة التعليم، بعدما توافرت أداة لتسجيل المعلومات، ثم جاء من بعده تيم لوى لى - عالم نظم المعلومات الفرنسي - وأقام شبكة للمعلومات العنكبوتية الكونية، وظن أنها سوف توفر المعرفة، وتشيعها بين الناس، وتشجع الجميع على أن يشاركوا في إنتاجها واستغلالها. لكن أجيال الإنترنت - الآن - تواجه مفارقة الطوفان المعلوماتي، والجذب المعرفي!

ولقد تنبه مفكرو نظم التعليم إلى أن قلة المعلومات أفضل من كثرتها (Less is more) فيركزون في تقديم المادة التعليمية على المفاهيم الأساسية، والأفكار المحورية. إذ كانت المشكلة فيما مضى هي ندرة المعلومات (Under-information)، أما الآن فالمشكلة هي إفراط المعلومات (Over-information) أو حمل المعلومات الزائدة (Information overload).

فقد تضيق الحكمة في خضم المعرفة، على حد تعبير تي. إس. إلبوت، كما يمكن للمعرفة أن تضيق في خضم المعلومات، إذ إن المعرفة في جوهرها ذات طابع جدلي، وهذا ما أبرزته بوضوح تكنولوجيا المعلومات، حيث أثبتت عملياً أنه كلما ارتقت التكنولوجيا زادت قدرتها

تضييع الحكمة في خضم المعرفة،

على حد تعبير تي. إس. إلبوت، كما يمكن للمعرفة

أن تضيق في خضم المعلومات





طرح الأسئلة المستترة المغرضة (Loaded questions): استخدام أسئلة تنطوى على وجهة نظر سلبية. خلل التعليل الخاطئ (False causation): فإذا وقعت حادثة قبل أخرى، نستنتج خطأ أن الأولى سبب الثانية.

التعميم المجازف المتسرع (Hasty generalization): التسرع في إقامة مزاعم من دون كفاية من الشواهد والأدلة.

الحكم المقولب (Stereotyping): هو وصف يصم جماعة معينة بصفات تتسم بالتعميم والمجازفة.

التعميم الكاسح (Sweeping generalization): إصدار أحكام مطلقة من دون كفاية من الشواهد والأدلة.

المنحدر الزلق (Slippery slope): توقع سلسلة متعاقبة من الأحداث، غالباً ما تنتهي بنتيجة كارثية إذا لم يتخذ الأمر المقترح في حينه.

تراكم الفروق الصغيرة (Accumulation of minor differences): حين تُسرد حالات عدة، بينها فروق صغيرة، بيد أن تراكمها يمثل فرقا له وزنه بالنسبة إلى الأمر المطروح.

التناظر الخاطئ أو الضعيف (Wrong or weak analogy): عقد تناظر بين أمرين أو أكثر، متناظرين في جوانب عدة، دون أن تشمل أموراً يجب أخذها في الاعتبار.

عدم اتساق النتائج مع المقدمات (Disambiguation): غياب الرابط المنطقي بين المقدمات والنتائج.

التناقض الذاتى (Self Contradiction): طرح مقدمتين لا يمكن أن تكونا صحيحتين في آن واحد. التبسيط الزائد (Over simplification): اختزال العلاقة بين العلة والأثر.

خلل مادام الكثير فمن ثم أى حالة أخرى (If many then any fallacy): إذا كانت هناك خاصية تتوافر في كثير من الحالات، فهي متوفرة في أى حالة أخرى.

التقاط التوافه (Quibbling): بتصيد الأخطاء الصغيرة في وجهة نظر الآخر، والتي لا تؤثر في صواب ما طرح.

٤٧ وجهات نظر

لفرض القبول بفكرة أو موقف معين من دون توافر ما يبرره.

اللجوء إلى السلطة (Appeal to authority): بالإحالة إلى سلطة موثوق بها كالعلماء والخبراء، أو إلى مصادر من ذوى السلطات من دون تقديم ما يبرر الارتكان إليها.

اللجوء إلى الجهل (Appeal to ignorance): عند الحكم بصحة زعم ما لعدم توافر ما يقوضه، أو العكس عند الحكم بخطأ زعم ما لعدم توافر ما يدعمه.

اللجوء إلى الشفقة (Appeal to pity): استخدام الاستعطاف بالإشارة إلى أمور أو مواقف منقطعة الصلة بالمسألة المطروحة.

اللجوء إلى الناس (Appeal to people): الإشارة إلى ما يتفق عليه معظم الناس كدليل على صحته القاطعة.

اللاحق بالركب (Bandwagoning): الدعوة بقبول الأمر حتى يحذو حذو من سبقوه من ذوى المكانة والرأى السديد.

إضعاف الخصم افتعالاً (Straw man): إضعاف الخصم حتى تسهل هزيمته بتشويه رأيه، وعدم الأمانة في عرض موقفه.

التحايل بالتشتيت (Red herring): بإقحام المتلقى في أمور جانبية لا تمت بصلة للمسألة قيد البحث.

المصادرة على المطلوب (Begging the question): جعل المقدمات تفترض صحة نتائجها.

خلل بدليين لا ثالث لهما (Either/or fallacy): بافتراض بدليين لا ثالث لهما، أحدهما صائب والآخر خاطئ، وفي هذا تبسيط مخل يلغى المناطق الرمادية في عصر نهاية الأضداد.

صحيحة ومكتملة عن الواقع، وقد كتب على الإنسان أن يرى واقعه دوماً من خلال عدسة مشوهة. وهذا - فيما أرى - لا ينطبق على كل البشر، ولا في جميع أحوالهم، ولا في كل الأوقات، ومن ثم فهذا التعميم لا يتسم بالدقة، إذ لم يكتب الضلال على بنى البشر جميعاً، فثمة من وهب عقلاً سليماً، وبصراً صحيحاً، وبصيرة نقية أيضاً.

وهذا يقودنا إلى أهمية دراسة مهارات التفكير عموماً، والتفكير النقدي بصفة خاصة. ولنتوقف هنا عند قول المؤلف: لا يوجد في أى من جامعاتنا مقرر واحد للتفكير النقدي! في حين أن مقرراً واحداً لتدريس التفكير النقدي لأجدي نفعاً من أربع سنوات من التعليم الجامعي، ولن تثمر جهود إصلاح التعليم من دون أن تتمحور حول تنمية مهارات التفكير. ولنتأمل في حكمة كونفوشيوس التي تقول: «إن تعليماً بلا تفكير جهد ضائع، وتفكيراً بلا تعليم أمر محضوف بأشد المخاطر».

ونظراً لكثرة أخطاء التفكير، وسهولة الوقوع فيها، قدم الدكتور نبيل قائمة بلعل التفكير وآفاته: الهجوم الشخصي Ad hominem: مهاجمة الشخص لا تفنيد ما يدعيه، والتشكيك في دوافعه ونواياه والتنديد بأفعاله وعلاقاته.

برهنة الصواب بخطأ مزدوج Two wrongs a right: تبرير الخطأ بخطأ مكافئ أو يفوقه إثماً.

اللجوء إلى الخوف (peal to fear): استخدام سلاح التخويف والتهديد

المعرفى، بحيث تشكل رؤية شاملة للتعامل مع مشاكل عالمنا العربى.

«نظرية الرجل العظيم» أو العبقري الفرد الذى يخرج علينا، من معمله أو مكتبته، بفكرة فذة يتغير على أثرها العالم فجأة بين عشية وضحاها، وتتم إزاحة الباراديم (Paradigmatic shift) إذ يستيقظ المتخصصون ليجدوا أنفسهم يعملون في إطار فكري مغاير تماماً، ويكاد يعلن القطيعة المعرفية مع ما قبله، كما في حالة أينشتاين وغيره. هذا التصور الفردي للإنجازات العلمية، لم يعد له وجود، إذ إن البحث العلمى يقوم الآن على مجموعات من العلماء والتكنولوجيين. وهذا يتيح تداخل التخصصات المعرفية وتعددتها.

(Inter & multi - disciplinary) فظهرت فروع علمية ببنية بين فرعين معرفيين، وأخرى ما فوق تخصصية، قادرة على اختراق الحواجز الفاصلة بين فروع العلوم والفنون، ويمكن وصفها بالعلوم الميتامعرفية (Metacognitive).

ولا أحد ينكر أهمية التخصص، فلولا ما أنجز العلم كل ما أنجزه، لكن الأمر لم يعد يتحمل المضى في مسارات التخصص المتشعبة، والتي تزداد ضيقاً يوماً بعد يوم، من دون وقفة يبحث فيها العلم عن موقف وسط يوازن بين عمق التخصص رأسياً، وشمولية النظرة أفقياً. وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات تؤدي دوراً أساسياً في الربط بين التخصصات المختلفة.

ويقول المؤلف: «العقل ولا شيء سواه هو الذى يشكل رؤيتنا، ويولد رغباتنا، ويتحكم في مواقفنا وسلوكنا». وهذا يخالف ما نراه في سلوك الغالبية العظمى من البشر. إذ مواقفهم تؤكد لنا أنها لا تنبع - فقط - من العقل. فرغباتهم تنبع أساساً من غرائزهم، ومواقفهم كثيراً ما تتغير - في الأعم الأغلب - طبقاً لمصالحهم الشخصية، أما سلوكهم فيتوقف على أمور عدة، ومن بينها - بالتأكيد - العقل، ولكن دوره قد يتراجع بالمقارنة مع دور الغرائز أو الانفعالات النفسية.

ثم يقول المؤلف إن عقل الإنسان ليس مصمماً أصلاً لكي يعطينا صورة



النصف الأيمن إلى حد أن اعتبره البعض من بقايا حضارات غابرة، ورواسب لوظائف ذهنية تم الارتقاء بها، وفي ثلاثينيات القرن الماضي أثبت العالم الفرنسي بول بروكا أن النصف الأيسر يتضمن مركز التحكم في اللغة، ومن ثم يمنح البشر أهم سمات تميزهم.

إلى أن جاء روجرز سيري - الحائز على جائزة نوبل في الطب - وأكد على أهمية النصف الأيمن بصورة كادت تفوق نظيره الأيسر، فهو يعتمد على الحدس بصورة أساسية، ومن ثم فهو القادر على عقد المقارنات، واستخلاص النتائج، وإحداث المفاجآت، وهذا ما عرف بـ «ثورة النصف الأيمن»، الذي يستوعب الشعر، ويدرك ظلال المعاني، ويستخلص المغزى من صخب الألفاظ وشواش التفاصيل. ومن ثم فعلى المسئولين عن التعليم في بلادنا أن يسعوا إلى تحقيق نوع من التكامل بين نصفي المخ، من خلال تنمية القدرات المعرفية لكل جانب من جانبي المخ البشري.

وعند الحديث عن العقل الجمعي، تعرض الدكتور نبيل لدور التليفزيون في مجتمعاتنا العربية، وكيف أسأنا استخدامه، وعجزنا عن إنتاج محتوى تليفزيوني مفيد يملأ قنوات فضائياته، وأضحينا ضحية لما نستورده من إنتاج تلفزيوني. وهنا لابد من الإشارة إلى أمر مهم أغفله المؤلف، وهو دور الحكومات الديكتاتورية في التضليل الإعلامي لشعوبها من ناحية، وجهدها المتواصل في تسطيح العقل الجمعي من ناحية أخرى.

وكلما ارتقت التكنولوجيا عظم نفعا لو أحسن استخدامها، وعظمت أضرارها لو أسأنا ذلك، ويبدو هذا بوضوح عند النظر إلى إمكانات الإنترنت، وقدرتها على البث على نطاق عريض (Broad casting)، والبث الضيق (Narrow casting)، والبث المصوب (Point casting).

وإذا نظرنا إلى أنواع التواصل الجاد عبر الإنترنت، سنرى أن مشاركة العرب محدودة للغاية، مع ضعف واضح في مهارات التواصل، مما يؤثر على صنع عقل جمعي قادر على أن يتعايش، أو يتحاور مع عقول جمعية أخرى.

العقول الإنسانية يؤازره احتشاد العقول الآلية.

فثمة ثنائية للذكاء والذاكرة، ولكل عقل من العقول الثلاثة ذكاؤه وذاكرته. وثمة ثنائية المادى واللامادى، والتي تنطبق أيضا على العقول الثلاثة، وتتمثل بالنسبة للعقل الإنساني في ثنائية المخ والعقل، التي تناظرها بالنسبة للعقل الآلى ثنائية العتاد (Hardware) والبرمجيات (Software)، وللعقل الجمعي ثنائية الاتصالات والتواصل، حيث تمثل الاتصالات الشق المادى المكون من شبكة الاتصالات السلكية واللاسلكية، أما الشق اللامادى فيمثل التواصل، ويقصد به الحوار المباشر بين الوثائق الإلكترونية، والتفاعل بين الأفكار وأصحابها.

والذكاء - بوجه عام - هو القدرة على التعامل مع المعلومات والمعارف من أجل ترشيد الآراء، وحل المشكلات، والتكيف مع الجارى والطارئ، والذكاء العاطفى هو القدرة على فهم انفعالاتنا وانفعالات الآخرين، أما ذكاء السلوك فهو أداة الإنسان للتكيف مع محيطه الاجتماعى، والتوفيق بين توقعاته وحقائق واقعه، وتحمل مسئولية أقواله وأفعاله.

وثمة مراكز فى المخ تتحكم فى جميع وظائف الجسم، وقد حددت مواضع هذه المراكز على نصفي المخ الأيمن والأيسر. ويمكن القول أن النصف الأيسر عقلانى تحليلى حرفى يتعامل مع الجزئيات، وعلى العكس النصف الأيمن غرائزى يتعامل مع الكليات، ويعمل بصورة أكثر تحررا. وقد اعتبر النصف الأيسر - حتى وقت قريب - هو صانع الحضارة الإنسانية، وهمش

غير تقليدية من جهة، ومعرفة عبر تخصصية تتجاوز النظرة الضيقة للتخصص الدقيق من جهة أخرى.

وقد ظهر من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ما يعرف «بالنص التشعبى»

(Hypertext) وتمثل شبكة الإنترنت أوسع تطبيق له، من خلال الربط بين مواقع الشبكة وما تحتويه من وثائق إلكترونية. فالنص التشعبى يسمح للقارئ بأن ينفذ إلى النص من مداخل مختلفة بفضل الطابع الشبكي الذى لا يعرف بداية ولا نهاية. مما يعضد من قدرة العقل على إدراك الواقع المعقد بصورة أدق وأوضح، وهنا يأتى دور المبدع ذى البصيرة النافذة القادرة على اختراق حجب هذه العتمة المعلوماتية.



ويرى المؤلف أن تكنولوجيا النص التشعبى لابد أن تكون لها انعكاساتها على منظومة الثقافة، فى أصعدة المعرفة والأدب واللغة والسياسة، ونشر قيم الديمقراطية وتعميقها. كما أن اتساع نطاق البحث والتفرع الذى يوفره النص التشعبى، سيكون له دور فى دعم حوار الثقافات وتلاحقها، فالنصوص لن تتناص مع نصوص ثقافتها فقط، بل سيمتد تناصها إلى نصوص الثقافات الأخرى.

ويعرض المؤلف، من خلال رؤية معلوماتية، إطارا عاما لثنائية العقول التى تتضمن العقل الإنسانى، والعقل الآلى، والعقل الجمعي وليد احتشاد

خلل تكديس المسائل (Stacking): بالسؤال عن أشياء مختلفة فى سؤال واحد يفترض أن له جوابا واحدا.

خطأ النظرة الانتقائية (Selective perception): أو التفكير بالتمنى (Wishful thinking) فينتقى كل ما هو ملائم لغايته، ويتغاضى عن كل ما لا يتفق معها.

خلل كونه لا واقعيا (Virtually fallacy): مادام الأمر افتراضيا، فلا ضرر متوقعا يمكن أن ينتج عنه.

إساءة استخدام اللغة: فاللغة لا يمكن أن تتطابق مع الواقع، ونظرا لمرورها الهائلة، فهي قابلة لإساءة الاستخدام، سواء بافتعال الغموض (Obfuscation)، أو التلطيف اللغوى (Euphemism) باستخدام تعبير محل آخر، أو التغليف اللغوى بغرض التهويل، أو استغلال لبس الكلمات (Equivocation) فمعظم الألفاظ تحتمل أكثر من معنى، أو التكلف فى استخدام الاستعارة، أو ادعاء الأهمية.

ولنتذكر هنا قول جورج أورويل: «لا شيء أفسد اللغة قدر ما أفسدتها السياسة». وهذا أيضا ما تقوم به كثير من أجهزة الإعلام الحكومية، والخاصة، العربية، وغير العربية، فكثيرا ما تفسد اللغة، حين تسعى لتضليل الناس بالكلمة والصورة، وكذلك كل ما يعرض - من كم هائل من المعلومات والمعارف والأفكار والأخبار - على شبكة المعلومات الدولية، إذ يحتوى على الغث والسمين، الصادق والكاذب، الحقيقى والمزيف، ومن ثم تبرز أهمية العقل النقدى القادر على فحص كل ما يقدم إليه بدقة، ونقده، وتفنيده، وتمحيصه لاستخلاص جوهر الحقيقة من بين أكوام هائلة من أنصاف الحقائق، أو الأكاذيب!

وإذا كان التفكير النقدى يعد جناحا للعقل المحلق فى سماوات العلم والمعرفة، فالجناح الآخر هو التفكير الاخلاقى القائم على تجاوز الواقع، والخروج من اطر التفكير التقليدية، بالمغامرة المدروسة، والإبداع المنهجى. ومشاكلنا الراهنة على درجة شديدة من التعقيد والتشابك، مما يستلزم لحلها أفكارا ثورية خلاقة



كلما ارتقت التكنولوجيا

عظم نفعا لو أحسن استخدامها، وعظمت

أضرارها لو أسأنا ذلك





كتاب الزاوية



حسان بن ثابت

المدائح النبوية

إن الذوائب من فخر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة
إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
ولا يضمنون على مولى بفضلهم
ولا يصيبهم فى مطمع طبع
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم
فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت فى الوحي عفتهم
لا يطبعون ولا يرديهم الطمع^(١)

(١) لا يطبعون: من الطبع بالتحريك، وهو دنس الأخلاق.

إلا أن المدونات التى انتشرت بسرعة فى مجتمعاتنا العربية، قد أظهرت - فى الوقت ذاته - ظمأ شديدا يديه الجميع لحرية التعبير، والرغبة فى المشاركة، تعويضا عن مشاركة سياسية متعذرة أو محظورة، كما أظهرت المدونات مدى حدة التنوع الثقافى الفردى، حتى ما بين أفراد الجماعة الواحدة.

وكما يقول المؤلف فمجتمع المعرفة من أجل الجميع، ومن صنع الجميع، وهو مجتمع التفرد لا الانفراد، وألفة الصفوة مع العامة، والتجمع مع التنوع، والوفاق مع قبول الاختلاف.



وينظر الدكتور نبيل إلى اللغة باعتبارها نهجا معرفيا عاما يمكن تطبيقه فى مجالات معرفية مختلفة، وقد طبق هذا النهج على التنظير للأدب بصفته نموذجا لدور اللغة فى التأسيس النظرى فى مجال علوم الإنسانيات. فالأدب ممارسة لغوية فى المقام الأول، إذ إن اللغة أداة للعلم، أما الأدب فقابع بكليته فى مملكة اللغة. وبينما يتطلب العلم لغة منضبطة، يفجر الأدب اللغة من داخلها.

ويغفل البعض عن حقيقة أن اللغة غير شفافة على الإطلاق، فهى زائغة، ومحملة بالأيديولوجيا، مما يجعلها قادرة على الكشف عن مشاعرنا وأفكارنا، وقادرة فى الوقت ذاته على إخفاء حقيقة المشاعر والأفكار! إذ إن اللبس، والغموض، وعدم التحديد خصائص أصيلة فى منظومة اللغة.

ومع ذلك تبقى الكتابة هى الأداة المثلى لصياغة الأفكار وتحليلها، وهنا يقول المؤلف: «تكمّن روعة الأدب فى قدرة بلاغته على خلق التوتر من خلال اللجوء إلى أشكال الحيود تحايلا على قيود النحو وتجاوزا لمعنى المعجم». ثم يقول فى موضع آخر: «تكمّن روعة الأدب فى استغلال العلاقة السلبية التى تربط البلاغة مع ما دونها من مستويات اللغة». والحقيقة - فيما أرى - أن روعة الأدب وعظمته لا يمكن حصرها فى وجود عنصر ما، كما لا يمكن تشبيتها فى مجموعة من

العناصر مهما كانت مهمة، وكأنما من يلتزم بتحقيق هذه العناصر أو الشروط، يمكنه أن ينتج أدبا خالدا أو عظيما! إذ إن الأدب فى جوهره هو تعبير صادق، ورائع عن تجربة إنسانية حقيقية، مع خيال خلاق، وبصيرة ثاقبة، ومن ثم لا يمكن أبدا أن نحدد مجموعة من العناصر، أو الشروط إذا تحققت تجلت بسببها روعة الأدب وعظمته.

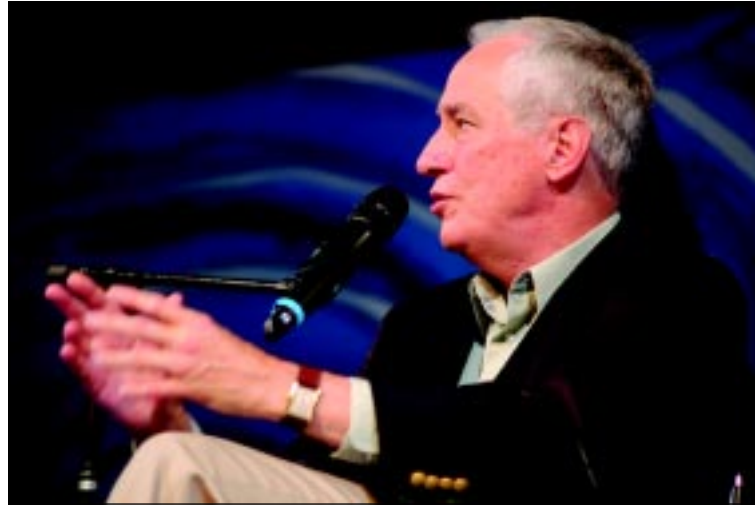
والعالم الذى ندركه فى أذهاننا، يمكننا أن نتمثله كعالم من العلامات، فالعلامة وسيط مهم للتواصل، وقد جاء فى القرآن الكريم: «علامات وبالنجم هم يهتدون» (سورة النحل - آية ١٦). وحين ظهر علم السيميوطيقا (Semiotics) على يد فرديناند دي - سوسير، ركز على وظيفة العلامة لا ماهيتها. فالسيميوطيقا تصبو إلى تمثيل العالم بصورة أدق، ووضع خارطة له تتسم بالوضوح، ومداومة التجدد، دون أن تختزل تعقد الواقع، ودون افتراض أوضاع مثالية (Idealization). وغاية السيميوطيقا أن تجعل رؤيتنا للواقع أكثر صفاء وعمقا من دون اختزال أو تحريف.

وهذا يعيدنا إلى أزمة لغتنا العربية من حيث تعليمها وتعلمها: منهجا، ومعلما، ومتعلما. فعلاقة لغتنا بتنمية القدرات الذهنية والإبداعية، مهمة تماما! برغم ما حققه فكرنا العربى التكنولوجى من إنجازات فى مجال معالجة اللغة العربية حاسوبيا على مستوى الحرف والكلمة والجملة، مع تطوير نظم آلية للصرف العربى، والنحو العربى أدت إلى تطوير نظم لتشكيل النصوص العربية تلقائيا.

ويختم الدكتور نبيل كتابه بالتأكيد على أهمية مشروعه الفكرى، فلا مجتمع معرفة عربيا من دون تكتل عربى على أساس ثقافى يتخذ من اللغة العربية منطلقا محوريا له. فاللغة بأدواتها وإشكالياتها وفنونها: أدبا وشعرا، هى وسيلتنا لإصلاح عقولنا: إنسانية وآلية وجمعية، وتنمية تفكيرنا: نقديا وإبداعيا، ولزيادة إسهامنا فى إنتاج المعرفة: فلسفة وعلمنا وفنا وتكنولوجيا. ■

المكتبة البديل!

روبرت دارنتون
Robert Darnton



■ ■ الهدف من هذا اللقاء هو مناقشة قضية في غاية الأهمية بالنسبة للحياة الثقافية في بلادنا: هل باستطاعتنا تكوين مكتبة رقمية وطنية؟ بمعنى مكتبة شاملة للمكتب المخزنة رقمياً يمكن للعموم الجمهور الوصول إليها بسهولة. بخلاف ما يبدو عليه السؤال من بساطة، فإنه معقد بصورة استثنائية. وهو ينطوي على قضايا تتعلق بطبيعة المكتبة التي نحن بصدد تكوينها والصعوبات التقنية لتصميمها والعقبات القانونية للمشروع فيها والكلفة المالية لإنشائها وصيانتها والمشاكل السياسية لحشد التأييد لها. رغم تلك التعقيدات، فإن فكرة مكتبة رقمية وطنية هي - مثل جوهرها - فكرة صادقة تماماً. سوف تجعل تلك المكتبة الإرث الثقافي لتلك البلاد متاحاً بحرية لجميع مواطنيها. وسوف تكون المكافئ الرقمي لمكتبة «الكونجرس»، ولكن بدلاً من اقتصره على مقر «كابيتول هيل» Capitol Hill، فإنه سيكون موجوداً في كل مكان، مستحضراً ملايين الكتب والمواد الرقمية الأخرى على مسافة نقرة من المكتبات العامة والمدارس الثانوية والكليات والجامعات والمنشآت وأي شخص لديه حريةولوج للإنترنت. يرجع الطموح وراء هذا المشروع إلى بداية تأسيس هذه البلاد. وقد صاغ «توماس جيفرسون» ذلك باختصار:

Robert Darnton is Carl H. Pforzheimer University Professor at Harvard and director of the Harvard University Library. His new book, Poetry and the Police: Communication Networks in Eighteenth-Century Paris.

ألقيت الكلمة التالية في افتتاح مؤتمر بجامعة «هارفارد» في الأول من أكتوبر بهدف مناقشة إمكانية تكوين مكتبة رقمية وطنية.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي

إلا شرفاً، لأن أفواه القوة هي مفتوحة دائماً للالتهام، وذراعها ممدودة دائماً - إذا أمكن - لتدمير حرية الفكر والكلام والكتابة. إن «الاستبداد والكهانة» لديهما رابطة عتيقة، ولكن خطر تقييد حرية الوصول للمعرفة هو وشيك اليوم مثلما كان منذ مائتي عام. فيما يلي ملحوظة خاصة بحقوق النشر مرفقة بطبعة إلكترونية حديثة من كتاب «مغامرات أليس في بلاد العجائب» Alice Adventures in Wonderland الذي نشر للمرة الأولى عام ١٨٦٥:

النسخ: لا يمكن نسخ مقاطع نصية من الكتاب إلى ذاكرة الكمبيوتر. الإعادة: لا يمكن إعادة هذا الكتاب لشخص آخر.

الهيئة: لا يمكن إهداء هذا الكتاب لشخص آخر. القراءة بصوت عال: لا يمكن قراءة هذا الكتاب بصوت عال.

(هذا الاقتباس والاقتباسات السابقة مأخوذة من كتاب «لويس هايد Lewis Hyde» «مشاع مثل الهواء: الثورة والفن والملكية Common as Air: Revolution, Art, and Ownership» ٢٠١٠).

قارن ذلك التصريح الذي صدر بالأمس فقط، بالملاحظات التالية التي أدلى بها «فولتير» Voltaire بعد نشر كتابه «تساؤلات عن الموسوعة Questions sur l'Encyclopedie» عام ١٧٧٢: «إنني أصرح هنا لأي بائع كتب بإعادة طباعة حماقاتي، سواء كانت حقيقية أم زائفة، على مسئوليته ومخاطرته وتكلفته». وكما صاغها «لويس هايد» في كتابه «مشاع مثل الهواء»، فهناك حركة تطويقية تهدد بتدمير ملكيتنا العامة الثقافية، عالم المعرفة الذي ينتمي إلينا جميعاً.

أنا أدرك أن الملكية الفكرية هي أمر معقد. وبدلاً من طرح السؤال المزعج عن حقوق النشر في تلك المرحلة، فإنا أود أن أطرح نقطة مختلفة تتعلق بمبادئ تأسيس بلادنا.

إن الآباء المؤسسين لم يصرحوا فقط بمجرد ملاحظات اقتباسية، بل إنهم كانوا يقصدون ما قالوه، وهذا

واحد من بين كافة الملكيات الحصرية أقل حساسية، فتلک هي قوة التفكير التي يطلق عليها الفكرة. إن من يتلقى مني فكرة فإنه هو نفسه يتلقى تنويراً دون انتقاص شيء مني؛ مثل الذي يضيء سراجاً باتجاه سراجي، فإنه يتلقى الضوء دون أن يصيبني بالظلام.

كان «جيفرسون» يفكر في تأثير طباعة الكتب والقراءة - والذي كان موضوعاً أثيراً لدى الآباء المؤسسين. هنا يقول «فرانكلين»: «إن فن الطباعة ينشر ضوءاً عاماً جداً، لدرجة أن كافة مغالقات نوافذ الاستبداد والكهانة التي تقاوم لإبقاء الضوء خارجاً، تبقى عاجزة عن ذلك».

ويقول «جون آدمز»: «وأنتم، يا سادة الطباعة، فمهما يقول طواغيت الأرض عن أوراقكم، فلن يزيدكم ذلك

«المعرفة هي الملكية العامة للجنس البشري». كان «جيفرسون» على حق - من ناحية المبدأ. ولكن في الواقع فإن غالبية البشر حرمت من المعرفة المتراكمة عبر العصور. ففي عصر «جيفرسون» كان لنخبة قليلة فقط حرية الوصول إلى عالم التعليم. أما اليوم، وبفضل الإنترنت، فيمكننا فتح هذا العالم أمام جميع إخواننا المواطنين. إن لدينا الوسائل التقنية لتحقيق حلم «جيفرسون»، ولكن هل لدينا الإرادة؟

أعرف: حتى الشيطان نفسه يستطيع أن يستشهد بـ«جيفرسون». بإمكان أي شخص أن ينقب في أوراق الآباء المؤسسين للعثور على اقتباسات تدعم قضية ما. ولكن لا أستطيع المقاومة. إليكم «جيفرسون» مرة ثانية: «إذا كانت الطبيعة قد جعلت شيئاً



هل باستطاعتنا
تكوين مكتبة رقمية وطنية
بمعنى مكتبة شاملة للكتب المخزنة رقمياً
يمكن لعموم الجمهور
الوصول إليها بسهولة؟





يقوم الهولنديون الآن بالتخزين الرقمي لكل كتاب وكتيب وصحيفة هولندية صدرت منذ العام ١٤٧٠ وحتى الآن.. وكذلك يفعل الفرنسيون واليابانيون



أعلن الرئيس الفرنسي «ساركوزي» في نوفمبر الماضي أنه سيقدّم ٧٥٠ مليون فرنك للتخزين الرقمي لـ «إرث» الأمة الثقافية. وقد خصص المجلس التشريعي الياباني ١٢.٦ مليار ين لبرنامج متميز مدته عامان للتخزين الرقمي لكل مكتبتهم الوطنية. إذا كان الهولنديون والفرنسيون واليابانيون قادرين على تحقيق ذلك فلماذا لا تستطيع الولايات المتحدة؟

أرى أن نستبعد فكرة أن مكتبة رقمية وطنية أمريكية هي أمر بعيد المنال، وأن نركز بدلاً من ذلك على ما يمكن أن نتعلمه من الآخرين بشأن قضايا مثل: كيف يمكننا معالجة مشكلة حقوق النشر والكتب اليتيمة، أي الكتب التي لا يمكن العثور على أصحاب حقوق نشرها؟ كيف يمكن أن نجاري تعقيدات بيانات الفهرسة - أي معلومات التصنيف اللازمة للعثور على نصوص رقمية في البيئة المتغيرة دائماً للفضاء الإلكتروني؟ كيف يمكننا الحصول على التمويل وتطوير خطة عمل لحل الصعاب طويلة الأمد لتنظيم عملية جمع الكتب وصيانتها؟ أمل أن يوفر هذا اللقاء الفرصة لمناقشة تلك السلسلة من أسئلة «كيف».

ولكني رغم كل شيء أأمل أن يروج هذا الاجتماع للهدف العام بتوفير نوع المكتبة التي يستحقها الشعب الأمريكي، النوع الذي يلبي حاجات القرن الحادي والعشرين. إننا نستطيع أن نرود أصغر كلية في «آلاباما» وأبعد مدرسة ثانوية في «نورث داكوتا» بأعظم مكتبة عرفها العالم يوماً ما. ونستطيع أن نفتح تلك المكتبة لبقية العالم، كممارسة لنوع «القوة الناعمة» التي سوف تزيد من الاحترام للولايات المتحدة في أنحاء العالم. فيمكننا من خلال تكوين مكتبة رقمية وطنية أن نجعل من مواطنينا أعضاء فاعلين في جمهورية دولية للأدب، ويمكننا أن نقوى أواصر المواطنة بالداخل. بإمكاننا العثور على المال وعلى المهارة، ولكن هل يمكننا العثور على الإرادة؟ هذا هو السؤال الذي أود أن أطرحه في مستهل هذا اللقاء والذي أأمل أن تتم الإجابة عليه في النهاية. ■



Library Federation «برنامج البنية التحتية والصيانة للمعلومات الرقمية الوطنية» National Digital Information Infrastructure and Preservation Program «المشروعات غير الربحية الأخرى». لقد فتحت سبيلاً عديدة نحو ما يمكن أن يشكل هدفاً عاماً. أأمل أن نستطيع التوصل إلى إجماع حول الطبيعة العامة لهذا الهدف؛ ومهما كانت اختلافاتنا، فإنني لا أعتقد أن المخاوف التي لا لزوم لها بشأن قابلية التنفيذ يجب أن تعيقنا. إن لدينا المهارة والخبرة لإنجاز العمل. بل إن باستطاعتنا التعلم من خبرات دول أخرى. بالفعل فإن كل دولة متقدمة قد دشنت نوعاً ما لمكتبة رقمية وطنية، كما تقوم العديد من الدول النامية بالأمر نفسه. فقد عالجوا جميع أنواع المشاكل وتوصلوا إلى حلول قابلة للتطبيق. وإذا كانوا لم يتوصلوا إلى نموذج واحد يناسب كافة أحجام الدول، فقد برهنوا على إمكانية تحقيق فكرة مكتبة رقمية وطنية. إن ذلك ليس حقيقياً فقط بل إنه كان موضع التجربة.

لقد قمنا هنا في «هارفارد» بمسح تهديد للمشروعات الجارية في بلدان أخرى. بل إننا عثرنا على مكتبة رقمية وطنية أولية في منغوليا. ويقوم الهولنديون الآن بالتخزين الرقمي لكل كتاب وكتيب وصحيفة هولندية صدرت منذ العام ١٤٧٠ وحتى الآن. كما

الأول قبل المصلحة العامة، ولكنها أيضاً قصة نجاح ودرس نتعلم منه؛ بإمكاننا تطوير التقنية وإدارة السوقيات اللازمة للتخزين الرقمي لموجودات مكتبات أبحاثنا على نطاق هائل.

- يمكن تكوين تحالف من المكتبات لتوفير غالبية الكتب التي يرغب فيها القراء.
- يمكن تكوين تحالف من المؤسسات والجامعات والمنظمات غير الربحية الأخرى لتغطية التكاليف.
- يمكن تشكيل منظمة مركزية لمعالجة مشاكل التنسيق والمعالجة والصيانة.

لا أود أن أقلل من شأن تلك المشاكل، ولكنني أعتقد أننا يجب أن نعالجها بروح دءوبة. فرغم كل شيء لدينا قدر هائل من خبرة التخزين الرقمي. كل مكتبة بحثية طورت مشروعات رقمية، وبعضها على نطاق واسع جداً. كما تعاونت المكتبات مع بعضها البعض ومع وكالات خارجية من خلال كافة أنواع المبادرات التي يمكن أن تكون مفيدة وتنويرية لتكوين مكتبة رقمية وطنية. انظروا إلى «وقف هاثي HathiTrust» و«أرشيف الإنترنت Internet Archive» و«مبادرة مشاع المعرفة Knowledge Commons Initiative» و«مكتبة كاليفورنيا الرقمية California Digital Library» و«اتحاد المكتبة الرقمية Digital

المعنى لا يزال سارياً اليوم - ما لم تعتقدوا أن الدستور قد عفا عليه الزمن نتيجة للإنترنت. لقد كانت هناك جمهورية أخرى وراء إقامة الجمهورية الأمريكية، وهي التي جعلت الدستور قابلاً للتمعن. تلك كانت جمهورية الأدب - نظام للمعلومات يحركه القلم والصحافة المطبوعة، ملكوت من المعرفة مفتوح أمام كل من يستطيع القراءة والكتابة، مجتمع من الكتاب والقراء بلا حدود أو شرط أو تمييز من أي نوع فيما عدا الموهبة فقط. ومثل باقي رجال عصر التنوير، آمن الآباء المؤسسون أن حريةولوج للمعرفة كانت شرطاً جوهرياً لجمهورية مزدهرة، وأن الجمهورية الأمريكية سوف تزدهر إذا ما مارس مواطنوها مواظنتهم في جمهورية الأدب.

من المؤكد أن القدرة على القراءة والكتابة كانت محدودة في القرن الثامن عشر، وكانت حرية الوصول للمكتب محدودة بالنسبة لمن استطاعوا القراءة. كانت هناك فجوة هائلة بين حقائق الحياة الراقصة منذ قرنين من الزمان وبين القيم المثالية للآباء المؤسسين. لذا يمكننا اتهام الآباء المؤسسين باليوتوبية. بالنسبة لي فإنني أعتقد أن جرعة قوية من المثالية اليوتوبية قد منحت أفكارهم قوتها الدافعة. أعتقد أننا يجب أن نستفيد اليوم من تلك القوة، لأن ما كان يبدو يوتوبياً في القرن الثامن عشر قد أصبح الآن ممكناً. باستطاعتنا أن نغلق الفجوة بين القمة المرتفعة للمبادئ ومستوى الكفاف للحياة اليومية. ويمكننا تحقيق ذلك من خلال تكوين مكتبة رقمية وطنية.

أم هل فكرة مثل تلك المكتبة هي يوتوبية بالمعنى السلبي - أي أنها غير واقعية وخيالية؟ سأجيب بلا، للأسباب التالية:

- برهنت «جوجل Google» على إمكانية تحقيق ذلك، من خلال التخزين الرقمي لأعداد كبيرة من الكتب وتوفير الكثير منها على الإنترنت. إن «جوجل» هي حقا عملية تجارية تضع ربح الشركة في المقام

إيجار أم تملك

هل يجب أن تشتري بيتاً؟

باربرا كيفيات

Barbara Kiviat

■ خيبت سياسة تملك المنازل رجاءنا. لأجيال عديدة ظن الأمريكيون أن تملك منزل مصلحة بدهية، فقد انبرى قادتنا السياسيون لجعل المسألة مفهومة. حاجج «هربرت هوفر» بأن تملك منزل يمكن أن «يغير الطبيعة البدنية والذهنية والمعنوية لأطفالنا»؛ و«فرانكلين روزفلت» آمن بأن دولة قوامها مالكو المنازل دولة «لا تقهر». بل إن تملك منزل، بحسب كلمات «جاك كمب» وزير الإسكان والتنمية الحضرية في إدارة بوش الأب، يمكن أن «ينقذ الرضع وينقذ الأطفال وينقذ الأسر وينقذ أمريكا». لم يكن المنزل الذي يمتاز مدخله بمرج وسياج خشبي مجرد مكان لطيف للعيش أو استثمار خالٍ من المخاطرة؛ بل كان وسيلة لتحويل أمة.

ظننا أن المنازل المملوكة لمن اتخذوها مساكن خلقت استقراراً اجتماعياً ومالياً – مواطنين أكثر إقبالا على المشاركة، ومناطق سكنية أكثر أمناً، وأطفالاً يؤدون بشكل أفضل في مدارسهم. لا عجب إذن أن القادة من كافة الأطياف السياسية أرادوا إنفاق أكثر من ١٠٠ مليار دولار سنوياً على الإعانات الحكومية والتخفيضات الضريبية لتشجيع المواطنين على شراء المنازل.

لكن قادتنا، بتشجيع منا، ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير. لقد أصبح الآن الجانب المظلم لتملك المنازل واضحاً تمام الوضوح: نزاع الملكية ومغادرة المنزل، والمناطق السكنية التي ابتليت بها الممتلكات العقارية الخاوية والقيمة المادية

المتهاوية للمنازل – إنها أمة لدى مواطنيها ثروة إسكانية أقل بستة تريليون دولار مقارنة بما كان لديهم منذ ثلاث سنوات فقط. حقاً، ربما يكون الإقراض الميسور الذي شجعه الهوس بفكرة تملك المنازل قد أشعل فتيل الأزمة المالية وأفضى بصورة مباشرة إلى أكبر محاولة إنقاذ مالى على الإطلاق، وهي محاولة إنقاذ مؤسستى «فاني ماي» و«فريدى ماك». لا تزال الأزمة العقارية عائقاً أمام الاقتصاد، فقد هبطت مبيعات المنازل القائمة فى يوليو بنسبة ٢٧ فى المائة مقارنة بالشهر السابق، الأمر الذى فاقم المخاوف من كساد مزدوج وعجل بالهبوط المصاحب فى البورصة الذى هبط بمؤشر داو جونز الصناعى إلى مستوى منخفض لسبعة أسابيع. لا يعدو كل ذلك كونه الحكاية الواضحة للعيان للفقاعة العقارية وما حدث حينما انفجرت؛ أما القصة الحقيقية فلا تزال أعمق وأكثر قتامة.

بالنسبة للجزء الأكبر من القرن العشرين انتظمت السياسة والصناعة والثقافة صفاً ليخلقوا من فكرة شراء

منزل تعويذة سحرية. لقد أثمر تملك المنازل منافع عديدة خلال العقود الماضية: وفر الاستقرار لعشرات الملايين من الأسر وأرسى قطاعاً من الاقتصاد يمتاز بأنه كثيف العمالة. لكن بإضافة المثالية على شراء المنازل فقد تجاهلنا التأثيرات السلبية. فى سنوات الزيادة الوهمية لأسعار الأصول (bubble years) انخفضت معايير الإقراض بصورة درامية الأمر الذى سمح للعديد من الأمريكيين أن يضعوا قدراً كبيراً جداً من دخلهم فى شراء منازل. وقد تجاهلنا ظواهر أطول أمداً أيضاً، فقد ساهم تملك المنازل فى تفريغ المدن وأبقى المستأجرين خارج أفضل الأماكن السكنية. كذلك ساهم تملك المنازل فى تغذية الاستهلاك المفرط فى أمريكا للطاقة والنفط. وبالنسبة للذين فقدوا وظيفة جعل تملك المنازل عثورهم على وظيفة أخرى أمراً أصعب. وربما يكون الأسوأ على الإطلاق أنه أعاننا على أن نصبح من دون قصد مخادعين لذواتنا: قلنا لأنفسنا إن تملك المنازل كان سبيلاً يفضى إلى الثروة ومجتمعات



لم يكن المنزل الذى يمتاز مدخله بمرج وسياج خشبي مجرد مكان لطيف للعيش أو استثمار خالٍ من المخاطرة؛ بل كان وسيلة لتحويل أمة



مستقرة ونتائج طيبة فى الاختبارات المدرسية فتجنبنا التعامل مع هذه المسائل المرعبة بطريقة مباشرة وحاسمة. وإذا نتعافى الولايات المتحدة حالياً من أكبر أزمة إسكان على الإطلاق منذ الكساد الكبير، فإن الوقت الحالى هو وقت إعادة النظر فى المدى الواقعى الذى تصل إليه توقعاتنا بشأن تملك المنازل وحجم الأموال التى نحتاج لإنفاقها للسعى وراء هذه التوقعات. وفى حين يشترك أعضاء من الحكومة وقطاع الصناعة مع إعادة تصور لمؤسستى «فاني ماي» و«فريدى ماك» وبضيق النظام المالى للإسكان، يجادل كثيرون بأن تملك المنازل لا ينبغي أن يكون هدفاً ينبغي مهما كلف الأمر. يقول «رافائيل بوستيك»، مساعد وزير الإسكان والتنمية الحضرية لوضع السياسات وشئون البحث، «ثمة فكرة مضادة أن التمتع بمأوى ملائم مرادف لكون الشخص مالك منزل. هذه الفكرة يجب أن تخضع للتغيير».

ملاك الضياع

يبدو أن مفهوم تملك المنازل على نطاق واسع جزء يتعذر فصله عن الميثولوجيا الأمريكية. إننا نقول لأنفسنا إن الولايات المتحدة لطالما كانت أمة من مهاجرين مستقلين، لطالما كانت مكاناً، فى القرن التاسع عشر، يمكن فيه لأى فرد يتمتع بجلد كاف أن يتجه صوب الغرب ويحصل لنفسه على ضيقة.

ومع ذلك لم يحدث إلا بحلول القرن العشرين أن بدأت واشنطن فى وضع مواردها لتحويل الجميع إلى ملاك منازل. فى عام ١٩١٩ تولت الحكومة أمر

خدمة Time Warner

ترجمة: عاطف سيد عثمان

وجهات نظر ٥٢



«دانيال» وابنتهما «أليسا» التي تبلغ من العمر ست سنوات. أما الآن فهذه الأسرة تعيش في منزل تملكه في «كيب كود». يعمل «دانيال» سائق شاحنة لإحدى عشرة ساعة، بينما تعمل «ستار» في وظيفتين كي تحصل على الرهن العقاري لكن التضحية، كما تقول، تستحق و«الأمر مدهل؛ باستطاعتنا أن نفعل ما نشاء. يمكننا زرع حديقة ويمكننا الجلوس في الخارج لنستمع إلى الموسيقى ونحتفل في الهواء الطلق. بمقدورنا أن نحيا حياة طبيعية طيبة».

لا شك أن شراء منزل، بالنسبة لعائلات أمريكية عديدة، اختيار ذكي. على الورق قد يبدو وضع كل أموالك السائلة تقريباً في عين واحدة فقط تصرفاً أحرق، لكن من الوجهة العملية غالباً ما تسير الأمور سيراً حسناً؛ مع سداد الرهن قبل التقاعد مباشرة يجد الزوجان مكاناً رخيصاً للعيش في سن الشيخوخة. إن النقطة الرئيسية في مساءلة مزايا امتلاك منزل ليست التشكيك في قرارات أسر مثل أسرة «كورايك»؛ بل الأخذ في الاعتبار الاختيار المتضمن بين أمرين مرغوبين.

أحد الأمور المرغوبة الرئيسية: التنقل. كون المرء قادراً على التحرك باستمرار في البلاد بسهولة يعني أن الأشخاص بإمكانهم الذهاب إلى حيث تكون الوظائف. منذ خمس عشرة سنة كان «أندرو أوزوالد»، بروفيسور الاقتصاد في جامعة وارويك في المملكة المتحدة، واحداً من أوائل من انتبهوا إلى أن الأماكن ذات المعدلات المرتفعة لامتلاك المنازل بدت أنها ذات معدلات مرتفعة للبطالة أيضاً. وبالفعل بعض مدن الولايات المتحدة الأمريكية ذات

ثم كان هناك سوق الرهن العقاري. في ثلاثينيات القرن العشرين أرادت الحكومة من المستثمرين الخاصين أن يبدشوا سوقاً ثانوية لشراء الرهون وإعادة بيعها من أجل جلب الاستقرار وأسعار أقل للسوق. وحينما لم يفعل ذلك أحد، أنشأت الحكومة «فاني ماي» ثم «فريدي ماك». تقدم المؤسسات خدمة جلييلة لمشتري المنزل الأمريكي - تلك الرهون العقارية ذات معدل الفائدة الثابتة لثلاثين سنة، وهي رهون يبيعها المقرضون، ربما لم تكن لتوجد بأعداد كبيرة دون وجود هاتين المؤسستين. لكن الطريقة التي تشكلت بها هاتان المؤسستان في العقود الأخيرة يشوبها الخلل: إنهما تسعيان وراء الربح بشراسة ومع ذلك تحصلان على مؤازرة الحكومة بصورة ضمنية. سمح ذلك لمؤسستي «فاني» و«فريدي» باقتراض الموارد المالية بفائدة قليلة - وساعد على الاحتفاظ بأسعار الرهون منخفضة - لكنه كان يعني أن هناك حافزاً ضئيلاً لدى المستثمرين لمراقبة ما كانت تفعله المؤسسات، حتى لو كان الأمر خطيراً جداً لدرجة أن خطة الإنقاذ النهائية في سبتمبر ٢٠٠٨ كلفت أكثر من ١٥٠ مليار دولار.

أمة عالقَة

«ستار كورايك»، واحدة من الملاك الجدد للمنازل في أمريكا، لا تهتم بوجه خاص بكل هذا التاريخ. ما تهتم به هو كونها قادرة على طلاء غرفة ابنتها باللون القرمزي دون أن تحتاج لإذن من أحد. حتى شهر فبراير كانت «ستار» تعيش في شقة مؤجرة في برلنجتون مع زوجها

أعلى: الانتقال من الشقق ذات المياه الباردة في المدن إلى الشوارع المغلقة المزدانة بالأشجار في الضواحي. لكن مع كل إدارة أمريكية جديدة تظهر ميزة جديدة ونادراً ما يطرح تساؤل بشأن المنفعة. شرع بيل كلينتون في خلق ثمانية ملايين ملاك منازل، وجورج بوش الابن في خلق خمسة ملايين ونصف آخرين. في عام ٢٠٠٢ قال بوش «إذا كنت تملك منزل فأنت تحقق الحلم الأمريكي» - برغم أن المؤرخ «جيمس تراسلو أدامز» حينما صاغ مصطلح «الحلم الأمريكي» في عام ١٩٣١ لم يذكر أي شيء بشأن امتلاك منزل. إضافة لذلك ما قاله المؤرخ «فنسنت كاناتو» البروفيسور بجامعة ماسشوستس في بوسطن، «قبل انفجار فقاعة الزيادة الوهمية للأصول كان تملك المنازل مكسباً للجميع». وسواء كنت تسعى إلى تعزيز المسئولية الفردية أو تخفف من حدة نقص المساكن للمحاربين العائدين فيما بعد الحرب العالمية الثانية، أو تساعد الفقراء على ترسيخ أقدامهم مالياً، وتجذب الاهتمام بالصناعات كثيفة العمالة، فقد كان تملك المنازل هو السبيل لكل ذلك.

نتيجة لذلك أسبغت واشنطن على ملاك المنازل معاملة خاصة. حينما يقدمون ضرائبهم على الدخل يكون بإمكانهم اقتطاع فوائد الرهن وضرائب الملكية. وحينما يبيعون ملكيتهم لا يصبحون ملزمين بدفع ضريبة على بضع مئات من آلاف الدولارات من الربح. في عام ١٩٨٦ أعيد كتابة قانون الضريبة بما لا يسمح بخصم الفائدة المدفوعة على الرهن مثل دين كارت الائتمان، لكن كان هناك استثناء للفائدة المدفوعة على رهن - إنذار يكلف الحكومة حوالي ٨٠ مليار دولار في شكل عائدات ضائعة في ٢٠٠٩.

حملة «تملك منزل» التي أطلقتها «الرابطة الوطنية للمجالس العقارية NAREB» (المعروفة اليوم باسم الرابطة الوطنية للوسطاء العقاريين NAR)، حيث كان وزير التجارة، «هربرت هوفر»، متحمساً فأعلن أن «الحفاظ على نسبة مئوية مرتفعة من ملاك المنازل الأفراد هو واحد من اختبارات البحث التي تواجه الآن الشعب الأمريكي».

لم يجعل الكساد الكبير هذا الاختبار أمراً ميسوراً، فعندما انهار الاقتصاد واجتاح نزح الملكيات الدولة وقع، أولاً، «هوفر»، الذي انتخب رئيساً للبلاد في ١٩٢٨، ثم «فرانكلين روزفلت» من بعده سلسلة من القوانين لجعل البنوك تُقرض من جديد، بما في ذلك تشريع بإنشاء «إدارة الإسكان الفيدرالية» لتأمين الرهون العقارية وإنشاء «الجمعية الوطنية الاتحادية للرهن العقاري» (فاني ماي) لشراؤها كلها، وبذلك تتحرر البنوك لإقراض أموال أكثر. سارت هاتان الوكالتان جنباً إلى جنب مع إرساء نوع جديد من القروض، قرض يمتد لثلاثين سنة بفائدة ثابتة. كان الرهن الممتد لثلاثين عاماً ثورة، كان تبايناً مذهلاً مع القروض قصيرة الأجل التي كانت معتادة في ذلك الوقت؛ فقد وضع هذا الرهن تملك المنازل في متناول يد المزيد من عائلات عديدة. في وقت كان فيه ٢٥٪ من العمال بلا وظائف وثلاث الوظائف المفقودة كانت في قطاع الإنشاء والمهن ذات الصلة، كانت فكرة دفع مشروع الإسكان حافزاً اقتصادياً.

لكن حتى عندما استعاد الاقتصاد استقراره بعد الحرب العالمية الثانية، استمر تشجيع واشنطن لفكرة تملك المنازل. في البداية كان تملك المنازل أسلوباً سلساً لدفع التحول إلى مستوى معيشة



بإضفاء المثالية على شراء المنازل فقد تجاهلنا التأثيرات السلبية. والظواهر الأطول أمداً، فقد ساهم تملك المنازل في تضريح المدن. كذلك ساهم في تغذية الاستهلاك المفرط في أمريكا للطاقة والنفط



في الولايات المتحدة الأمريكية يصاحب تملك المنازل العيش في مساكن تجمع أسرة واحدة مستقلة. ٨٩٪ من المنازل القائمة بمفردها مملوكة بينما ١٧٪ فقط من الشقق كذلك. ثمة منطوق وراء ذلك: بالنسبة للمالك المؤجر توفر الشقة اقتصاداً لإنتاج واسع النطاق (economy of scale) وهو ما لا توفره التنمية الضاحوية (suburban). ولكن ذلك يعني أن النظام الذي يمجّد تملك المنازل ويقدم له دعماً مالياً يدفع الناس إلى العيش في الضواحي حيث يمكن أن يجدوا، هم أو مطورو الأراضي للسكنى، قطع أراضي يمكن تحمل ثمن شرائها من أجل البناء عليها. لا بأس بكل تأكيد أن يختار المرء أن يقطن بعيداً عن المدينة بعدة أميال، لكن ذلك الاختيار يحمل معه عواقب واسعة النطاق. وفقاً لبيانات إدارة معلومات الطاقة، يستهلك سكان المنازل المستقلة ٤٩٪ من الطاقة - مثل الكهرباء والغاز الطبيعي - أكثر مما يستهلك سكان المباني المكونة من خمس شقق أو أكثر. وتتطلب المعيشة في الضواحي من الناحية العملية قيادة سيارة بصورة يومية، وهو ما يعني بدوره أن سياسة الطاقة في الولايات المتحدة تعطي الأولوية للنفط الرخيص - أيا تكن التبعات الجيوبوليتيكية والبيئية.

هناك أسباب وراء رغبة الناس في العيش في ضواحي خضراء مورقة. في الحدود العشبية (Crabgrass Frontier)، وهي دراسة كلاسيكية لعام ١٩٨٥ حول الانتشار العمراني في شكل ضواحي، يقتضى المؤرخ «كينيث جاكسون» من جامعة كولومبيا أثر إضفاء أمريكا للصبغة المثالية على الحياة الزراعية عبر قرون من الزمن. تراكم المدن الصناعة والأمراض والحوادث، فمن ذا الذي لا يرغب في الفرار إلى منزل وفناء خاص؟ لكن في هذه الأيام، لا تشتعل النيران في نهر كايهاوجا بكليفيلاند، وهواء بيتسبيرج نظيف، وأسواق السمك وأرضية الميناء لا تهز أرجاء جزيرة مانهاتن - إنما طرق الدراجات وملاعب كرة البيسبول هي التي تفعل. ليست المدن المكان الملائم للجميع. لكن ربما تصبح كذلك لعدد أكبر من الناس إذا لم نشعر جميعاً كما لو أننا عند نقطة معينة يفترض بنا أن ننتقل إلى الضواحي ونشتري منزلاً.

القومى. لا زلنا نذكر ما قاله «جاك كمب»: تملك المنازل يمكن أن ينقذ الأطفال الرضع. ومع ذلك فالدلائل على أن تملك المنازل يحمل معه فوائد أخرى بالفعل مختلطة من دون ريب. على السطح غالباً ما تكون النتائج مثيرة للإعجاب. ففي عام ١٩٩٧ وجد المحللان الاقتصاديان الأكاديميان «ريتشارد جرين» و«ميشيل وايت» أن أطفال ملاك المنازل يمكنون في المدرسة وقتاً أطول مما يفعل أطفال المستأجرين وأن بنات ملاك المنازل من المحتمل بدرجة أقل أن يصبحن أمهات في سنى المراهقة. وانتهت دراسة في عام ١٩٩٩ أجراها «دينيس ديسكال» و«إدوارد جليزر» إلى أن ملاك المنازل على الأرجح يصوتون في الانتخابات وينخرطون في المنظمات المجتمعية.



غير أن الباحثين الذين يجرون مثل هذه الدراسات غالباً ما يحذرون من الذهاب بنتائجها بعيداً. تماماً كما هو الحال حينما تظهر سمتان في نفس الوقت لا يعني أن إحداها تتسبب في وجود الأخرى. يعزى «ديسكال» و«جليزر» على سبيل المثال، جزءاً كبيراً من نتائج دراستهم إلى حقيقة كون ملاك المنازل ينتقلون من مساكنهم بدرجة أقل: لذا فلديهم وقت أكبر يصرفونه في مجتمعهم مقارنة بما لدى المستأجرين لينخرطوا في نشاطات مجتمعية. ووجدت دراسة في ٢٠٠٩ في مجلة «ريل إستيت إكونوميكس» (Real Estate Economics) أن الأطفال الذين يعيشون في المنازل المملوكة لأسرهم أقل ميلاً لترك المدارس الثانوية. لكن إذا كان للأسرة سيارة فإن العلاقة تبدو أقوى. فهل يعزى الفضل إلى السيارات؟ أم ينبغي أن ندرك بدلاً من ذلك أن امتلاك كل من المنزل والسيارة هو على الأرجح علامة على شيء آخر، مثل الحياة الأسرية المستقرة أو العيش في مربع سكنى أنيق؟ وهناك حقاً تأثير واحد فقط يبدو أن تملك المنازل يسببه باتساق: استثمار الملاك وقتاً أكبر وأموالاً أكثر في صيانة منازلهم. إنهم على الأرجح يقومون بعمليات الإصلاح المنزلية وهم في الغالب يرعون حدائقهم.

دييجو». ولكن قيمة المنزل كانت أقل من النقود التي لا تزال ديناً في الرهن العقاري لهما. قالت «هارتزل»: «لم نتمكن من البيع؛ لم يكن باستطاعتنا أن نرحل». في اقتصاد اليوم يمكن أن يكون الرهن العقاري عبئاً ثقيلاً، وهذا أمر جديد. في الزمن الذي كان، توقع العمال أن يحتفظوا بعملهم في نفس الشركة لعقود وأن يروا ارتفاعاً مضطرباً في الدخل السنوى. لكن في هذه الأيام كون المرء ضمن القوى العاملة هو أمر ينطوي على لعبة إعادة تجديد مستمرة. يتوقع العمال تغيير الشركات، بل ومهنتهم، مرات عديدة. أصبحت الأسر الآن أكثر من أى وقت مضى أقرب لأن ترى الدخل ينحدر بصورة مفاجئة - حتى لو كان هذا أمراً مؤقتاً. وفقاً للمحللة الاقتصادية «كارين دينان» من «معهد بروكنجز» عانى ٧٪ من الأسر في أواخر الستينيات من انخفاض في الدخل بنسبة ٥٠٪ أو أكثر على مدار سنتين. في منتصف العقد الأول للقرن الحادى والعشرين شهدت نسبة ١٢٪ من الأسر مثل هذا الانحدار في الدخل. لكن الرهن العقاري، وهو بصورة نمطية أكبر نفقة تقع على كاهل من يملك منزلاً، صارم لا يرحم كما هو شأنه على الدوام. بالنسبة لملاك المنازل نادراً ما يكون التكيف السريع مع الحقائق المالية الجديدة خياراً أمامهم. قد يوفر تملك المنازل إحساساً بالاستقرار للأسر لكن الاستقرار في اقتصاد اليوم ليس ميزة على الدوام. ما تحتاجه الأسر لكى تحافظ على الدخل المرونة التي يناهضها تملك المنازل.

يحل المشكلات أم يسببها؟

في وقت سابق هذا العام، أجرت «فانى ماي» مسحاً على تملك المنازل. كان السبب الأهم الذى ذكره المشاركون في المسح وراء شرائهم منزلاً: «أنه يعنى توافر مكان ملائم لتربية الأطفال وتعليمهم تعليماً جيداً». أما السبب الثانى أن «يكون لديك بناء مادي تشعر فيه أنت وأسررتك بالأمان».

إن الاعتقاد بأن امتلاك منزل هو السبيل لوجود مناطق سكنية أكثر أمناً ومدارس أفضل راسخ بعمق في الضمير

المعدلات المرتفعة في امتلاك المنازل لديها اقتصادات «حزام الصدأ الراكدة» (Rust Belt economies) ديترويت، ألتاون في بنسلفانيا، روشستر في نيويورك، أكرتون في أوهايو. يقول «أوزوالد»: «الاقتصاد يتغير طوال الوقت، ونحن بحاجة إلى أناس يكونون متنقلين حتى يضعوا أيديهم على الوظيفة المناسبة». حيثما يكون أغلب الناس ممن يمتلكون منازلهم تكون الوحدات السكنية القابلة للتأجير قليلة وهو ما يجعل الأمر أصعب على العمال - لاسيما الشباب وذوى الفطنة - أن ينقلوا عملهم من مكان لآخر. للصلابة التي يجلبها تملك المنازل المنتشر لأسواق العمالة كلفة. تنبه «لورانس كاتز»، المحلل الاقتصادي بجامعة هارفارد، إلى أن الأمريكيين، مقارنة بالجنسيات الأخرى، أكثر ميلاً للتنقل في أعقاب الانكماش الاقتصادي. في دراسة مميزة لعام ١٩٩٢ وجد كل من «كاتز» و«أوليفير جين بلانشارد»، اللذين كانا في ذلك الوقت في «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا»، أن مناطق الولايات المتحدة تستغرق حوالى ست سنوات حتى تتعافى من الزيادة المحلية المفاجئة في معدلات البطالة، وخلال تلك السنوات الست يغادر نفس عدد الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم المنطقة. يقول «كاتز» «لا يتعلق الأمر بأن الوظائف التي اختفت قد عاودت الظهور ولكن أن الأشخاص ينتقلون إلى مناطق جديدة بفرص جديدة». في أى سنة معيارية ينتقل ٤٠ مليون أمريكي من مساكنهم - وقاربة ٢٠٪ يفعلون ذلك لأجل وظائف.

ينتقلون إلا إذا لم يكن باستطاعتهم فعل ذلك بالطبع. وتلك هي حالة الكثيرين الآن. في أعقاب انتهاء الحافز الضريبي للشراء قصير الأجل هوت مبيعات المنازل القائمة مرة أخرى. مع انخفاض قيمة العقارات يجد أحد عشر مليون أمريكي من ملاك المنازل أنفسهم الآن مدينين لجهة الإقراض بأكثر مما تساوى منازلهم. وحتى لو ظهر مشترى واحد فعملية البيع ليست أمراً يقينياً. درست «جين هارتزل» فكرة بيع منزل عائلتها في جلين بيرنى في ولاية ميريلاند حينما تقاعد زوجها من الخدمة في القوات الجوية وصادف «وظيفة أحلامه» - في العمل كمخرج لبرنامج إذاعي - في سان



في البداية كان تملك المنازل

أسلوباً سلساً لدفع التحول إلى مستوى معيشة أعلى: الانتقال من الشقق داخل المدن إلى الشوارع المزدانة بالأشجار في الضواحي



لاسيما الذي يستخدم لشراء المنازل الأكبر من أي وقت مضى، وسيلة لجعل الناس يشعرون بأن قسمتهم ونصيبهم على ما يرام. في كتابه الجديد «خطوط الصدع» (Fault Lines) كتب «راجورام راجان» المحلل الاقتصادي في جامعة شيكاغو، يقول «كما قد يبدو الأمر سلبياً متشائماً فقد استخدم الاقتراض الميسور بوصفه مهدئاً عبر التاريخ على يد حكومات غير قادرة على تناول مخاوف الطبقة المتوسطة مباشرة». ويضيف «إن التوسع في تملك المنازل - وهو عنصر رئيس في الحلم الأمريكي - بالنسبة للأسر منخفضة الدخل ومتوسطة الدخل كان مسمار المحور للأهداف الكبرى المتعلقة بالانتماء المتزايد والاستهلاك الأوسع». ومع زيادة الثقة المفرطة اعتماداً على ديون البطاقات الائتمانية وقروض الأصل العقاري، أخذنا ننفق ونشعر بأننا أكثر ثراء مما نحن في الواقع.

إذا كانت الولايات المتحدة تكسر تلك الدائرة، فسوف نضطر إلى أن نقوم بإجراء تغييرات معروفة جيداً: مزيد من الادخار، والاستثمار في الأفراد من خلال تعليم وتدريب أفضل، واستخدام أدوات الحكومة للمساعدة على خلق وظائف عالية الجودة - من ذلك النوع الذي يمكن الفرد من تكوين أسرة - بدلاً من إغواء الناس بامتلاك منازل.

ليس ذلك ترتيباً تافهاً. لكن إذا كان للبدء في فطام أمريكا من فكرة كون تملك المنازل التبريق لكل عائلنا وقت على الإطلاق، فالوقت الحاضر - بعد أسوأ أزمة إسكان على الإطلاق منذ ٧٥ سنة - هو ذاك الوقت.

«جين هارتزل» التي أصبحت عالقة في منزلها بميريلاوند، ليس بمقدورها أن تنتقل إلى كاليفورنيا حيث الوظيفة التي يحلم بها زوجها، وبعد أن أنفقت الآف الدولارات وساعات غير معدودة على إصلاحات منزلية مختلفة، تمنع النظر في قرارهما شراء منزل. تقول «لقد كانت بحق خبرة تعليمية كبيرة. لعللى أقول إننى سعيدة أننى مرتت بها». ثم تتوقف. «أعتقد بأننى.. لست واثقة». حينما يخبرها أصدقائها بأنهم يفكرون في شراء منزل، تقول «أأدرون، ليس الأمر بالصورة التي نشأنا على الاعتقاد بأنها سوف تكون». ■

عليك شراء مسكنك. في عالم مثالي، لا ينبغي أن تعكس الطريقة التي تدفع بها المال لتوفر مأوى لنفسك مكانتك الاجتماعية الاقتصادية. في سويسرا، وهي واحدة من أشد بلدان العالم ثراءً، يستأجر ثلثا الأسر مساكنهم. لكن في الولايات المتحدة سواء كنت تملك مسكنك أو تستأجره ينبغي بشيء ما بشأن من أنت - وغالباً ما يحدد ذلك أين تعيش. وهنا مرة أخرى يتضح أن يد الحكومة مرئية، لكنها هذه المرة على مستوى المدينة والمقاطعة. المحلل الاقتصادي «جليزر» من هارفارد نظر إلى كيفية قصر الحكومات المحلية، مدفوعة في الغالب بملك المنازل الموجودين، لنوعية الإسكان. من بين ١٨٦ بلدة ومدينة في حدود ٥٠ ميلاً (٨٠ كم) في بوسطن تقع ٣٤ المساكن متعددة الأسر مثل البيوت المدنية (townhouses) والعمارات السكنية، وتسمح ٨١ بها على أقل من ١٠٪ من الأرض المتاحة. الأشخاص الذين لا يشترون المنازل المستقلة - في الغالب المستأجرون - غير مرحب بهم. وهذا لا يحدث حول بوسطن. يقول جليزر «في مناطق عديدة من الدولة يخضع تفكير المستأجرين للتطويق».

يتوقع بعض علماء الديموغرافيا أن الاتجاه إلى أن أغلب المناطق ينبغي أن تكون مقاطعات حصرية لمنازل العائلة الواحدة على رقعة أرض كبيرة سوف يتغير حيث يكل مواليد فترة ما بعد الحرب (١٩٤٦ - ١٩٦٥) من المنازل ذات الغرف الأربعة والمروج التي تحتاج لمن يقوم عليها وفواتير الضريبة العقارية الكبيرة. سوف يكون هذا تعديل ضخم، تعديل بدا في بعض الأوقات من الصعب تخيله. لكن ثمة سبب يدعو لتجربته.

كلفة الاقتراض الميسور

ربما يكون الجانب الأسوأ في التعلق الهوسى بفكرة تملك المنازل مظلماً حقاً: لسنوات عديدة مكّننا واقع كون أسعار منازلنا في ارتفاع من تجاهل التغيرات البنوية العميقة التي تجرى في الاقتصاد الأمريكي. ولعدة عقود كان التفاوت في الدخل يتنامى، وأجور الطبقة المتوسطة راكدة. من وجهة نظر بعض المراقبين الأكاديميين كان الاقتراض الرخيص،

يدخرون ١٥ مليار دولار، والفضل يرجع للخفض الضريبي. في الوقت ذاته، هناك ١٩ مليون عائلة دخلها يتراوح بين ٤٠ ألف دولار و٧٥ ألف دولار يدخرون ١٠ مليار دولار. بالنسبة لهذه الأسر من الطبقة المتوسطة يساوى خفض الضريبي السنوى العادى ٥٤٢ دولار، أو دولار ٤٨٠ سنت يومياً. هل الجمع الغفير من أسر الطبقة المتوسطة قادرين على شراء منازل لأنهم يدخرون ٥٤٢ دولار سنوياً؟ هذا أمر مشكوك فيه. لقد تخلصت المملكة المتحدة من خفض الضريبي على الرهن منذ سنوات، ومعدل امتلاك المنازل فيها لا يزال أعلى من معدل الولايات المتحدة.

بل والأكثر إرباكاً أن طريقة خفض ضريبة الفائدة على الرهن تغرى الناس باقتراض مال أكثر: فأنت تحصل على خفض بناء على الفائدة المحسوبة على القرض، لا على امتلاكك للمنزل ولا على تقسيط الدين. يتذكر «سايناى» الذى يصف نفسه بأنه «شخص مناصر للتملك»، كيف أن محاسبه اقترح عليه ذات مرة أن يشتري منزلاً أكبر كى يحصل على خفض ضريبي أفضل. يقول هذا المحلل الاقتصادى صاحب السلوكيات المهدبة بصورة طبيعية «تقريباً نهرته، إننا نمزج فكرة تملك المنازل مع الإسراف».

لكن حتى لو كانت الحكومة ستغير المدى والأساليب التي تدعم بها تملك المنازل، فسنظل عالقين في معضلة إسكان تشكلت في قدر كبير منها بسبب التحيز للتملك. حينما اتصلت «كيرتى لو»، وهي جراحة يد حديثة، بوكيل عقارات فى هتشنسون بولاية كنساس (سكانها ٤٠ ألف نسمة) ليجد لها مكاناً للإيجار، أخبرها الوكيل أنها سترغب في الشراء. كانت «لو» تنتقل من ولاية كونيتيكت بعقد مدته عام، وبالفعل لم تكن ترغب في الشراء، لكنها أدركت سريعاً ما كان يعنيه الوكيل بشأن المدينة. تقول «لو»: «لديهم شقق»، ثم تتوقف بحثاً عن الكلمات المناسبة، وتكمل «لكنها شقق خالية من أسباب الترف».

ذلك في الغالب هو ما يعنيه الناس حينما يقولون إن السبب الرئيسى لامتلاك منزل هو الحصول على مكان طيب لتنشئة أبنائهم. إنهم يريدون أن يقطنوا في مريعات سكنية جميلة، وغالباً ما يعنى هذا في الولايات المتحدة أنه

أتمتلك منزلاً؟ إليك بعض المال

حيث إن منافع امتلاك منزل بالنسبة للمجتمع غير واضحة، فلعلك تستنتج أن الأسر ينبغي أن تترك لتقرر ما إذا كانت ستؤجر أم تشتري منزلاً. لكن واشنطن تلقى أكثر من ١٠٠ مليار دولار سنوياً في الإعفاءات الضريبية والإعانة الحكومية للمشتريين من خلال فوائد الرهن والتخفيضات الضريبية على العقارات، واستبعاد الأرباح الرأسمالية (capital gains)، ومؤسستى «فانى ماى» و «فريدى ماك»، وهي إجراءات تساعد على جعل قروض المنازل أرخص مما كانت لتكون في ظل ظروف أخرى.

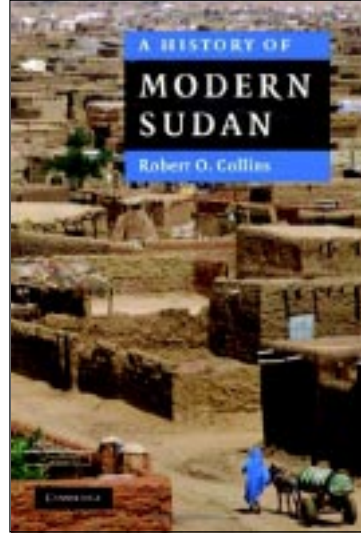
ما من شيء من هذا يتسم بأنه عادل بوجه خاص: فليس هناك إعانات شاملة لعشرات الملايين من العائلات الأمريكية التي تستأجر منازل، إما لأنهم اختاروا نظام التأجير أو لأنهم مضطرون لفعل ذلك. كذلك فليست تلك الإعفاءات الضريبية سياسة اقتصادية فعالة. في عام ٢٠٠١ قدر «مكتب ميزانية الكونجرس» أن نصف المنفعة فقط من الدعم الحكومى الضمنى للرهن العقاري عبر «فانى ماى» و «فريدى ماك» ذهبت للمقترضين في شكل أسعار أقل. أما النصف الثانى فذهب إلى المساهمين في الشركات وللبنوك في شكل فوائد أعلى.

بل إن خفض الضريبي على فوائد الرهن يعد دراسة حالة صارخة بدرجة أكبر. لقد قال نصف الأشخاص ممن شملهم مسح «فانى ماى» لعام ٢٠١٠ أن المنافع الضريبية كانت «سبباً رئيسياً» لشراء منزل. ومع ذلك فحتى خفض على فائدة الرهن ميزة لا يتمتع بها كل ملاك المنازل. كى تحصل عليها عليك أن تفصل مفردات ضرائبك، لكن أكثر من ثلث ملاك المنازل لا يفعلون. إن غالبية المنفعة تذهب إلى الأسر الأكثر ثراءً التي لن تجد على الأرجح مشكلة في شراء منزل دون ميزة خفض الضرائب. وفقاً لتحليل في ٢٠١٠ لـ «جيمس بوتيربا» من «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا» و «تود سايناى» من جامعة بنسلفانيا، فإن العائلات المالكة للمنازل وتعدادها يقترب من الثلاثة ملايين (٢.٨ مليون) عائلة بدخل سنوى أكثر من ٢٥٠ ألف دولار

تاريخ السودان الحديث

مكّن انحدارها الطبيعي من الجنوب باتجاه الشمال من القيام بالكثير من مشروعات الري في القرن العشرين. وفي شرق النيل الأبيض، تحت المنحدرات الإثيوبية، تمتد مراعى «بوتانا» المموجة من المنحدرات الإثيوبية شمالاً إلى «الساحل» على حدود النوبة. وفيما وراء هذا توجد تلال البحر الأحمر الجافة المتناثرة التي تبدأ من إثيوبيا وتنتهى فى مصر، وتطل هذه الأراضى الوعرة على سهل ساحلى قاحل وضيق قوامه الرمال والحجر والشواطئ البللورية وشريط من الصخور المرجانية الكثيفة. وترتفع هذه السهول تدريجياً، شرقاً وغرباً، وتطوق منخفض «السد» الضحل (اسم مشتق من الكلمة العربية «السد») الذى يعد المستنقع الأكبر فى العالم.

ومن ثم فإن «السد» هو أعظم مانع طبيعى فى عالمنا، حيث يتكون من ١١.٧٠٠ ميل مربع من البحيرات والبرك والقنوات المتعرجة. ويرتفع سطح المياه فى تلك البرك والمستنقعات حسب كميات الماء الواردة من البحيرات الاستوائية وكميات الأمطار الموسمية، مما يؤدي إلى تغطية الجزر بنباتات مائية طافية (نباتات السد) التى تتراكم وتندمج فيما يشبه السدود النباتية التى تجبر النهر على الصعود وشق قناة جديدة حول العائق الذى يقف فى طريقه. وبتكرار هذه العملية تتشكل حواجز جديدة فى دورات لا نهائية. وبفعل هذه المصيدة من البرك والمستنقعات شاسعة المساحة تضيق كميات هائلة من المياه جراء البخر والرشح. وبصرف النظر عن حجم المياه المتدفقة من البحيرات الاستوائية أو كمية الأمطار الساقطة، فإن كمية المياه المتبددة فى «السد» تظل ثابتة تقريباً من عام لآخر، مما يشكل خسارة لكل من مصر والسودان. وترتفع الأرض بداية من «السد» باتجاه الجنوب الغربى حيث هضبة الصخور الحديدية المسماة «جبل الحديد»، ومنبع النيل فى الكونغو حيث تتدفق أنهار كثيرة باتجاه الشمال الشرقى عبر



"A History of modern Sudan"
Robert O. Collins
Cambridge University Press; ٢٠٠٨



تاريخ السودان الحديث

روبرت كولنز
ترجمة: مصطفى مجدى الجمال
مراجعة: حلمي شعراوى
دار العين للنشر
المشروع القومي للترجمة
القاهرة - ٢٠١٠

أية محاولة لفهم السودان اليوم يجب أن تقوم على البحث فى وقائع المائتى عام الأخيرة

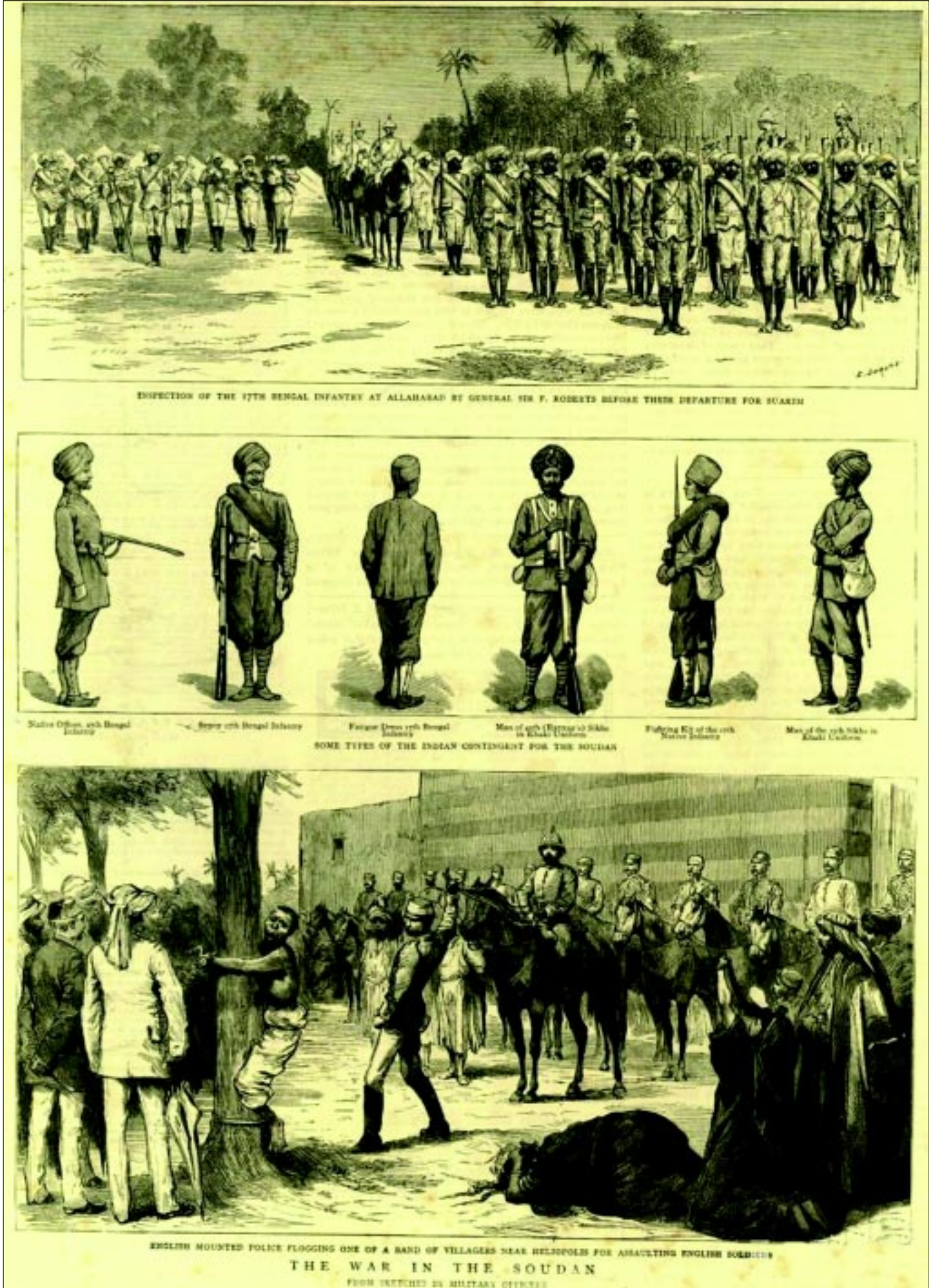
وكهوفها مصدراً للبقاء والمأوى منذ العصور الحجرية، فضلاً عن «الجزر» (حيث تُرمى الإبل شتاءً بالاعتماد على أمطار متقطعة). أما إذا اتجهنا نحو الجنوب فإن الكثبان الرملية «الكيزان» بشجيرات البرية القليلة تتحول إلى سهول طينية تدعم حزاماً من مراعى السافانا التى تنتعش فى فصل الأمطار، وتهيمن عليها من الشرق جبال النوبة الواقعة غرب النيل الأبيض والتى تشمخ فجأة أمام السهل السودانى الغربى الذى يبدو وكأنه بلا نهاية. أما بين النيلين الأبيض والأزرق فتوجد سهول «الجزيرة» الطينية الخصيبة التى

الأطلنطى. وتعترض هذا السهل جبال وهضاب، وتحدّه مرتفعات مختلفة تحيط به، مثل منبع النيل فى الكونغو جنوباً، والمنحدرات الإثيوبية وتلال البحر الأحمر شرقاً، والصحراء الكبرى شمالاً. ولما كان هذا السهل المترامى يتمدد فى كل اتجاه فى الأفق، فإنه يبدو كتلة واحدة متجانسة، إلا أن هذا المظهر يخفى وراءه تنوعاً هائلاً. ففي الشمال الأقصى يصبح هذا السهل السودانى صحراء فى السودان، وإن يوجد عدد قليل من الواحات الغنية بالملح ولكن مع القليل من الماء، ومناطق منعزلة من الصخور البركانية التى تشكل ينابيعها

■ ■ يُعدّ التاريخ للسودان عملاً فى موضوع حافل ومعقد، فهو يمتد من مملكة «كوش» (٧٦٠ قبل الميلاد - ٣٥٠ بعد الميلاد) إلى يومنا الحالى، إلا أن تاريخ السودان المستقل يبدأ مع انسحاب الحكام البريطانيين والمصريين فى أول يناير ١٩٥٦. ومن المؤكد أن تاريخ ممالكه القديمة (كوش، الدول المسيحية، وسلطنتي الفونج والفور) بماضيهما الخاص المتفرد، قد حاز على اهتمام الأثريين والمؤرخين أيضاً، بيد أن أية محاولة لفهم السودان اليوم يجب أن تقوم على البحث فى وقائع المائتى عام الأخيرة. ذلك أن مجيء الأتراك والبريطانيين إلى السودان قبل وبعد الثورة المهدية (١٨٩٨، ١٨٨١) لم يؤدّ فحسب إلى إضافة المزيد إلى التنوع المدهش أصلاً لشعوب السودان، وإنما أفضى أيضاً إلى خلق دولة تتحكم فيها أشكال حكم جديد مصطنعة. فقد جلب الأتراك والمصريون معهم حضارة وثقافات من الإمبراطورية العثمانية والعالم العربى فى القرن التاسع عشر، بينما أدخل البريطانيون إمبريالية وتعليم وديانة وتكنولوجيا الغرب فى ذات القرن. وقد ترك كل طرف من أولئك الغزاة وراءه، وعلى طريقتة الخاصة، طبقات إضافية من المؤسسات الغربية فوق عناصر أصلية عميقة الجذور فى نسيج الماضى السودانى.

ومن أكثر هذه العناصر صموداً وقوة، ذلك الحجم والتنوع الكبيران فى بلد مترامى الأطراف كالسودان، واللذان ظلّا ولا يزالان. أى الحجم والتنوع. يمثلان مكونين رئيسيين فى تاريخه. فالسودان هو أكبر بلدان القارة الإفريقية من حيث المساحة التى تبلغ مليون ميل مربع تقريباً، وتشغل ١٨ درجة من خطوط العرض، أى ما يعادل حجم الولايات المتحدة شرقى نهر الميسيسيبى، وحوالى ٢٪ من مساحة اليابسة فوق الكرة الأرضية. غير أن حجم جمهورية السودان الديمقراطية المستقلة لا يمثل سوى الجزء الشرقى فقط من السهل السودانى الأكبر، أو ما أسماه الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى «بلاد السودان» التى تمتد من البحر الأحمر إلى المحيط

روبرت كولينز
Robert O. Collins



وديان ضيقة منحدرية في وسط الصخور الحديدية صوب غابات الكونغو الاستوائية المطيرة. أما في الاتجاه الجنوبي الشرقي من «السد» فإن الأرض تأخذ في الارتفاع وصولاً إلى سلسلة من الجبال: «إماتونج»، «ديدنجا»، «دونجوتونا».. (ويصل ارتفاعها جميعاً إلى عشرة آلاف قدم) ثم إلى أعلى قمة جبلية في السودان وهي جبل «كينيتي» على الحدود السودانية الأوغندية والذي يبلغ ارتفاعه ٤٥٦، ١٠ قدم.

ويتدفق نهر النيل (الذي يمثل مع مجموع روافده أطول أنهار العالم) من الجنوب إلى الشمال في مجراه المتعرج بطول السودان، وهو الذي حدد طريقة عيش أولئك السودانيين الذين استقروا على ضفافه، ومن ثم كان تميزهم عن الفلاحين والرعاة القاطنين في السهول السودانية بعيداً جداً عن النهر. وبدءاً من بحيرة الهضبة يمتد النيل، المسمى هناك «بحر الجبل»، ٨٠ ميلاً إلى أسفل، عبر مجارى «بيدن» الضيقة وشديدة الانحدار، والتي تتعرج خلال «السد» إلى بحيرة «نو» التي ينبع منها النيل الأبيض (البحر الأبيض) مع مياه الروافد الأخرى التي لم تتبدد في «السد»، فضلاً عن المساهمة الإثيوبية الكبيرة من نهر «السوبات»، والتي تبلغ ١٤٪ من إجمالي المياه المتدفقة في نهر النيل، وهو ما يساعد في تدفق النيل الأبيض بعنفوان في اتجاه الشمال حتى نقطة الالتقاء المهيبة مع النيل الأزرق «البحر الأزرق» في الخرطوم. وينبع النيل الأزرق من المرتفعات الإثيوبية، وهو يسهم بحصة تبلغ ٨٦٪ من مياه النيل للسودان ومصر.

والآن بعد أن يصبح النهر مجرى واحداً عند الخرطوم فإنه يأخذ في التدفق القوى باتجاه الشمال ليحصل على آخر مساهمة مائية من نهر عطبرة على بعد ١٨٠٠ ميل من البحر المتوسط قبل أن يشق طريقه، بمنحنى بشكل حرف «إس» (S) ليصل إلى الحدود الجنوبية التاريخية لمصر عند أسوان والشلال الأول.

ولا يوجد أي بلد آخر في العالم له مثل هذا المناخ المتنوع والقاسي للسودان، فهو بلد حار حيث تتراوح درجة الحرارة بالخرطوم في شهري مايو ويونيو بين ١٠٦ و ١٢٠ فهرنهايت

وربما أكثر أثناء قيظ الصيف. وحينما تهب رياح الشتاء من الشمال فإن متوسط درجة الحرارة في الخرطوم يكون ٦٠ فهرنهايت، وربما تهبط إلى ٤٣ فهرنهايت. ويتحقق هذا التفاوت السنوي بفعل تيارين هوائيين عالميين. ففي الشتاء تهب على السودان رياح شمالية شرقية، لطيفة وجافة، آتية من آسيا الجافة فتدفع الفاصل المداري (ITCZ) بعيداً إلى الجنوب حتى تصل إلى مدار الجدى. وفي شهر إبريل يبدأ الفاصل المداري في التحرك شمالاً مدفوعاً بكتلة هائلة مع الهواء الرطب تجعل من الصعب استمرار سيادة الرياح الشمالية الشرقية التي استنفدت قوتها. وبالنسبة لتباين مستويات تساقط الأمطار في السودان فإنه يتراوح بين لا شيء تقريباً على الحدود مع مصر وأكثر من ٤٧ بوصة عند منابع النيل في الكونغو. وفي شهر إبريل أيضاً تتناقص قوة السحب المطيرة القادمة من جنوب الأطلنطي إلى السودان الجنوبي عندما تتحرك في اتجاه الشمال، لتصل إلى الخرطوم في شهر يوليو، حيث تخلق في الغالب عواصف ترابية عنيفة (الهبوب) ثم تهدأ قبل أن تتجمع مرة أخرى كتلة الهواء الآسيوية الشمالية الشرقية.

وينجم عن هذا التباين الكبير في مستويات تساقط الأمطار تنوع كبير آخر في النباتات والحيوانات التي تقوم عليها سبل عيش السودانيين، فيما يمكن تقسيمه إلى خمسة أحزمة للحياة النباتية من الشمال إلى الجنوب. فمستوى ٣ بوصات سنوياً من الأمطار المتقطعة لا يساعد الحياة

النباتية الدائمة في الصحراء إلا في الوديان (المجاري المائية الجافة المتناثرة)، بينما المنطقة فيما وراء الساحل تستقبل سنوياً ما بين ٣ و ١١ بوصة من الأمطار، وهو ما يعنى إمكانية بقاء خليط من الأعشاب وأشجار الأكاسيا التي ينتج من أحد أنواعها (الأكاسيا السنغالية أو «هشب») الصمغ العربي الذي يعد من الصادرات الرئيسية في السودان.

أما بالنسبة لحزام السافانا العريض الذي يمتد من شرق السودان إلى غربه، وحيث يبلغ مستوى الأمطار السنوية ٣٠ بوصة، فإنه يكتسى بغطاء من الأعشاب الخضراء تتخلله غابات مورقة وموارد مائية يعتمد عليها، ويمتد هذا المظهر ليصل إلى هضبة الصخور الحديدية ومانع النيل في الكونغو والجبال القائمة شرق بحر الجبل.



وإذا كانت الجغرافيا من بين العناصر الحاضرة دوماً في تاريخ السودان الحديث على مدى المائتي عام الماضية، فإن أراضيه المختلفة بمستويات أمطارها المتباينة قد أوت ما يقدر بحوالى ٦٠٠ جماعة عرقية ولغوية، وإن تكون العديد منها من أفراد قليلين. وقد درج العلماء تاريخياً على مجرد تصنيف هذه الجماعات المختلفة وعلاقة كل جماعة بغيرها. وهناك أسلوب آخر يمكن تفهمه يقوم بتقسيم السودانيين إلى فئتين كبيرتين: المسلمين وغير المسلمين. وإن كان من الممكن تقسيم المسلمين في السودان



على الرغم من اشتراك عرب السودان في اللغة والديانة الواحدة فإنهم لا يشكلون جماعة متماسكة



بدورهم إلى من يدعون الهوية العربية وأولئك الذين لا يرون في أنفسهم عرباً.

وعلى الرغم من اشتراك عرب السودان في اللغة والديانة الواحدة فإنهم لا يشكلون جماعة متماسكة حيث يقسمون بشكل متعسف إلى حد ما إلى مجموعتين: النوبيين العربيين و«الجعليين»، ويقصد بالأخيريين أولئك الذين يدعون التحدر من «إبراهيم جعل»، وهو من نسل «العباس» عم النبي، وقد عاش وسط جماعات استوطنت النيل بطوله، والمجموعة الأخرى تضم بدو وأشباه بدو جهينة ويعيشون في السهول.

ويعيش النوبة العربون الآن على ضفاف النيل في المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثالث، المعروفة بالنوبة السفلى، وهم يحتفظون باعتداد قوى بمعمارهم وثقافتهم ولغتهم السابقة على مجيء العرب. وفي المنطقة الواقعة فوق الشلال الثالث يستوطن «الدناقلة» (المفرد: «دنقلاوى») الذين يزعمون بأنهم «جعليون» ولكنهم يعتزون كثيراً بأصولهم النوبية، ولا يزال الكثيرون منهم يتحدثون بلهجة نوبية. وهم ينفصلون عن بقية «الجعليين» بعصبة «الشايقية» ويعيشون بطول النيل من «الدبة» إلى الشلال الرابع، وهم لا يدعون التحدر من «إبراهيم جعل»، ولا يزالون حتى اليوم على وعى كبير بخصوصيتهم المميزة. ويعد النيل من الشلال الرابع إلى نقطة الالتقاء مع عطبرة موطن الجعليين من الرباطاب والمناصير، وأولئك الذين يقطنون فيما بعد عطبرة حتى حجر «السبلوقة»، والذين حصلوا بشكل خاص على تسمية الجعليين. وهناك أيضاً جماعات أصغر حجماً تتناثر في سائر أنحاء السودان ولكنهم استؤصلوا من مجتمعاتهم التقليدية. لسبب أو آخر. ويبحثوا عن الأمن وحماية الهوية عن طريق التجمع وراء زعيم جعلى أو رجل دين، ومن ثم كان الشك في ادعائهم بأنهم «جعليون».

أما الجماعات المتبقية التي تنسب نفسها لأصل عربى غير جعلى فيعرفون جملة. باستثناء «الرفاعة» باسم «الجهينة». وينحدر «الجهينة» من عرب جنوب شبه الجزيرة العربية

والذين جاءوا إلى صعيد مصر، ومن هناك انتقلوا جنوباً إلى النوبة في القرن الرابع عشر ثم انتشروا بعد هذا باتجاه الجنوب والغرب، ثم استوعبوا بعد ذلك جماعات من السكان الأصليين غير العرب، ليكونوا ثلاث جماعات رئيسية هي «الشكرية» و«الكبابيش» و«البقارة». وبالنسبة للشكرية فهم من الرحل رعاة الإبل الذين استقر بهم المقام منذ القرن الثامن عشر، تحت قيادة أسرة «أبو سن»، في مناطق الرعي الكائنة بين النيل وعطبرة والتلال السفحية الإثيوبية، وتعرف بـ«بوتانا» الجنوبية. وفي غرب النيل ينتقل الكبابيش على نطاق واسع بابلهم وأغنامهم وماعزهم عبر «الساحل» في كردفان الشمالية. وقد كانوا بمثابة تحالف قبلي فضفاض تكون في القرن الثامن عشر لسلاسل عربية مختلفة ذات طريقة حياة مشتركة، ثم اتحدت معاً في القرن التاسع عشر تحت قيادة الشيخ «على التوم» (١٨٧٤). أما (١٩٣٧) ذي الشهرة العريضة. أما البقارة فقد جاءوا بماشيتهم من «باجيرمي» و«وادي» في تشاد في القرن الثامن عشر قاصدين مراعى السافانا في كردفان ودارفور. ورغم مرور أجيال كثيرة حفلت بالاسترقاق والتسرى والمصاهرة مع الأفارقة غير المسلمين في منطقة بحر الغزال المجاورة، وهو ما أدى إلى تغيير مظهرهم البدني، فإنهم لم يبتعدوا عن اللغة والثقافة العربية، وهم يشكلون في واقع الأمر مجموعة من الجماعات الفرعية المتميزة، نذكر من بينها: الرزيقات، المسيرية، الحمر، الحبانية، والتعايشة.

تطل جبال النوبة على سهول كردفان الجنوبية، ويبلغ عرضها ٩٠ ميلاً من التلال والمنحدرات الصخرية والجبال التي يتراوح ارتفاعها بين ٣. ٤ آلاف قدم، وجميعها مروية جيداً بمياه الأمطار. وقد عاش النوبيون منعزلين في هذه المنطقة منذ أن وعت ذاكرتهم. وهم يمثلون أكثر من خمسين جماعة عرقية تتحدث ما يزيد عن سبعين لغة مختلفة، ويمارسون دياناتهم الإفريقية التقليدية. وقد أطلق عليهم جميعاً مسمى «النوبة» في القرن العشرين^(١)، ولا يجوز الخلط بينهم وبين النوبيين القاطنين

على النيل شمال السوان، وذلك على الرغم من حقيقة أن الجماعتين تتحدثان لغات من عائلة اللغات النيلو صحراوية. وقد بدأت عزلتهم تتداعى في القرن الثامن عشر تحت ضغط العرب البقارة القادمين من السهول. فأصبحت العربية لغة للتفاهم المشترك، ولكن الإنجليزية كانت مألوفاً للاستخدام وسط النوبة المتعلمين، بينما واصلت هذه الجماعات ذات التنوع اللغوي والعرقى بالغ التعقيد تزرع الذرة والدخن والسرغوم في سفوح الجبال والوديان والسهول.

وهناك كثير من المسلمين في السودان لا يدعون الأصل العربي، وخاصة «البجا» الذين يقطنون تلال البحر الأحمر ويتحدثون «الكوشية». ومن بينهم «الهدندوة»، وهم بالأصل من رعاة الإبل الذين أصبح الكثير منهم خلال القرن العشرين فلاحين يزرعون الدلتا الخصبة لأنهار «جاش» و«طوكر». وبالنسبة للعبادة الذين يمثلون الفرع الشمالي من البجا، فقد تحكموا لقرون طويلة في الطريق الحيوى عبر الصحراء النوبية من «كورسكو» إلى «أبو حامد». هناك أيضاً مسلمون آخرون غير عرب، وهم أفارقة جاءوا منذ عهود سحيقة من الجنوب الشرقى، وتحديدًا من على أطراف الغابات الإفريقية الاستوائية المطيرة، ليستقروا حول جبل «مرة» الضخم وسط دارفور (أرض «الفور»). وقد كان معظمهم فلاحين يتحدثون لغات نيلو صحراوية تربطهم لغوياً بالنوبيين و«الماساي» في تنزانيا. وقد زرع «الفور» وديان جبل مرة الخصبة

والمروية جيداً، مثلما فعل «الداجو» و«البرتي» في شرق السهول و«المسالي» في غربها، بوديانها التي مهدتها الأمطار الغزيرة. أما في «الساحل» شمال جبل مرة فإن الزراعة تصبح هامشية، ومن ثم فقد كان «الزغاوة» (ذوو الأصول الإفريقية) رعاة إبل مثل «الكبابيش» جيرانهم العرب إلى الشرق.

وإذا كان المسلمون قد هيمنوا على شمال السودان، فإن السودانيين غير المسلمين ويتكلمون من حوالى ستين جماعة مختلفة من الأصول النيلية الغربية والشرقية، وهو مصطلح جامع ومصطنع إلى حد ما، حيث يشير إلى كل أولئك الذين يتكلمون اللغات النيلية، والتي تدخل ضمن الأسرة الأكبر للغات النيو صحراوية. ويتكون النيليون الغربيون من: «اللو»، «الشيلوك»، «الأنواك»، «الأتشولى»، «الجور»، إلى جانب الجماعتين العرقيتين الأقوى في جنوب السودان وهما «الدينكا» و«النوير».



وقد سيطر أولئك النيليون الغربيون على مناطق الكلا المحيطة بـ«السد»، حيث ربطت ثقافة تربية الماشية بين الدينكا والنوير، بينما يعد «اللو» و«الشيلوك» و«الأنواك» فلاحين بالدرجة الأولى، وإن امتلكوا ماشية أيضاً. أما النيليون الشرقيون، والذين يتكلمون أيضاً لغات سودانية شرقية، فيتكلمون من جماعات عرقية صغيرة الحجم يقدر عدد الواحدة منها



إن تحديد ما يشكل الهوية هو من الأمور المحيرة وصعبة المنال، بالضبط مثل محاولة تفسير العنصرية



بالآلاف وليس بمئات الألوف، ومن بينها: «الباري»، «الفاجولو»، و«الكاكوا» وهم معاً من الفلاحين المستقرين؛ أما «الماندري»، «التابوسا»، و«التوركانا» فهم رعاة ماشية.

وقد كان موطن هذه الجماعات السودانية النيلية الإفريقية ذات يوم في وسط السودان، وخاصة منطقة الجزيرة. وحسبما تقول تقاليدهم الشفاهية عن الهجرة فإن «الدينكا» (أو «جيانج» أو «موينجيانج» في لغتهم الخاصة) كانوا آخر من غادر الجزيرة في وقت ما من القرن التاسع عشر، ومن ثم أراحوا «اللو». الذين هاجروا قبلهم. إلى الورا أكثر باتجاه جنوب السودان. وقد أصبحت هجرتهم إلى الجنوب ممكنة بعد حصولهم على ماشية الجاموس ذى السنام المنخفض من منطقة الحدود الإثيوبية قبل حوالى ألف عام، ومن المعروف أن هذا النوع من الماشية أكثر قدرة على احتمال الجفاف وقطع مسافات طويلة أثناء التنقل وراء الكلا.

وفي القرن السابع عشر دخل أولئك «الدينكا» في صراع مع «الشيلوك»، وهم الوحيدون بين النيليون الذين أقاموا دولة مركزية بقيادة ملك مقدس «ريث» وقاوموا بشراسة كل محاولات «الدينكا» لتحويل أراضيهم الزراعية إلى مراعى للماشية. وقد اتسمت المائتا عام التالية من العلاقات بين «الدينكا» و«الشيلوك» بالحروب التي لا تنتهى حول الحدود بينهما مع فترات من السلام الهش، وهو الوضع الذى استمر حتى عهد «ريث أكو» (١٨٢٥). ١٨٣٥) الذى استطاع القضاء على تهديدات الدينكا لأرض مملكته.

وعندما هاجر «الدينكا» الذين يعيشون شرق بحر الجبل عبر النهر باتجاه بحر الغزال خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر، اكتشفوا الأراضى الخصبة التى يعيش عليها «اللو» و«اللويل». وكان «اللو» قد احتلوا مساحات شاسعة في جنوب السودان خلال القرن الثانى عشر، إلى أن وقعت المجاعة بفعل دورات الجفاف الشديد فى أواسط القرن الخامس عشر وأوائل القرن

السابع عشر، الأمر الذى تسبب فى تشتتهم.



فذهب بعض «اللو» شمالاً ليؤسسوا مملكة «شيلوك»، واستوطن البعض مثل «الأنوك» في أعالي نهري السوبات والبيبور. ولكن لم يشترك كل «اللو» في هذه الهجرات حيث بقي القلة في مستوطنات حول هضبة الصخور الحديدية، وهناك اتسمت العلاقات بين الفلاحين «اللو» ورعاة «الدينكا» الوافدين بالوثام إلى حد بعيد، ووطدتها الزيجات بين الجماعتين، ذلك أن المكانة الاجتماعية التي مثلها امتلاك «الدينكا» لقطعان الماشية كان لها جاذبية كبيرة عند «اللو» الذين سعدوا بالاندماج في مجتمع «الدينكا».

أما «اللويل» فقد كانوا القاطنين الأصليين الذين استقروا في جنوب السودان في وقت ما من القرن الثامن، وحيث كانوا يذكرون ببناء التحصينات القوية، كما اشتهروا بالمهارات الحربية، وقد تمكنوا لبعض الوقت في القرن السابع عشر من تعطيل تقدم «الدينكا» عبر بحر الغزال. ولكن «الدينكا» استطاعوا في نهاية الأمر إجبار «اللويل» على التقهقر بعيداً حتى بحر العرب «الكير» عند «الدينكا»، حيث اندمجوا في كثير من مجتمعات غير «دينيكية» تعيش غرب بحر الغزال. أما من بقوا ولم يفرّوا، فإما أن يكونوا قد استوعبوا في «الدينكا» وإما عاشوا في تجمعات صغيرة منعزلة. وظل هذا حالهم حتى القرن العشرين. هذا وبعد أن أكمل «الدينكا» هجراتهم بالاستقرار في جنوب السودان انتظموا في إطار ثلاثة اتحادات قبلية: «دينكا بادانج»، «دينكا بور»، و«دينكا بحر الغزال». وتحت هذه الاتحادات توجد ست وعشرون جماعة فرعية.

وبالنسبة «للتوير» أو «ناث» في لغتهم، فهم الجماعة النيلية الأخرى التي سيطرت على سهول «التويك» الواقعة شرق وغرب «السد». وبالرغم من أن الكثير من «التوير» المحدثين يصرون على تحدرهم من «الدينكا»، فإن الدلائل الأكثر إقناعاً تؤكد أنهم كانوا في الأصل جزءاً من شتات «اللو» الذين شقوا طريقهم إلى جنوب كردفان قبل مجيء «الدينكا» بزمان طويل. وتقول التقاليد الشفاهية إنهم قد تركوا وراءهم أراضى جنوب

كردفان التي ضربها الجفاف في بداية القرن الثامن عشر ليستقروا في مناطقهم الحالية الغنية بالعشب والمروية جيداً «كوير. كونج» شرق وغرب «السد»، وحيث دخلوا مع «الدينكا» المحيطين بهم في حروب على الماشية والكلأ والنساء طوال الثلاثة قرون. وعندما وصل البقارة إلى جنوبي دارفور وكردفان في أوائل القرن الثامن عشر، أدت غاراتهم إلى طرد «البول نوير» الذين كانوا يقطنون على حدود البقارة باتجاه الشرق حوالي عام ١٧٥٠، وعجل هذا. فيما يشبه تساقط قطع «الدومينو». بإزاحة جماعات أخرى من «النوير». ومع أواسط القرن الثامن عشر اقتطع «النوير» لأنفسهم مساحة بعرض مائة ميل تمتد من «السد» إلى المنحدرات الإثيوبية، حيث أخضعوا «الدينكا» للاستيعاب والقتل، واستولوا على ماشيتهم ونسائهم، ومن ثم وسعوا أرضهم أربعة أضعاف، تاركين «الدينكا» مقسمين بين الشمال والجنوب ويجتروا ذكريات أليمة لا تزال حاضرة عندهم حتى اليوم.



وكان «الأزاندي» (المضرد: «زاندي» ويطلق عليهم أيضاً «نيام. نيام») هم أحدث موجات الأفارقة الذين جاءوا للاستيطان في جنوب السودان. وهم يتكلمون لغة «أداماوا» وهي فرع من عائلة اللغات «النيجر. كونغولية» التي تنتمي إليها أيضاً لغات «البانتو». وتحت قيادة أرستقراطية «أفونجارا» نجح محاربو «الأزاندي» المهابون في عبور منابع النيل بالكونغو إلى السودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر فقط، قادمين من وادي نهر «مبومو» ليقع الصراع بينهم وبين تجار الرقيق من العرب، حتى أسس «جبودو»، «يامبيو» مملكته التي أخذت في التوسع، ومن ثم دخلت في حرب مع «الدينكا»، ولم يستطع أي من الطرفين حسمها. وعندما قتل عام ١٩٠٥، على أيدي حملة تآديبية حكومية تم تقسيم المملكة بين أولاده تحت إشراف البريطانيين. إن ذلك التنوع العرقي واللغوي.

الهائل في السودان قد أسهم مباشرة في بلورة العنصر الثالث في تاريخ السودان الحديث، ألا وهو العنصرية الثقافية. ومن المعروف أن «العنصرية» موضوع معقد ومحل خلاف، ولكن لا يزال مضمون تعريفها الأساسي هو الاعتقاد بأن بعض العرقيات متفوقة والبعض الآخر متدنية. وقد بنيت العنصرية عميقة الجذور في السودان على الأساسين. التاريخي والثقافي. أكثر من بنائها على أساس اللون، وهي أيضاً عنصرية فردية ومؤسسية أكثر من كونها أيديولوجية. فقد كان الاسترقاق مؤسسة تاريخية ومقبولة في السودان لآلاف السنين، وكان التمييز العنصري هو المبرر الأول له، وهو ما استمر في السودان المعاصر من خلال استخدام التعبير التحقيري «عبد» لوصف أولئك الذين يملكون خصائص ثقافية مختلفة، أو ذوي الوضعية الاقتصادية والاجتماعية المنخفضة سواء أكانت ظاهرة أم ضمنية.

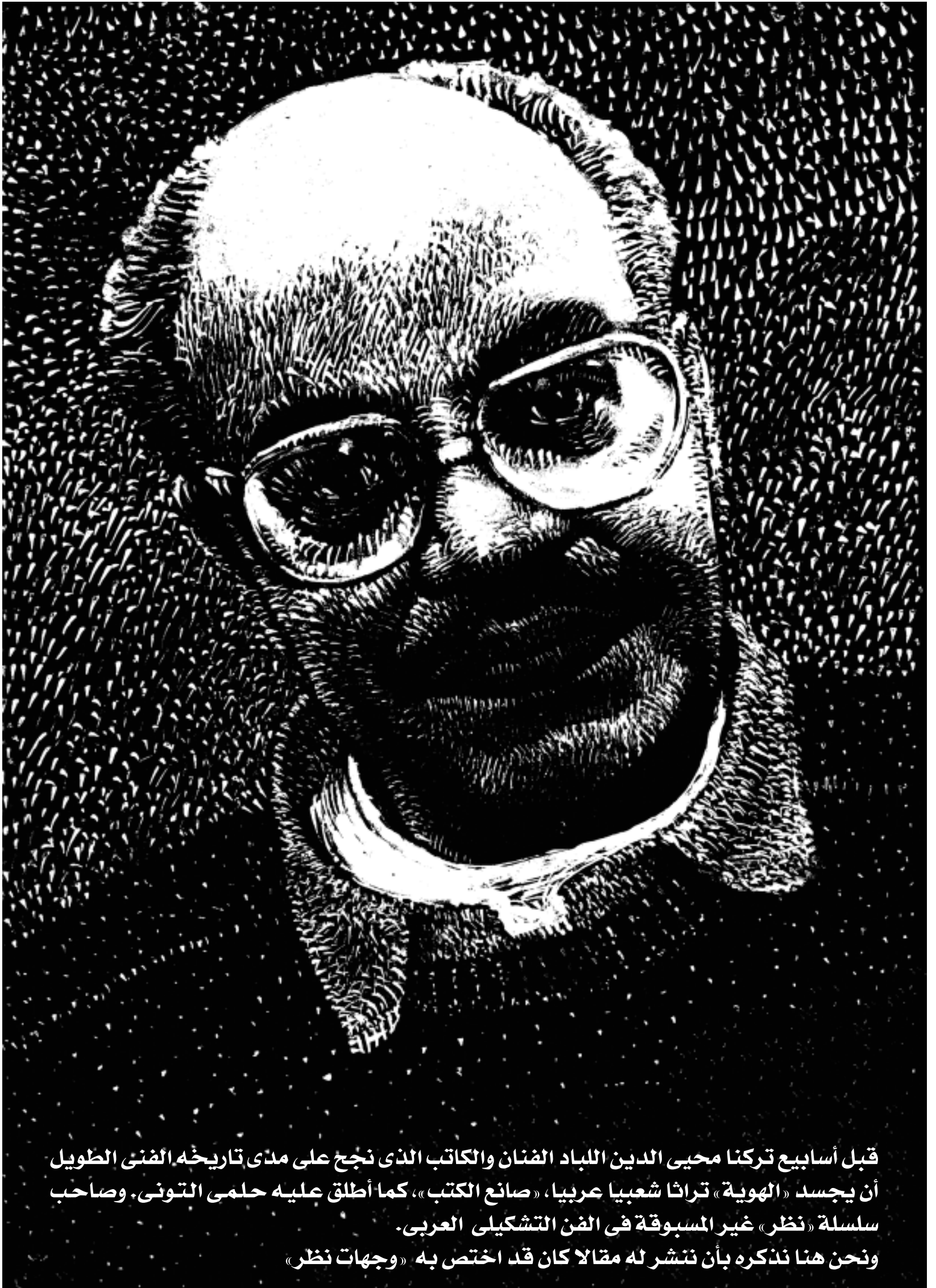
وتعد العنصرية الثقافية أقل حدة نظراً لكونها نتاج التفاخر الناجم عن حالة من التنوع الثقافي تتحدد فيها مكانة الجماعة على حساب الجماعات الأخرى ذات الخصائص الثقافية واللغوية المختلفة. وهكذا فإن سكان السودان النهرى «أولاد البحر» قد أظهروا منذ زمن ازدهارهم للعرقيات الأخرى في الغرب «أولاد الغرب» حيث اعتبروهم أجلاً غير متحضرين. وهو ما أفضى إلى عنصرية سياسية بينة استطاعت بمقتضاها جماعات عرقية ثلاث («الجعليين» و«الشايقية» و«الدناقلة» الذين يشكلون معاً «أولاد البحر») الاحتكار الفعلي لجميع المناصب الحكومية، بدءاً بمنصب الوزير وانتهاء بالوظائف الحكومية الصغيرة، وذلك على مدى الخمسين عاماً التالية على استقلال السودان، الأمر الذي بات يشكل أحد العراقيل الرئيسية في طريق البحث عن هوية وطنية واحدة.

إن تحديد ما يشكل الهوية هو من الأمور المحيرة وصعبة المنال، بالضبط مثل محاولة تفسير العنصرية، ولكن تحديد من هو «السوداني» لا يزال يمثل مقوماً آخر للعنصرية الثقافية. ففي زمن الفتح التركي. المصري، تم تبني الهوية الإسلامية العربية من

جانب سكان السودان الشمالي، وتمثلت مقومات هذا في التحدث بالعربية والادعاء بالأصل العربي واعتناق الديانة الإسلامية. أما في سنوات الحكم الثنائي البريطاني. المصري (١٨٩٨. ١٩٥٦) فقد أدخل المسئولون البريطانيون اللغة الإنجليزية والفكرة الغربية عن القومية وسط من علموهم من أبناء العائلات العربية المرموقة، ولكن هؤلاء بدورهم بدأوا في البحث عن الهوية السودانية. ورغم الإيحاءات بالدونية التي ينطوى عليها مصطلح «السوداني» فإن النخبة الناشئة التي تلقت تعليماً غربياً قد أعطت لهذا المصطلح معنى جديداً، ليبدل على هوية وطنية تحددت بكونها عربية وإسلامية، وهو ما جعلها ضيقة واستبعادية ولا تستجيب إلا في القليل، أو لا تستجيب على الإطلاق، لمشاعر ثلث سكان السودان وهم من الأفارقة غير المسلمين وغير العرب. ويضاف إلى هذا أن بقية العالم العربي لم يشاركوا النخبة السودانية اعتقادها بأن السودانيين عرب أصلاء، بينما تصارعت النخبة نفسها مع الالتباس الناجم عن أن الكينونة السودانية تتضمن أفارقة سوداً لم ترغب هذه النخبة في أن يتم الخلط بينها وبين هؤلاء، خاصة عندما يعتبرون سوداً في أوروبا وأمريكا الشمالية.

وبينما يعترف معظم السودانيين الشماليين في قرارة أنفسهم بأصولهم الإفريقية، فإن هذه الحقيقة نفسها قد شجعت. بالمفارقة. الكثير منهم على التمسك بحماسة أكبر بجذورهم العربية المدعاة. ورغم أن أزمة الهوية هذه قد نشأت أولاً قبل الحرب العالمية الثانية، فإن سؤال «من هو السوداني؟» قد أصبح بعد الاستقلال موضع جدل وطني وسط النخبة الثقافية، الأمر الذي كان دافعاً رئيسياً وراء قيام انقلاب ٣٠ يونيو ١٩٨٣ الإسلامي، بإنشاء لجنة حكومية لجعل كل السودانيين عرباً وأصوليين «سلفيين» تماماً من خلال برنامج قوى للتعريب والأسلمة. ■

(١) هكذا بالأصل، ويعتقد المترجم أن الكاتب يقصد القرن الثامن عشر، وهو الأصح.



قبل أسابيع تركنا محيي الدين اللباد الفنان والكاتب الذي نجح على مدى تاريخه الفني الطويل أن يجسد «الهوية» تراثا شعبيا عربيا، «صانع الكتب»، كما أطلق عليه حلمي التوني. وصاحب سلسلة «نظر» غير المسبوقة في الفن التشكيلي العربي. ونحن هنا نذكره بأن ننشر له مقالا كان قد اختص به «وجهات نظر»

الخط.. الحرف.. المقدس

محيى الدين اللباد

■ ■ لم يكن ما أشيع عن تحريم الإسلام لتصوير الإنسان والكائنات الحية، السبب في تبوؤ الخط العربي مكانته الرفيعة في حياتنا، وبالتالي انفراد الخط والزخرفة بميدان الفن البصرى كله، بل أخذ الخط مكانته لأنه كان جزءاً من حضارة ونهضة ثقافية وروحية وفلسفية وفنية رفيعة شملت بلاد الإسلام. كانت تلك النهضة تعبيراً عن الخطوات الواسعة الجريئة التي خطتها البشرية خارج الظلمات والجهل والعنف والمظالم التي سقطت فيها بلاد العرب وما حولها لقرون طوال قبل الإسلام.

اكتسب الخط العربي مكانته الرفيعة أيضاً لأنه الحامل لكلمات القرآن، الكتاب الذى قدسه المسلمون على طول ألفية ونصف فى مختلف أرجاء الكوكب. ولكن تلك المكانة الرفيعة التى أعلنت من شأن الخط العربى والزخرفة المصاحبة، وأحاطته بمحيط من العناية والوقت والمال والمنزلة الثقافية والاجتماعية بقصد حمايته والحفاظ عليه، كانت سبباً فى تجميد هذا الفن وفى إيقاف تطوره.

فى القرون الخمسة الأخيرة، فهم البعض أن «حفظ» القرآن المعنى فى آية «إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون»، على أنه -يعنى أيضاً- تثبيت طرق كتابة نصوصه. وقد ساهم الأتراك العثمانيون فى هذا التجميد، عندما روجوا -فى القرن ١٧م- لأسلوب كتابة القرآن بالخط النسخى الحديث الذى اشتهر به الخطاط التركى البارع الحافظ عثمان أفندى (اسطنبول، ١٦٤٢-١٦٩٨م) الذى كان من أشهر خطاطى المصاحف «العثمانية» بالخط النسخى، التى كتب منها ٢٥ مصحفاً، طبعت الدولة العثمانية عدداً منها انتشر فى البلاد الإسلامية.

قبل العثمانيين، ازدهرت جنات من التنوع الخلاق المبهج فى أساليب الخط العربى التى كتبت مصاحف القرآن الكريم، وطبعت الثقافات المحلية فى أركان العالم الإسلامى المختلفة تلك الأساليب بأرواحها المتباينة والمنوعة، وأغنتها. وكان ذلك بدءاً من الخط الكوفى القديم (المسمى بكوفى المصاحف)، مروراً بالثلث والنسخى والنستعليق (الفارسى) وصولاً إلى الخط العربى المغربى/الأندلسى الذى تحرر من كل القواعد الحرفية، وأصبح فناً تعبيرياً شخصياً وحرراً.

إلا أن تقديس الخط العربى لارتباطه بآيات القرآن الكريم الذى يجتهد المسلمون كثيراً لحمايته من أى تحريف أو تبديل، بلغ درجة جمدت الخط العربى، وجمدت إبداع الخطاط وتفكيره، ومنعته من الاجتهاد والمراجعة والتجاوز والتحرر والإبداع والابتكار.

وشهد فن الخط العربى بعض تقاليد صاحبت فترات «ازدهاره» فى الدولة العثمانية، وكان من تلك التقاليد احتفاظ الخطاطين الأساتذة ببرية أقلامهم فى علب ذهبية أو فضية حماية لها من دوس الأقدام أو النجاسة، بعد أن كتبت بها آيات القرآن ولفظ الجلالة. ولنتخيل ما أدت إليه مظاهر التقديس تلك من تجميد وتحنيط لفن الخط العربى.

أدى ذلك التقديس والتجميد والتحنيط إلى تثبيت تصور عند البشر يعارض تحرير الكتابة العربية من إसार التقليد والتكرار، إذ ساد شعور خفى كما لو أن الخط العربى نزل من السماء، وكما لو كانت أصول كتاباته قد هبطت إلينا عن طريق «الوحى». وبسبب تلك المواقف نفسها، عارض سلاطين آل عثمان دخول آلة الطباعة دولتهم، حتى لا يُطبع القرآن بألة لا روح لها ولا عقل، ولا عقيدة!

لذلك، شعر من طالع بعض كتابات الخطاط الشجاع المجتهد مسعد خضير البورسعيدى بشيء من الصدمة أمام ما فعله هذا الخطاط فى بعض تجاربه، حين كتب لوحة بخط النستعليق: «إن الله بالغ أمره». كان خضير يقصد إرسال

تلك الصدمة الرمزية: فلم يجعل حرف «غ» بدورانه المعروف «المقدس»، بل وضع له بدلاً من الدوران حوض «ف»، وعاد فوضع دوران «غ» للهاء الأخيرة. ما فعله خضير هو مجرد طرح للفكرة والمبدأ: هل نعتبر أساليب الخط العربى أزلية لا يمكن التعديل فيها للحصول على الأصلح والأنفع والأكثر ملاءمة أم لا؟ والحكم على ما فعله بالإعجاب والتشجيع هو إعجاب بالفكرة وتشجيع لمبدأ المراجعة والاجتهاد فى الخط.

كم هى مبهجة تلك التجربة البسيطة الشجاعة، التى تتحدى الثبات والجمود والتحنيط الذى يستقر فى روعنا وكأنه تقديس. إنها شجاعة «لم لا؟» التى يجب أن نستفز بها الجمود. إن الخط العربى هو ابن الإنسان ومن إبداع البشر وليس منزهلاً ولا وحياً، والإنسان هو صاحب الحق فى مراجعة إبداعه وتطويره وتبديله حسب الحاجة وحسب تبدل الأحوال، وحسب الوظائف الجديدة للخط والكتابة.

ومثل هذه التعديلات والتغيرات كانت قد حدثت فى الخط العربى بالفعل منذ قرون طويلة وعلى طول هذه القرون، حين تطور من الكوفى البدائى إلى النسخ والثلث، وبعده النستعليق والرقعة والديوانى، التى تم فيها تغيير الكثير من ثوابت الأساليب السابقة، بل وتغير منطق كتابة الخط نفسه، ولكننا اكتفينا بما استقرت عليه الكتابة سابقاً، ولم نبدع جديداً بعدها.

التعصب (الذى شاركنا فيه جميعاً) والصراخ بشعار «حماية الخط العربى من العبث والتحوير»، لم يعد موقفاً



أدى ذلك التقديس والتجميد
والتحنيط إلى تثبيت تصور عند البشر
يعارض تحرير الكتابة العربية من إसार التقليد
والتكرار، إذ ساد شعور خفى كما لو أن
الخط العربى نزل من السماء



ناضجاً مسؤولاً، ويجب علينا جميعاً مراجعته. نعم علينا أن نقيم وننقد نتائج محاولات تطوير الخط العربى، ونمسح بالردىء منها الأرض. لكن ليس لنا أن نحرم المحاولة أو نحظرها على أحد. ليس هناك شيء يستمر بدون تبديل وتطوير لمواكبة المتغيرات المتلاحقة فى حياتنا.

الخط وحرف الطباعة

هناك ضرورة للتفريق القاطع بين كلمتى «الخطوط» (بمعنى Calligraphy) و«تصميم حروف الطباعة» (بمعنى Fontography). والخط فى الخلط والالتباس بين التعبيرين خطير. إذ أنه ليس مجرد خطأ فى التعبير اللغوى، بل هو -إذا ما وقع- يستدرج إلى أخطاء عملية ذات تأثير جسيم على المفاهيم والتخطيط والتوجهات فى مسارات البحث والابتكار والتصميم والاستثمار فى مجال حروف الطباعة بأنواعها.

«الخط» Calligraphy هو فن شخصى وحرفة فردية يعتمد أداؤها على اليد البشرية، وعلى التكوين الشخصى، وعلى الذوق، وعلى حال الخطاط لحظة خطه لقطعة من العمل بعينها، لن يتكرر إنتاجها مرة أخرى. ويعتمد الأداء والأسلوب فى الخط على: البحث عن الحل الأمثل لحالة معينة محددة -الارتجال (بما يشابه تقاسيم الموسيقى -الارتجالية على مقام معلوم) -الاستدراك -الفضول -الطابع الشخصى التقديرى. ويحكم على نتيجة عمل الخطاط على أساس كونها وحدة عمل واحدة متشابكة، وعلى أساس تكاملها مع نفسها.

أما الحرف المصمم للطباعة Font، فهو نظام system وظيفى نمطى، معد للاستعمال العام بواسطة مستخدمين لا تشترط فيهم كفاءات خاصة، ولا تتوفر لهم -عند استخدامه- فرص للارتجال، أو الاستدراك، أو الفضول، أو التجويد، أو إضفاء الطابع الشخصى والتقديرى. ويأخذ قيمته من درجة التواصل communication التى تنتج عن الاصطلاح العام على استعماله الواسع. وقد تغيرت فنون كثيرة بانتقالها إلى وسيط medium جديد، أو بتغيرات فى تقنيات الوسيط، وغالباً ما انفرت منها فنون جديدة مستقلة بذاتها: ذات سيادة،

إلى سبيل الغائمه

وغير ملحقه بالأصل. ومن هذه الفنون: فن حرف الطباعة، الذي انفصل عن فن الخط، مثلما انفصل فن السينما عن فن المسرح، ثم فن التليفزيون عن فن السينما -وأصبح لكل فن منها قوانينه وشروطه الخاصة.

وقد انفك الإسار عن فن حرف الطباعة اللاتيني عندما حرر نفسه من محاولة محاكاة فن الخط اليدوي، وحين كف عن المراوغة والتحايل على حدود limitations الوسيط الجديد التي «تعجزه» عن الوصول إلى «كمال» الخط اليدوي. تحرر حرف الطباعة حين جعل من تلك الحدود خصوصيات وصفات وقسمات أساسية تميزه، بل لقد ركز على إبرازها، وجعل منها قيمه الجمالية الخاصة. كف الحرف عن اعتبار نفسه من مرتبة أدنى من الخط اليدوي: فانطلق إلى الأمام وإلى الأعلى.

المسافة شاسعة بين الحرف اللاتيني القوطي Gothic الذي بدأ به جوتنبرج عام ١٤٥٠ وبين ما نعرفه الآن من حروف لاتينية. وعمليات الابتكار والتطوير فيها لا تزال مستمرة. ويستفيد تصميم الحرف اللاتيني ويتأثر بكل أشكال النمو والتطور في: الصناعة والعلوم (تطبيقية وإنسانية) والنظريات الفلسفية والمدارس الفنية، وبالتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويتطور تصميم حرف الطباعة اللاتيني أيضاً بالبحث الدؤوب في تراث الخط اليدوي وتراث الفنون البصرية، سواء في الحضارة الغربية أو في الحضارات الأخرى غير اللاتينية. بينما نتجمد نحن ونجمد معنا حروفنا الطباعية، ولا نزال متوقفين بها عند مرحلة تعادل مرحلة حرف الطباعة القوطي الذي بدأ به «جوتنبرج» طريقه في القرن ١٥م، ولم نتحرك بحروفنا إلى الأمام إلا قليلاً!

عرفنا حروف الطباعة العربية، على نطاق واسع مع حملة نابليون (١٧٩٨م)، وكانت الحروف التي جلبها معه مسبوكة في جنوة، والبندقية (حيث كانت إيطاليا سباقة في صناعتها -منذ القرن ١٦- لطباعة ترجمات عربية للكتاب المقدس). لم يختلف الحال كثيراً طوال القرنين اللذين يفصلاننا عن حملة نابليون ومطبعته؛ فحتى سنوات قريبة كانت التجارب المحلية قليلة، والإسهام المحلي في صياغة الحروف كان قليلاً. أما الاختيار وقرار



ا ب ج د ه ز ح ط
ا ب ج د ه ز ح ط
ا ب ج د ه ز ح ط
ا ب ج د ه ز ح ط

experimentū queritis eius qui in me
loquit̃r. Post damascū arabiāq
lustratā: alcedit iherosolimā ut videt̃

وَهَذَا النَّيْلُ لَهُ خَصَّتَانِ الْأُولَى بُعْدُ مَرَمَاهُ فَإِنَّا لَا نَعْلَمُ فِي
الْمَعْمُورَةِ نَهْرًا أَبْعَدَ مَسَافَةٍ مِنْهُ لِأَنَّ مَبَادِئَهُ عُيُونٌ تَأْتِي مِنْ
جَبَلِ الْقَمَرِ وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا الْجَبَلَ وَرَاءَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ بِإِحْدَى

الإنتاج فكانا -غالباً- اختيار وقرار شركات غير عربية، لا تملك المعرفة الكافية بنا وباحتياجاتنا، ولا تملك الدراية الثقافية بتاريخنا وتراثنا في الميدان، ولا تعرف أولويات ضروراتنا، ولا تعنى بإنجاز ما يبني لنا تراكماً صحيحاً يؤسس للتنمية الثقافية في بلادنا.

وفي النصف الأول من القرن العشرين، جرت محاولات عربية جادة قليلة لتطوير حرف الطباعة العربي، وتوصلت دار المعارف المصرية في ١٩٤٨، مع شركة «مونوتايب» البريطانية، إلى حرف طباعة كامل رفيع المستوى للكتب كان معتمداً على خط النسخ. كتب هذا الخط خطاطون مصريون وأشرف عليه خبير الطباعة يوسف قاروط كما توصلت الشركة الأخرى «لينوتايب» لحرف طباعة مختصر مقبول للصحف والدوريات. كان الحرفان المصنعان لغرض صف المتون، مثلما كانت كل الأبحاث الجادة في مجال حرف الطباعة تدور حول حروف المتن. وظل الاعتماد -في عناوين الصحف والدوريات وأغلفة الكتب والإعلانات المطبوعة وغيرها- على الخطاط اليدوي، باستثناء تجارب قليلة لا يتجاوز عددها عدد أصابع الكفين: في الستينيات أنجزت جريدة «الأهرام» حرفاً حصرياً خاصاً لعناوينها (الخطاط عدلى بولس + المصمم المعماري ثم الجرافيكى هـ. توفيق بحرى). وفي منتصف السبعينيات، لجأت بعض الصحف اللبنانية (دار «الصيد») إلى طباعة حروف عناوين منفصلة على ورق مصقول، وكانت العناوين تجمع منها يدوياً بقصها ولصقها متجاورة على ورق، ثم تصويرها.

وبعد الطفرة في أسعار النفط في منتصف السبعينيات، اهتمت شركة «ليتراسيت» (وبعض الشركات الإيطالية الأصغر) بالسوق العربية وسوق إيران، وأنتجت لهما -على عجل- قائمة من حروف العناوين العربية المطبوعة على أسطح شفافة لاصقة، وقابلة لأن تنقل على الورق. تم الإنتاج في هرولة، وكانت النتائج -في أغلبها- مشوهة ومتدنية المستوى (يصل بعضها إلى درجة الفكاهة المحزنة). ولم يكن منجزو هذه الحروف خطاطين أكفاء، ولا مصممين جرافيكين مبدعين، بل كانوا من قناصة فرص السوق. لكن هذا الإنتاج سرى في بلادنا المندھشة سريان النار في الهشيم، ولا يزال الكثير من أحرفه يتسبب السوق، ويتصدر الصفحات الأولى لصحف عربية كبرى يشترك عدد كبير منها في استخدام نفس الحرف «المريض»، الذي يجعل تشابهها العام في الشكل والمذاق متقارباً إلى حد كبير.

ودخلت «ميكانورما» (نظيرة «الليتراست» في فرنسا) السباق على السوق العربية، فأنتجت -في هرولة هي الأخرى، وعبر فريق صغير من المصممين حديثي العمر والخبرة- قائمة قليلة العدد من الحروف العربية لم يختلف مستواها عن سابقتها البريطانية، ولم تلق رواجاً في السوق العربية. وعندما ازدادت إمكانيات الصف الضوئي photocomposing واتسعت سوقه في بلادنا، وكان ضرورياً أن تضيف الشركات إلى حروف آلاتها حروفاً للعناوين، لم يكن أمام شركة «لينوتايب» سوى حروف «ليتراسيت» المشوهة إياها، لتجعلها حروف العناوين الرئيسية في آلاتها، وأضافت إليها حروفاً قليلة جديدة (مشوهة بدورها) «أبدعها» نفس الفريق الذي ارتكب الجريمة الأولى. وقد تفكك ذلك الفريق، فيما بعد، وانقسم إلى شركات متعددة تختص في إنتاج حروف الطباعة وملحقاتها، ولا زالت حروفهم هي الرائجة في السوق العربية، وفي قوائم الشركات العالمية الكبرى، رغم سذاجتها وضعفها الباديين.

ومع تسارع ظهور التقنيات والأدوات المساعدة التي تيسر (حتى للأفراد) إنتاج حروف الطباعة للحاسب، زاد الهرج، واشتد زحام الميدان، واختلط الحابل بالنابل، وازدحم المولد وزادت هيئته. وظل همنا الأكبر -في أغلبه- محاولة

لإعادة إنتاج أساليب الخط اليدوي المعقدة في شكل حروف للطباعة: بالأحرف المعدنية البارزة، أو بالصف الضوئي، أو على الكمبيوتر. وكم بذلنا من جهود كبيرة من أجل هذه المحاكاة المستحيلة، والتي يعد البعض الاقتراب من النجاح فيها انتصاراً.

لن يمكن بلوغ هذا النجاح، ولوى رقاب أساليب الخط العربي، وإدخالها في نسق الكمبيوتر. فالترابط بين الحروف العربية، ووجود أكثر من شكل للحرف العربي حسب موقعه وعلاقته بالحروف المختلفة السابقة عليه واللاحقة، لن يمكن من ذلك باليسر الذي تتطلبه اقتصاديات الوقت والعمليات في الكمبيوتر.

ولقد كانت مهمة ثقيلة تلك التي صرف المصممون والمطورون فيها جهوداً مضنية طويلة للحصول على خطوط مثل الثلث والديواني والفارسي والرقعة والمغربى عن طريق الكمبيوتر. فهي أساليب لا تتسق مع التركيب الخطي الاستطراذى linear المعتمد في تنألى حروف الطباعة. والنتائج التي حصلنا عليها -بالكمبيوتر- لتلك الأساليب الكلاسيكية متواضعة وتحفل بالتنازلات في تقاليد الكتابة دون أن تصل إلى تصميمات حديثة متوافقة مع الوظائف الجديدة والذائقة الجديدة والمعارف الحديثة.

αβγδεζηθικλμνξοπρστυ

山猫

абвгдежзийклмноп

桜雨

абвгдежзийклмнопрсту

أفكار وتجارب وتطبيقات

علينا الآن النظر بحساسية أقل إلى ضرورة مراجعتنا لكثير مما جعلناه ثوابت في الخط العربي وفي علاقتنا به، حتى ننقذ حرف الطباعة العربى الذى قيدناه بالخط العربى لدهر طويل. وكانت النداءات والأفكار التى ارتفعت فى الثلث الأول من القرن العشرين لتطوير الكتابة العربية والطباعة، والتى قادها عدد من مثقفى مصر ومفكرىها وعلى رأسهم مجمع اللغة العربية ورئيسه عبد العزيز باشا فهمى كانت -فى وقتها- عملاً جريئاً يستحق الاحترام والبحث. وكان يجب أن نجرب تطبيق تلك التجارب والأفكار التى طرحت وقتذاك وبعدها، تطبيقاً عملياً -ولو بطريقة معملية- ثم تقييمها. لكننا استسهلنا الرفض السلبي لكل المحاولات الجريئة التالية فى النصف الثانى من القرن الماضى (انظر مثلاً محاولات المهندس اللبناني نصرى خطار فى حروف الطباعة العربية المنفصلة بدءاً من عام ١٩٤٧).

وقد تعرض القارئ (بل والأمرى) العربى -وعلى مدى نصف قرن على الأقل- لخبرات كثيفة بالحروف اللاتينية الحديثة، وازدادت معرفته بمنطقها وبدلالاتها القرائية، وبطرق فك رموزها وبإيماءاتها. وقد تضاعفت تلك الخبرات عدة مرات فى العشرين عاماً الأخيرة مع توسع سوق الاستهلاك السلعى بتغليفات بضائعه الأجنبية، وتوسع مجال الإعلانات عن السلع الأجنبية المستوردة أو المصنعة محلياً، ومع يسر استقبال الإرسال التليفزيونى الأجنبى، وازدياد تدفق المعلومات المطبوعة الواردة إلينا من الخارج. وقد ترتب على هذا استقرار قدر من الألفة مع اللغة الجرافيكية للأحرف اللاتينية، والوعى بقيمتها الجمالية وبنظامها البصرى وبمعمارها، فى بديهية المواطن العربى.

كانت تصميمات الحروف اللاتينية قد مرت بظروف فرضت تطورها ونموها الدائم، ومنها عمليات الملاءمة لضرورات ووظائف وخصائص إنسانية وعملية وتقنية واقتصادية مستجدة ومتغيرة، ولم يسبق طرحها على حروف الطباعة من قبل. بينما انقطع تطور حروفنا العربية منذ زمن طويل، وجمدت فى مشيختها الهرمة.

كذلك استفادت من «إنجازات» الحروف اللاتينية حروف لغات عديدة غير لاتينية، وأدخلت إلى تصميماتها قيماً بصرية وابتكارات واكتشافات وحلولاً توصل إليها الحرف اللاتينى عبر طريق تطوره الطويل (على سبيل المثال: حروف

أما حرف الطباعة فهو شأن آخر جديد يحتاج لتكاتف عدد من التخصصات، وقد أصبح صناعة وعلمًا، له أصوله ومناهجه ومعاهده لتكوين المبدعين فيه، وأصبح الخطاط أحد التخصصات العاملة في حقل حرف الطباعة، وليس المبدع الوحيد.

لم يعد من الجائز أن نشرع في تصميم حروف للطباعة بأساليب محددة من الأساليب التي قسم إليها الخط العربي من قبل: نسخ ورقعة وثلاث وديوانى وكوفى وفارسى وخلافها. إذ أن الضرورة في التحديث قد تحتم خلط أو تهجين أساليب مختلفة: تهجين النسخ بالثلث وبالكوفى القديم، أو مزوجة الكوفى الهندسى مع بعض حلول الحروف فى الفارسى، وهكذا.

وإذا ما هدف المصمم إلى تصميم عائلات حروف فى شخصيات متباينة، تؤدي كل منها دورها الخاص فى مجال محدد من النشر والمطبوعات (جريدة يومية، مجلة سياسية، شهرية أو فصلية ثقافية، مجلة خفيفة، مجلة اقتصادية .. إلخ)، لن يكون الطريق هو طريق تصميم حروف بأساليب الخط القديمة الرائعة، التى لم تعد تعبر عن شىء ولا تقول شيئاً، سوى المباهاة بالإجادة والإحكام والعظمة. وبمراجعة تصميماتنا الجرافيكية العربية فى النشر وفى الصحافة والإعلان، قد نكتشف أن من أسباب توقف تطور هذا الإنتاج فى بلادنا هو تخلف تصميمات حروف الطباعة العربية. بينما نطالع التصميمات المناظرة فى اللغات المكتوبة بالحروف اللاتينية، فنرى اعتماد تلك التصميمات على التنوع الغنى فى أشكال حروف الطباعة، بحيث إن الحروف فى أغلب الأحيان تلعب دور البطولة فى تصميم الإنتاج الطباعى فى النشر والصحافة والإعلان.

وأصبح على الدول العربية مجتمعة أن تتعاون فى تأسيس معهد لتكوين المصممين لهذه المهنة الجديدة، يخطط عمله على أساس ظروفنا واحتياجاتنا الخاصة. وربما كان علينا أن نستعين فيها بأساتذة من خارج بلادنا: من الغرب ومن دول العالم الثالث التى سبقتنا إلى هذه التجربة، مثل الهند وكوريا واليابان والصين.

إن استمرار الوضع المتخبط الملتبس القائم فى بلادنا فى هذا الميدان، لم يعد تأثيره السلبى ينحصر فى تشويه الذوق العام، وفى تعرية أحد تجليات تخلفنا، بل هو تأثير سلبى فعلى قوى وتراكمى على العقل العربى، وعلى الذاكرة الجمعية، وعلى الحساسية، وعلى الوجدان السليم، وعلى قدرتنا على الإبداع والتفكير الحر. ■

كتاب في جريدة

عبد الله بن المقفع

كليلة ودمنة

يحيى حقي

قنديل أم هاشم

إدوار الخراط

ترابها زعفران

الجاحظ

مختارات

أول حكاية

كاركاتير الدليل تقارير أمكنة شخصيات

ادفع بالتب هب أحسن

المشيتب قنع في

غ غ ج ح رائد التنوير

كل ص اوى

الفن المعاصر

العلامة والدلالة

كتاب

الدراسات الفلسطينية

فى الأعمال التطبيقية الهامة الاستثنائية الخصوصية، كما هو الحال فى باقى العالم المتحضر، بما فيه الهند وكوريا والصين واليابان وأمريكا اللاتينية. وعلينا رعاية هذا الفن مثل كل فنوننا البصرية الأخرى، والتعامل معه على هذا الأساس.

وستظل لوحات الخطاط الفرد إبداعاً خالداً يحتل مواقعه المتنوعة فى حياتنا: فى المتحف، وفى المعرض، وفى منازلنا، وأماكن عملنا، وعلى أغلفة كتبنا، ووثائقنا، ولافتاتنا، وعلاماتنا التجارية، وعلى كل ما نحرص على تمييزه من مصنفاتنا.

ولزماتها الشكلية، ولا بتلك الأشكال المتهاففة من الحروف «العربية» الهجينة التى ظهرت أحياناً فى بلادنا خلال العقدين الأخيرين. ويجب أن يتلائم هذا التطلع إلى ما وراء الأفق مع بحث هادئ وعميق وتأمل للداخل: للخط العربى الذى يمثل جوهره جزءاً حميماً من تكويننا الثقافى والوجدانى والروحى.

لنرفع أيدينا عن فن الخط اليدوى حين نتحدث عن حرف الطباعة، إذ سيعيش الأول فناً جميلاً غالباً راقياً له وظائف الفن الطليعية، ويحضر جليلاً

اللغات السلافية الأصل Cyrillic (الروسية والبلغارية والصربية) - اليونانية - اليابانية والصينية والكورية - العربية - بعض اللغات الهندية).

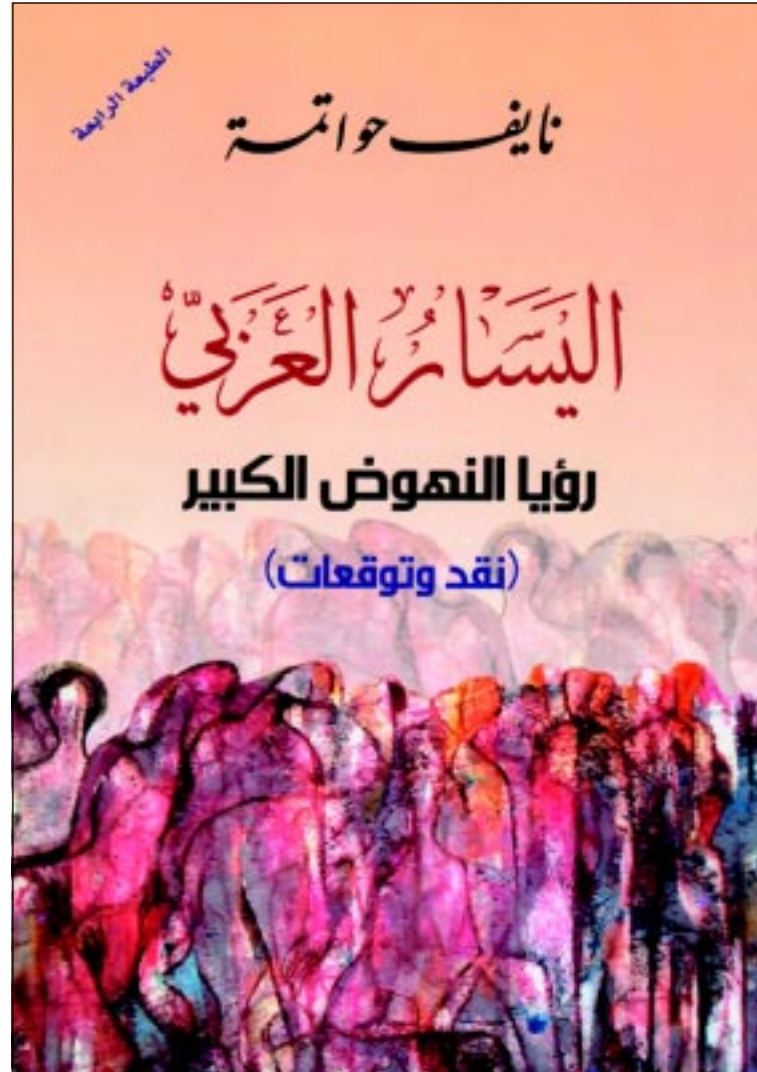
نحن أيضاً يجب علينا النظر بحساسية أقل إلى ضرورة استخدامنا لبعض هذه الإنجازات، وضرورة استغلالنا لتلك الخبرات الجديدة للفرد العربى بقيم الحروف اللاتينية وجمالياتها ومقروئيتها، وذلك عند تصميم حروف عربية جديدة. ولا صلة لهذه الدعوة بالتقليد المتهاففى الأعمى - ومن موقع أدنى - لأشكال بعض الحروف اللاتينية

«اليسار دُرْ...»

فى نقد العقل العربى

طبقيّة اجتماعية وسياسية، طائفية، مذهبية، جهوية، إشكالات الهوية) أكثر من قطر عربى، وتبقى أخريات تحت نذر الفتن، حيث تذر الفتن بقرنها هنا وهناك على مساحة أرض العروبة، مقرونة بحالة الاستكانة والاستهانة وحالة الموات العربى التى وصلت إلى المأساة التاريخية، حيث إن عالماً عربياً ممتداً على قارتين من الماء إلى الماء لم يعد يدخل نظمه فى حسابات الدول الكبرى والصغرى، فالأمة عبر الانسداد التاريخى المديد فقدت الحيلة، وهذا لم يكن نتاج حالة تأسن وتفكك للحوامل والروافع الداخلية التاريخية فقط، بل والانقطاع عنها، ونحن نرى كهوف اليائسين من غياهب النسيان، وسياسات «الرقص فى الظلام» التى تدل عليها البيانات والخطب الصوتية النافخة التى تلوك لسانها وتجتره، ونرى مواقف أكل الدهر عليها وشرب وكلما ضرب الأمة زلزال؛ مواقف تزيدها يأساً، بعد أن تطل شعوبها قشعريرة رعب إنسانى من عدوان ومجزرة ومذبحة ومحركة هنا وهناك، يأساً حتى تدمن حدّ الإشباع على صورة الدم الذى لا يدمن إنسانياً؛ المشهد المفتوح على مداره ولما يتوقف بعد... نظام عربى استمرّ الهزائم، ولا لما تجرأت «إسرائيل» إلى هذه الحدود فى عدوانيتها وإرهابها وغطرستها، وتدخلها فى مسببات الحياة العربية وفى كل شىء، ولما استخفت الولايات المتحدة وإداراتها الأمريكية بكل هذه الحمولة من النظم العربية الرسمية.

الركيزة الثانية: للكتاب هى النقد والمراجعة للثقافة العربية وموروثاتها فى العقل العربى السائد والمؤسّس على مدى زمنى شاسع بدءاً من انقطاعه عن الواقع، وانقطاعه عن التفعيل والتأثير، فالعقل المتردى المتلقى منقطع وفى إجازة مديدة ولا يمكن له أن يبدع ريادة، فهو غير متناسب مع زمنه وغيوبته. إن دافع الكاتب بالبحث بهذا العقل المنقطع المخلوع عن سياقه العصرى، ومهما ادعى من طليعية هى غير متناسبة مع سياقات التاريخ وتطوره، كما أنها حالة اختلال فادح تعبر عن واقع محكوم بفقر اجتماعى وقهر سياسى بسبب من غياب تفعيل العقل النقدى. ويرى فى هذه الاندفاعة القهقرية الرجعية غياب العقل، ما يؤدى إلى



ويشمل التحفظ أيضاً على المناهج التعليمية والتربوية فى سياق التاريخ العربى، باعتبارها مكرسة للألم العربى المفتوح على مداه، الألم المتجدد فى دوراته التاريخية منذ وقوع الانقطاع مع العقل وانسداد التاريخ، وصولاً إلى الراهن وعواصف الهيمنة والعدوان فى مراكزها القطبية والإقليمية التى تهز أركان الوطن العربى من كل حذب وصوب، وتفتح شهية الإمبريالية والكولونيالية والصهيونية وربيباتهما على المزيد، ومعهما كل القوى المتكاثرة الطامعة فى البلاد وشردمتهما؛ فى تقسيم المقسم للثروات والأرض والعباد؛ بيافطاتها المختلفة.

فى الوقت الذى تطحن به اليوم الحروب الأهلية (إثنية قومية وعرقية،

العربى المهيمن، وبالكشف عنه وعن أزمة انقطاع العقل، يرفض الكاتب ممالة المهيمنات العربية المركزية، والسلطات القائمة والتواطؤ مع خطاباتها الزائفة الملتبسة حول قناع الحداثة بروح المجتمع المستهلك «الكومبرادورى»... أو الريعى، يرفض مواصلة إرث الخواء والأغراض للخطاب الرسمى الجاهز... والخلاصة للمتلقى والتى ينبغى أن يستخلصها: هى ركائز الكتاب الأساسية وما يتوالد منها، الأولى: ممثلة بتحفظ العقل الفاعل على رواية التاريخ العربى كما دونت «رسمياً»، تلك التى تواصل أسطورة «الزير سالم وعنترة»، و«أمجاد ياعرب أمجاد» باعتبارها «تعويضاً» عن الهزائم المتتالية والتى تبدأ عسكرياً وتنتهى بمختلف أنساق الحياة العربية.

■ ■ حواتمة يستمطر غيوم العروبة الملبدة بلا انهيار المطر: الديمقراطية والمواطنة والحداثة فى مواجهة التصحر وزحف الرمال. مشروع نقدى مشبع بالقراءة للتاريخ العربى فى عمقه حتى الراهن، وقراءة ملموسة كاشفة للسلطة العربية ومجتمعاتها فى إعادة إنتاج الإخضاع عبر القوالب الجاهزة مقطوعة الصلة بالواقع...

يعبر الكتاب عن أمور كبيرة بكلمات بسيطة، نقيض ذلك الشىء الذى يعبر عن أشياء تافهة بكلمات طنانة... والقيمة تتضاعف حين يتناول الكاتب التاريخ العربى، والاجتماع والمجتمعات العربية والوضعية التاريخية التى لهذا الحقل العربى الشائك والمعقد؛ والمشبع بالمولدات الموروثة للعنف فى نسيج الاجتماع والسلطة العربية فى تاريخها؛ الدولة «الطوطم» والكاريزمات والأساطير والخرافات فى استعارات أنساقها فى التكوين الثقافى المجتمعى وفى العقل العربى.

والكتاب، باعتباره خلاصة تجربة متلاحقة متصلة منذ عقد الخمسينيات من القرن الماضى وحتى يومنا هذا، ما يعبر عنه العنوان «اليسار العربى. رؤيا النهوض الكبير. نقد وتوقعات»...

ومن العنوان إلى الواقع؛ نرى كيف يطغى اللهات العربى الرسمى حول التجديد الشكلى فيما يلقى من أوراق وبيانات هنا وهناك فى معالجة الأزمات... دون معالجات، تجديد شكلى على حساب الجوهر والمعنى والمضمون، كذلك فى سياق تجربة اليسار ومشروع العصرية والحداثة العربية. إن واقع ووقائع الحياة العربية، يشيران إلى حالة العرى العربية، العرى السياق التاريخى والنسق الثقافى

«اليسار العربى... رؤيا النهوض الكبير - نقد وتوقعات» نايف حواتمة الطبعة الأولى: الأهالى للطباعة والنشر - دمشق، بيسان للنشر والتوزيع - بيروت. ٢٠٠٩ الطبعة الحادية عشرة: - العراق - بغداد: «دار الجريدة للصحافة والنشر» ٢٠١٠



إن تراكيب الحياة العربية السياسية والاجتماعية وثقافتها وذهنيتها الغالبة قد باتت معيقة للتقدم والنهوض



رشيد قويدر

التطرفات القصوى بأنواعها المشهودة باسم «التراث»، ومشهودة في حالة السببات العام. وعليه يرى أيضاً ومن موقعه العربي؛ أنه ينبغي أولاً تمثل قيم التنوير والعقلانية واستلهاها وترسيخها والتعلم منها، نحو ردم وتجاوز تلك الفجوة صانعة تلك الأزمات المتصلة في سلسلتها، والتي تبدأ بفصل الناس عن الحياة، بدلاً من إغناء تجربتها معرفياً وروحياً، واستبدالاً من «التقليد» والنقل على العقل»، بما يشمل هذا وعلى زاوية «يساروية»، تنشد «ما بعد الحداثة» باعتبارها مفهوماً زمنياً محايداً لا أفضليات له في الواقع العربي الراهن؛ درج عليه بعض المثقفين المنقطعين، بدلاً من تغيير الواقع، باعتبارها حلاً فردياً ذاتياً، يعفيه من المسؤوليات التاريخية، بعزلة من نوع جديد؛ وخاصة تلك التي راجت بعد الانهيار البنيوي للمنظومة الاشتراكية، وباعتباره أيضاً هروباً من مسؤوليات الواقع ومن معالجاته، بالتكوير على الذات لحظة الإحساس بالمسؤولية والخطر، وهذا لا يفتح على شيء. هنا نراه في بعض المثقفين الذين حسبوا على اليسار وهم يقيمون في حواضر العرب، وبما يتسمون بانقطاع وغتراب آخر؛ هو عدم الأمانة الفكرية والثقافية للواقع الملموس، وعدم الأمانة للثورية الواقعية، وبما يشملها «تقليدياً» من ادعاءات، فحقيقة الواقع هي من خارج «النقل على العقل» وليست عبر المطلقات «الإيمانية» دينية ويساروية، وخارج الحقيقة المحصورة باليقين العلمي.

وفيما نشاهد كيف يستخدم البعض «يساروياً» مصطلحات علمية دون دراية كافية بمضامينها، مثلما «ما بعد الحداثة» للترويج لרטانة فارغة مضللة، بينما هم معنيون بإمعان التفكير وتحليل الواقع واستنبات الحديث الجديد على أرضه وتربته، بدلاً من الدخول في نصوص منقطعة مغلقة. وبالإجمال فهي حذقة على الجانبين «يمينيًا ويساريًا»، حيث تخفى وراء قواها الذهنية حالة عضلية فارغة من المعنى، بيد أن الفارق هو أن من يمتلك شيئاً من جديد الفكر فهو يصنع المستحيل من أجل إيصاله بلغة بسيطة، لا الحيلولة باللغة دونه. هنا نجد الكاتب في منهجه المعرفي

ينهل مما يترابط بالواقع الحي، كما ينهل من ثريات التراث المفيد بدءاً من الحديث الشريف: «الخروج عن الوطن عقوبة»؛ وحكمة أبقراط الذي «يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها»، وعقاقير الأرض هي ذروة حب الأوطان... وويل لمن نسى وطنه... ونسى قلبه... في جانب هذه المعالجة التي يتصدى لها، يركز على عقاقير جبهات اليسار الوطنية برؤيا وممارسة نقدية، بتوفير القاطرة التي تدفع الحركة والإنجاز، نحو الخروج من الضعف وتشتت الأدوار إلى فرص بنائها وتطوير مكوناتها، فاليسار هو الأكثر جدية في طلب التغيير، ولكن من خلال تعبيره الواقعي الملموس عن مصالح طبقات شعبية يسحقها الواقع الراهن، وهي مهمة تاريخية لإعادة بناء ذاته، واكتشاف نفسه وسط حركة الجماهير العاملة والفقيرة.



ومن اشتقاقات هذه الركيزة يستمطر حواتمة غيوم العروبة الملبدة دون تثبيت المطر: «الديمقراطية والمواطنة والحداثة»، وعليه فقد تناول اليسار العربي وقوى الحداثة، والكتاب طبع في بلدان العروبة وأمصارها من الماء إلى الماء، نحو تلمس مخارج الاغتراب من يوم «قارعة عربية»، حيث إن الجميع من رواد وأهل هذه المفاهيم في «محنة وامتحان»، وكأنى به التحية والسلام على أرض العرب، السلام على غاية الأرب... السلام على الضاد، وبإيمان عروبي تربينا عليه: «من الشام لبغداد... ومن نجد إلى اليمن... وأوراس يلاعب المحيط...» السلام على خير منزل... يا أهل فلسطين لا تهنوا ولا تحزنوا...

كما السلام على جالينوس المخاطب لكل اغتراب وكل غريب بقوله: «يتروح العليل بنسيم أرضه، كما تتروح الأرض

الجذباء ببلبل المطر»... وفي العلل والاغتراب نكتف التالى عربياً... ١ - إن تراكيب الحياة العربية السياسية والاجتماعية وثقافتها وذهنيتها الغالبة قد باتت معيقة للتقدم والنهوض، وعلى هذا مطالبتة أطراف اليسار والليبراليين العرب. الملتمزمين اجتماعياً. تفريقاً لهم عن الليبرالية المتوحشة؛ عليهم ألا يعدموا الفرص للاستثمار بمساحات نفوذ وتأثير متطور متراكم الاتساع ومؤسسى، عبر استغلال المساحات الشعبية المتسعة؛ وللتأطير الشعبى وعلى الرغم من القيود الرسمية الشتى المفروضة عليهم، وبدءاً من الإعلام.

٢ - نظراً لما تعانيه البلدان العربية من اختلالات فادحة طاحنة اقتصادية. اجتماعية، أبرزها الفقر والبطالة والأمية والهجرة غير الشرعية، وانهيار الخدمات الأساسية للدول العربية في قطاعات التعليم والصحة، وغياب شبكات الضمان الاجتماعى بفعل الانسياق وراء قاطرة النيولبرالية، منذ سبعينيات القرن الماضى؛ فإن اليسار هو المعنى أولاً بأن يملك تصورات واضحة لاستقطاب القطاعات الشعبية الفقيرة؛ التي تعاني من الإقصاء الاجتماعى، والمدفوعة إلى حالة أزمة حقيقية. تصورات واضحة للتعامل مع الإجحاف الاجتماعى فى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين، بالمساواة فى المواطنة، بحلول إشكالات الهوية فى البلاد العربية، والمعضلات الإثنية، الطائفية، المذهبية المزمنة، والمستولدة حروباً أهلية لا تنتهى بغير حلول جديدة تنتمى إلى عالم العصر الحديث بتقرير المصير والمساواة فى المواطنة، وبنزوع برنامجى معاكس يستهدف عودة الدولة إلى مسؤولياتها فى الموازنة الاجتماعية، نحو قضايا العدالة والمساواة ومكافحة البطالة، وبناء شبكات فعالة للضمان الاجتماعى، وتقليص الفجوة الهائلة والمتزايدة فى توزيع الدخل بين الأغنياء والفقراء فى المجتمعات العربية، كما أن العقد الاجتماعى بات مفقوداً، وباتت

الحاجة ماسة إلى صناعة توافق فعلى حقيقى بالجوهر والمضمون؛ وهو ما ينبغى أن تأخذه قوى اليسار بعين الاعتبار والجوهر.

٣ - الحريات السياسية والمدنية والفردية وحكم القانون، والفصل بين السلطات الثلاث، ورفع نسب معدلات المشاركة الشعبية فى الحياة السياسية العربية، خاصة فى المشاركة بالقرارات التى تتعلق بمستقبلها ومصيرها ومصالحها، وفى القرارات السياسية الهامة والتاريخية، وذلك برفع مستوى وممارسة الحريات السياسية والمدنية والفردية؛ دفعا للإصلاح الحكومى بالتركيز على القطاعات المتضررة والفقيرة التى تتعرض للضغط الأوسع فى حياتها اليومية، ورفع الضيم والتميز عن المرأة وتمكينها، برفع مستويات العمل النسائى الاجتماعى والسياسى. وبهذا المضمار يملك اليسار بأطرافه والتيار الليبرالى التقدمى فرصاً حقيقية لصياغة برامج بديلة، وصولاً إلى البحث عن إمكانية الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى، باعتباره أهم مقدمات الإصلاح السياسى والتحول الديمقراطى التعددى الواقعى والجاد، والكف عن صناعة الحالة الواحدية والتوحيدية العربية.

٤ - إخراج محاولات «تخصيص» الحالة العربية باعتبارها «استثناء» معزولاً عن التجارب الثورية فى هذا العالم، إخراجها من قميص عثمان الحديدى المثقل على صدرها وتنفسها، نحو رحاب المعالجات والحوارات العالمية بذات الغرض، فالأزمة المالية التى ضربت المراكز المالية للنظام الاقتصادى العالمى، وبما أعلنت بوضوح عن نهاية حقبة الليبرالية المتوحشة هى مرشحة للتصاعد، وهى أزمة عالمية بحكم الهيمنة الإمبريالية، وذلك فى اختلالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الطاحنة، وهى بذات الوقت حالة إرهاب إنسانى أسمى مشترك فى تعدد تداعياته.

كما أن مفهوم العدالة والحرية والمساواة والتضامن وحق تقرير المصير هى مفاهيم إنسانية أممية، بما يلزم الإفادة من الترابطات الدولية الأممية المتعددة، ومن الخبرات المالية الاقتصادية فى المعالجات العالمية، وقد

خصص الكتاب حالة أمريكا اللاتينية ونهوضها نموذجاً.

٥. يمر عالم اليوم راهناً بحالة تفكير متجدد، حول النموذج الواقعي الأمثل لدور الدولة وتراطاتها، واليسار بأطيافه معنى أولاً بالتجديد وذلك بعموم أطيافه، كما بحكم منطلقاته ولأنه يملك تجربة كبيرة بهذا المضمار، بحكم برامجه وبحكم أدواته المفاهيمية، من حيث رؤيته المستقبلية للعالم ومن موقع تضامن الضمير الأممي.

الركيزة الثالثة: هي أن حواتمة يعبر عن رؤياه كثوري ومفكر ومثقف، من موقع كونه إنساناً أممياً يسكن هذا الفضاء الإنساني الواسع، ويفسره بدلالاته الكامنة عبر معيار وحيد هو قلب نهر الحياة الإنسانية الجارف، وباستقصاء متطلبات التطور، أما مداده كحالة بنيوية عميقة فهو تجربته وتاريخه وموقعه ودوره، وانحيازاته إلى الانخراط الكلي في عالم الجموع العالمي الثوري، في مواجهة السلطات والمهيمنات المركزية العالمية القائمة وتوابعها هنا وهناك؛ وشعاراتها البراقة، وتبرز هنا لغة الشارح والباحث في هذه الأسباب، ولغة المفسر الباحث عن المعاني في ثنايا الخبرة التاريخية الإنسانية الأممية وبمحدداتها التاريخية، ويبرز هنا ما هو من السياسي، بتعميقه الفكري بحثاً عن الحقيقة.

في هذا كله؛ الذي يعالجه الكاتب ويتصدى له الكتاب، يكشف بأن له في العقل العربي سوابق ومقدمات تاريخية مديدة، في اعتماد تعطيل العقل والنقل. والراهن هو انعكاس مرآة صافية لروح التاريخ العربي قهقرياً، يقدم المعيار الموضوعي للتمييز في تطبيقاته النقدية، كاشفاً عن الدلالات المظلمة فيه، بالمعنى المتقدم على الشكل إطلاقاً، قاصراً جهده على مخاطبة العقل الذي يمثل أعلى الملكات للنفسية الإنسانية، مقارناً الموجودات المحسوسة التي هي بدورها انعكاس للتمثل والأفكار «الرواسب» في بواطن الأعماق، باحثاً عن الجمال الإنساني في رقيه الكفاحي وجمال الروح.

وفي سياق بحثه عن مخارج لمآزق تاريخية مدمومة في ثقافتنا وفكرنا، بتقرير مصير الأشمل بين الحقيقة والواقع، بين الذات والتاريخ، وجميعها في الكتاب تحيط بين إبراز المعضلة والمعاناة؛ والموهبة المتسمة بروح العصر والنهوض فيه، ومسؤولياته التي تفتح أبواب التاريخ العربي المتلاحمة الصدئة،

وعليه فالكتاب كناية عن بيان عربي لمشروع التنوير والحداثة، ومشروع نقدي مكتمل بين فصله النظري وتطبيقاته بالفصول الأخرى؛ بالمعالجات والأفكار الجريئة المتقدمة للواقع العربي الأسن إجمالاً، والمعالجات هي التي تعبر عن قيمة الكتاب، والذي سيكون ناقصاً بما أثاره؛ إن عجز عن تبرير صلته بالموضوع، وهو التغيير والتقدم اليساري... ولليسا

بيان في مشروع النهضة

والتنوير العربي

إن مشروع النهضة العربية هو مشروع يرتبط أولاً بمرتكزات بناء دولة عربية حديثة راسخة ذات مشروع سياسي تاريخي؛ تسهم في ترسيخ قيم المساواة وحرية الإنسان وكرامته، نحو خلق استجابات مجتمعية عامة لتواليات التطور في كل شيء بما فيها الفنون والجمال، في إنتاج ثقافي ومعرفي وجمالي متعدد المصادر؛ بروح لرؤية إنسانية عقلانية منفتحة على العلم والعالم، لا مكان فيه لآليات الإقصاء والاختزال والطمس والحذف في النسق البنيوي للثقافة، وفي صيرورة تركزها في منظومة الهوية المعبرة عن الاجتماع والاجتماعي.

وعليه؛ فإن مشروعاً سياسياً تاريخياً حديث، يبدأ أولاً بالخروج من «مآزق الديمقراطية العربية» التي تعطل الحراك السياسي، وتراكم إعادة إنتاج الإخضاع عبر القوالب الجاهزة المقطوعة الصلة بالواقع، فإن الحال تفضي إلى توليد تطرفات قصوى انحطاطية، واستقطابات حادة للديني اليميني المذهبي السياسي، وللقومية والإثنية العرقية في الهويات الفرعية. إن هذا المشروع السياسي الثقافي النقدي هو ما يكشف عجز الفكر العربي الرسمي الراهن في توارثاته، وفي تصوره وتمثله عن إنجاز الاجتماع البشري باعتباره اجتماعاً مدنياً؛ يستند على مقولة المواطنة والمساواة والحقوق المدنية، في ارتكازه المنقطع على الحالة المغلقة بالتمثيل الحضري لجماعات محددة، وارتكازها على العنف والإقصاء لكسب الشرعية السياسية، في متواليات إنتاج مفرخة توليد إرهاب دموي أعمى في متواليات التاريخ... نتاج الأفكار السوداء وفقدان الأمل الناجم عن

الافتقار المدنى للدولة، وإنتاج سلطات قيم «بدوية» بطيركية متخلفة... كما تبرز المسألة السياسية الراهنة الأساس في مواجهة المشروع التنويري العربي؛ هو بارتباط وكما هو الدين بالدولة، وما تفرزه من أصوليات شعبوية عدمية سياسية في إشكالية ومآزق البنية الثقافية العربية، وارتباطاتها بالمجال السياسي، وتوليد ما يطلق عليه: «العرف»...

وهذا كله يعنى مصادرة الأسس الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية لإقامة مشروع تنويري عربي فعال؛ في تغيب كامل للاشتراطات الموضوعية والوسائل والحاجات؛ ضمن دولة تعددية صاهرة للحملة قومية تستند على الديمقراطية...

إن هذا التلخيص المشبع بالقراءة للتاريخ العربي ومجتمعاته، يرمى إلى الوصل بالتاريخ، ويرمى إلى إحداث قطيعة مع الثقافة التداولية بامتلاك مفاتيح التطور وآلياته، قطيعة مع الأيديولوجيات المسبقة التي تفتقر إلى العلمية السياسية وعلم الاجتماع الإنساني، نحو الرهان على إنتاج معرفة تتركس في الإنتاج الفلسفي العقلاني للنظم الاجتماعية ولأنساقها القيمية، وإبعاد أية تهويمات وتوليفات مطلقة يقينية، تدعى «الكمال»، وتسعى إلى النبذ والانغلاق وإثارة العصبية بالرفض المستديم للآخر، برفض الاندماج بالحداثة العالمية، ورفض الشراكة والتعدد في بناء الدولة الوطنية المدنية.



إن هذه المناهج والمفاهيم النقدية هي بمواجهة أيضاً مع كل مقيدات التسييس؛ خاصة تلك التأطيرات الشعبوية السلطوية السياسية. الأيديولوجية، التي تقف بالمواجهة من عمليات «الدولة»، ومواجهتها بإطلاق هويات فرعية انحطاطية مذهبية سياسية، ثم إطلاقها وإفلاتها من عقالها، بهدف احتواء قطاعات من المجتمع الأهلى وتحويله حالة طوائفية، بدلا من ترسيخ ثقافة إنسانية مصدرها الإنسان كوجود وتحديث الولاءات، بالتعاقد الاجتماعي المنفتح للتنوع وللخصوصيات المحلية، وبسحب الدولة المدنية من الحقل والمجال الديني. السياسي.

ضمن هذه السيرورات يمكن بناء مجتمعات قوية غير قهرية وهشة، تلك تؤسس ذاتها على العنف بتلاوينه، المفتقدة للتنظيم العقلاني، مجتمعات هشة تابوية تتحكم فيها الأنساق البطيركية الطائفية السياسية والعشائرية والخرافية بثقافات الرثة الملتبسة، التي تعمل على انهيار عناصر المدنية والتحضر الإنساني. وتنفي مفهوم المجتمع كنسق سوسيولوجي، تعجز في التعبير عن الإرادة العامة ودمج المجتمع في إطار سياسي متين من الاستقرار مادياً وروحياً وأفكاراً سياسية حديثة، مرتكزات دولة مدنية حديثة راسخة ذات مشروع سياسي تاريخي، تقراً تاريخها ومستقبلها كجزء من التاريخ العالمي الأممي، وليس بوصفه حالة منقطعة معزولة، وبما يتطلب إمعان الفكر والبحث في الصيرورات التاريخية والأبحاث والدراسات التاريخية والاقتصادية والمنهجيات المعرفية الحديثة، ونقد الجذور للتمثيلات العتيقة البالية المهترئة، الخلاصة الموضوعية لنهاية أشكال الرؤية الأحادية في النسق البنيوي المركزي في الثقافة العربية.

وفي الختام يمكن اشتقاق ركائز أخرى من المهتمين؛ فالكتاب وميض لأكثر من شعلة؛ ولأن نعمة الكشف والانبعاث هي مهمة التنويريين، بتمزيق حجب ونقاب الحياة العربية المانعة للرؤية...

إننا نعيش زمناً عربياً غدت به الحال في كينونته ذاتها مهددة، ونعيش صدمة الانسداد التاريخي... صدمة «الأضداد» حين تفعل فعلها الزمن... صدمة الضاد والناطقين بها... كما نرى من الماء إلى الماء، وحين يهرب أهل الماء عطشاً إلى الرمضاء.

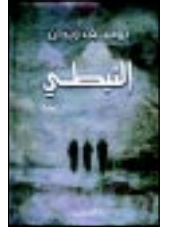
وفيما نحن نرى الوجه والخلف؛ البناء الفوقي والتحتي، نرى وبالأعماق الأبنية التحتية الانحطاطية... كما نرى العتمة والضوء... الحقيقة والكذب... لا نكتفى بأن نصرخ، بل نبدأ بكشف الغطاء... أن نحاول التجسيد في قلب مجرى الحياة، في تجذير أنساق الحياة... الحياة، ومعرفة الكيفية التي ننزع بها الطلاء، فالتحدى الأول عربياً هي الحداثة... والتحدى الأخير هي الحداثة، عبر معرفة استيلاء أفكار عملية بكلام حي ومن أرض الواقع...

هذا هو انفتاح اليسار الديمقراطي العربي على رؤيا النهوض... على فضاء النهوض التاريخي... ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات. ٦٦

النبطي

المؤلف: يوسف زيدان
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، ٣٢٠ صفحة



انتهى الروائي يوسف زيدان من آخر أعماله الروائية «النبطي» وهي تتألف من ثلاثة أقسام «حيوات» وتقع في (٣٢٠) صفحة من القطع المتوسط. يقول د. يوسف زيدان الحاصل على جائزة البوكر «الجائزة العالمية للرواية العربية» للعام ٢٠٠٩ عن روايته الشهيرة عزازيل، إن روايته الجديدة تنزع على المستوي السردى إلى الشعرية، حيث يأتي نصها على لسان الفتاة المصرية (مارية) التي كانت تعيش بكفر من الكفور الصغيرة الواقعة في المنطقة التي نسميها اليوم: محافظة الشرقية.. وهي منطقة كان يعيش فيها العرب (الأنباط) ويتاجرون، من قبل الفتح العربي / الإسلامي لمصر، بزمان طويل. والأحداث الروائية التي تقع زمنياً في العشرين سنة التي سبقت فتح مصر، وفي محيط جغرافى يمتد من دلتا النيل إلى جنوب الأردن (حالياً) مروراً بسيما وبلدة أيلة (إيلات) تحكيها مارية التي خطبها تاجر نبطى ورحل بها من مصر مع إخوته، ثم استقرت بالناحية المسماة اليوم «البيضا» أو البتراء الصغيرة، الواقعة خلف المنطقة الأثرية الشهيرة «البتراء» ذات العمارات المنحوتة في الجبال. وتشهد بطله الرواية بشكل عارض، عمليات التجهيز لغزو مصر، على هامش الوقائع الحياتية المضطربة (والثرية) التي عاشتها بمضارب الأنباط، وهم جماعة كبيرة في حركة الفتوح، كانت لهم مساهمة كبيرة في وعينا المعاصر.. النبطى، هو أخو زوج البطلة، وهو شخصية روائية لإنسان كان يريد أن يصير نبياً.

أحاديث وسير

تقي محمد البحارنة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠١٠
٤٤٨ صفحة



يضم هذا الكتاب مقالات شتى في

شئون الفكر والأدب والحياة، وفي أحوال المجتمع في البحرين، كتبها المؤلف بأسلوب أدبي ممتع لتكون بمثابة واحة للاستراحة من تعب الفكر والفؤاد، وفي سائر فصول الكتاب ندوات أدبية وثقافية وسير لشخصيات رائدة في مسيرة البحرين الثقافية وفي مجال العمل الوطني.

والمؤلف يزيح الستار بأسلوبه المميز عن وقائع أدبية وثقافية وشخصيات كان لها دور ريادي بارز في مجتمع البحرين ومنطقة الخليج العربي. ويعتبر هذا الكتاب (أحاديث وسير) مساهمة في نشر الثقافة والتعريف بالجوانب الفكرية والثقافية في منطقة الخليج العربي، ليكون في موضوعاته زاداً لكل مستزيد.

الفوضى الرتيبة للوجود

هشام البستاني
دار الفارابي ٢٠١٠



في مجموعة «الفوضى الرتيبة للوجود» للكاتب هشام البستاني تواجهنا اللغة منذ البداية مقدمة لنا نفسها ليس كمرشد محايد، بل كحركة فعلية في الحدث، لها ما للشخصيات القصصية من حضور فعلي ومن كاريزما نجومية.

بل إن اللغة عند البستاني تستأثر بالمتابعة فيما قد تتضاءل أهمية الحدث القصصي؛ فهي التي تشكل الشخصيات وعلاقاتها بالزمان والمكان. وقصص البستاني ليست من ذلك النوع من القصص المعتمدة على الحكمة وعلى حركة الشخصيات المؤدية في النهاية إلى الذروة، فهذا النوع من القصص قد تختفي فيه اللغة كعنصر مستقل وتكون وظيفتها سرد المشاهد الحية، مما قد يؤدي للقارئ المتعجل إلى مجاوزة بعض الفقرات أو قل قراءتها قراءة سريعة بغية الوصول إلى النهاية. ولكن عند البستاني تطلب منا قصصه ألا نتعجل، وأن نرتشف المضردات واحدة إثر أخرى؛ فسقوط أي مضردة منها سيكون له أثر سلبي على التتابع السلس للحكاية، بما يمكن أن نسميه ترايباً «سنمأرياً» في لغته إذا صحت التسمية.

يقول البستاني في قصة «سقوط حر في مرآة مهشمة»: «حين أمسك بيدها دافعاً إياها بخفة إلى الوراء، تفاجأ بأن الابتعاد لم يتوقف، بل كان - لدهشته -

يتزايد إلى الجانب وإلى الوراء. نظر بطرف عينه، فرأى نصفه الآخر يبتعد بهدوء مع نصفها «كم أشبهك».

يعيد البستاني في قصصه تشكيل الواقع الاجتماعي عبر تفكيكه وإظهار عوراته، ثم إعادة بناء جديدة قد تبدو للبعض طريقة عبثية أو بلا فائدة، خصوصاً عند أولئك الذين يبحثون دائماً عن «الزبدة» أو المفيد.

والقالب الشكلي عند البستاني لا يبتدأ بالخيال، ولكنه ينتهي به؛ إذ إن الواقع لديه هو الأساس، ولكن فقط ليبنى عليه أحلاماً هو يعلم أنها ستبقى كذلك، وقد تغلب الواقعية أو المباشرة عليه كما في قصة «الفيصلي والوحدات»، وهو ما تعمد الكاتب على الأرجح، فقد أراد أن يلقي علينا قصته كمن يلقي بجيفة تننة بين قوم محتفلين. وقد كان لبعض الإسقاطات الرمزية أن تخفف قليلاً من الوصف الواقعي المباشر لولا شدة التطابق بين ما في القصة وما يعيشه القارئ الأردني.

ولقد تحلى الكاتب بالشجاعة عند إشارته للحليب الأزرق والحليب الأخضر الذي يشربه المتبارون من المشجعين إظهاراً منه لمدى تغلغل العنصرية في العائلة الأردنية.

والبستاني أراد أن لا يدفن رأسه في الرمل إزاء هذه الظاهرة، وهو قد ألقى كل ما عرفه ولا نبوح به إعلامياً على الطاولة أمامنا دفعة واحدة، وهذا قد لا يفسر فنياً؛ إذ إن نشوة اللغة التي انتشرت في الكتاب كله تضاءلت هنا.

وفي صياغته الشكلية استعان الكاتب بالهوامش بطريقة ملفتة للنظر؛ فهو لم يستعمل الهامش كجزء من القصة، فلا يوجد رقم صغير عند كلمة معينة وفي الأسفل شرح أو تعليق، بل نحن نتفاجأ بالهوامش عند نهاية القصة، وأحياناً تكون الهوامش إيذاناً بنهاية القصة، وهذا ما يذكرنا ربما برواية غسان كنفاني التي لم تكتمل «برقوق نيسان»، ولكن الهامش في رواية غسان كنفاني كان عنصراً رئيسياً في الرواية عبر تكوين خلفية لماضي الشخصيات. أما الهامش عند البستاني فهو فقط إيضاح لأسماء ومعان أحياناً تكون علمية، وهذه الخلفية الثقافية التي توضحها الهوامش لا تزيد شيئاً للقصة ولكنها تزيد أشياء للقارئ.

قصص البستاني تشكل ردة فعل إزاء عالم عربي ضعيف متخلف ونمطي من وجهة نظر الكاتب، مما جعلها تضمنت بعض الكلمات النابية، وكان الكاتب أراد أن يهز مشاعر الكسالى بخشونة الكلمات التي تشبه الصفعات. وهو ما يذكرنا بالكاتب الفرنسي «هيبيير» أو الشاعر مظفر النواب حيث تنحو الكلمات النابية أحياناً منحى ثورياً.

كما ذكر بعض الأسماء الوطنية

والعربية والعالمية التي كان لها دور فيما مضى في المقاومة والتغيير لم يتكلم عنها فقط بالقصص والهوامش، بل ونشر صورها أيضاً. ربما بدافع رد الجميل حيناً، وربما لحب الكاتب للتغيير حيناً آخر. وهي أسماء حري بها أن تحضر في جدار الزمن، أسماء مثل: كايد المفلح العبيدات، أحمد المجالي، زياد طنناش، فراس العجلوني، محمد بيك حمد الحنيطي، دلال المغربي، القسام، سعيد العاص، راشيل كوري.

قسم الكاتب مجموعته القصصية إلى أربع مجموعات هي: اضطراب، وغزة، والعبور، وكأنه حلم. وضم تحت كل عنوان من هذه العناوين الأربعة قصتين أو ثلاثاً باستثناء «اضطراب» حيث حوى العنوان اثنتي عشرة قصة.

وقد أهدى الكاتب كتابه إلى ذلك الواقف في المرأة يبحث عن عريه خلف الأسئلة.

الذكورة والأنوثة في لبنان

دراسة في أوساط طلاب الجامعة
غيدا ضاهر
منتدى المعارف ٢٠١٠
١٢٦ صفحة



لا يكتفي هذا الكتاب بالعرض النقدي لبعض التوجهات الكبرى في تناول الذكورة والأنوثة، وإنما يعرض، أيضاً، نتائج عمل ميداني قد تفاجئ القارئ بدلالاتها الثقافية والسياسية.

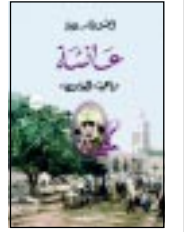
من ذلك أن التعليم الجامعي، بمعارفه كلها، لا يمنع الطلاب من التعلق بأكثر الأحكام التقليدية، وبأكثر الصور تنميطاً، عن الرجل والمرأة. ومن ذلك - وهذا أكثر تجذراً وخطورة - ما تسميه الباحثة «تطيف الذكورة والأنوثة»، إذ تبين لها أن هناك «انشطاراً» ثقافياً في لبنان، وكأن هناك «ثقافتين» مسلمة ومسيحية، تمد كل واحدة منهما «طلابها» بمعايير الذكورة والأنوثة وبأسماء الشخصيات «النموذجية» المجسدة لهما. لقد امتد «التطيف» إلى مجال كهذا، وإلى هذا الحد..

غيدا ضاهر: باحثة اجتماعية، وعضو مجلس أمناء الجمعية العربية لعلم الاجتماع، وعضو الهيئة الإدارية للجنة حقوق المرأة اللبنانية.

عائشة

البشير بن سلامة

القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، ١٩٠ صفحة



رباعية «العابرون» واحدة من أهم روايات الأدب التونسي المعاصر. تدور أحداثها في القرن الذي يسبق استقلال تونس. وتتناول في ذلك تاريخ عائلتين تونسيتين اختار الكاتب من بين أفرادهما أربع شخصيات، وضع على كل رواية من الرباعية اسم إحداها. وجاء ترتيب صدورهما كالتالي: «عائشة» (١٩٨٢)، «عادل» (١٩٩١)، «علي» (١٩٩٦)، «الناصر» (١٩٩٨). «العابرون» بأبطالها وشخصها العديدة هي نوع من التاريخ الروائي للمجتمع التونسي في تلك الفترة المهمة من تاريخ البلاد.

ولدت «عائشة» لأب كان قد انتقل حديثاً من الفقر والضعف إلى الغنى والسلطة بعد ارتباطه بالحكام التونسيين. لكن تلك الحياة الناعمة الهائلة لم تلبث أن انقلبت رأساً على عقب حينما هاجم الاحتلال الفرنسي تونس فغير - أول ما غير - في نفسيات البشر وعلاقاتهم. «عائشة» نفسها وقعت في حب سالم فأفقدتها عذريتها لتظل رهينة ذلك الخوف - الذي يقدم وجهاً آخر لمجتمعنا - حتى جاءت لحظة الزواج من خالد. في رواية «عائشة» نقرأ عن الأنثى صانعة الأحداث ورواية الحكايات التي عادة ما تتخفى وراء الرجال. هنا نرى وجه الأب وهو يكبر فتعلوه الشيخوخة بضعفها من ناحية وجبروتها من ناحية أخرى. وفي الخلفية هناك «عائشة» وإخوتها الذين يكبرون بين أيدينا مع الوقت ومع الحكى.

رقصة شرقية

خالد البري

دار العين ٢٠١٠



من الرواية:

«متى اخترع الإنسان صيغة السؤال؟ وكيف رسم علامة الاستفهام؟ مستديرة في قمتها ومنقوطة في القاع، كعجوز محنية الظهر تخفي مفتاحاً تحت قدميها. علامة الاستفهام امرأة بالتأكيد. انسيابيتها لا تشبه أجسام الرجال المخلوقة على هيئة الأرقام الإنجليزية

الحادة: وان، سيفن وفور. النساء يشبهن ما تبقى: تو امرأة تتوب، سيكس ونابن امرأة تنقلب على سرير القلق، فايف امرأة حبل تنظر إلى المستقبل بترقب، وثري امرأة تستثمر فقط في أنوثتها تتأكل، لكن إيت هي المرأة كاملة الأنوثة، انسيابية وملفوفة ومراوغة ومرنة، دون أذى، ولا سوء طوية. والمرأة من ثم تشبه - حين تكون ممددة كما كاتيا الآن على سريرها - علامة اللانهائي، التي لا يستطيع أحد أن يسبر حدودها. وهكذا هي. حياتها دائرة كبيرة فيها دوائر صغيرة. ربما فقاعات صابون، أو حتى كلبشات، كما قال زوجها السابق. والحمد لله أنها اليوم ستنتقل من هنا، مرة أخرى إلى حياة جديدة، سترمي فيها - كالعادة - القديم وراء ظهرها، كما ترمي الشمس ظلام الليل بكل ما غطى وما كشف، حتى في يوم غائم كذاك، بدا في بدايته أن الحياة توقفت». خالد البري: من مواليد سوهاج ١٩٧٢، حاصل على بكالوريوس الطب ١٩٩٦، يعمل في البي بي سي ويعيش في لندن منذ ١٩٩٩، له كتابان هما: «الدنيا أجمل من الجنة، سيرة ذاتية» عن دار النهار ٢٠٠١، و«دار ميريت ٢٠٠٤ و٢٠٠٩، ورواية «نيجاتيف» دار ميريت ٢٠٠٤.

ديمقراطية جديدة لمجتمع المعلومات

راجي عنايت

دار العين - ٢٠١٠

٢٠٥ صفحة



بعد التحول من العمالة العضلية واليدوية إلى العمالة العقلية والمعرفية، يتغير دور الفرد في مجتمع التعددية الجديدة. فالمؤسسات التعددية الجديدة، هي عبارة عن تنظيمات من «العمال المعرفيين»، هؤلاء العمال المعرفيون تكون لديهم القدرة على الحركة. وهم «زملاء» داخل المؤسسة، ولهم وضعهم الاجتماعي والاقتصادي. كما أنهم يتمتعون بالقوة التفاوضية، النابعة من المساواة الاجتماعية، ومن كونهم يشكلون ضرورة اقتصادية.

ومن ثم، يكون علينا أن نعيد تفكيرنا وتعريفنا بالنسبة لكل من حقوق وواجبات العمالة المعرفية، في المجتمع التعددي، وفي مؤسساته.

ستصبح وظيفة الفرد من بين حقوق ملكيته. واليوم، مضى العديد من الدول المتطورة معرفياً بعيداً في هذا الاتجاه. والمحاكم الأمريكية تنظر إلى وظيفة العامل باعتبارها نوعاً من الممتلكات.

راجي عنايت من مواليد أسيوط ١٩٢٩، حاصل على بكالوريوس علوم ١٩٥١، ودراسات حرة بكلية الفنون الجميلة، له عدة كتب في مجال الإذاعة والتلفزيون، وله عدة سلاسل في الخيال العلمي، وكتب في الدراسات المستقبلية.

القطيعة

خليل النعيمي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



قال عنها محمود أمين العالم: «إن رواية القطيعة تمثل مرحلة مغايرة في الرواية العربية المعاصرة، لا تكتب للحكي أو لتصف أو لتسلي أو لتعظ أو حتى لتنتقد، بل لتنقض وتهدم وتسعى لتحقيق تغيير جذري، وقطيعة كل ما هو سائد في الرواية والفكر والقيمة والبنية الأدبية، وهي لا تسعى، بكتابتها الخشنة المكدسة، إلى إقامة بنية مغايرة مقلقة محرصة على التجاوز، ولهذا قد يصدق عليها هذه التفرقة التي ميز بها كانط بين الجميل والجليل فهي ليست الكتابة الجميلة المتسقة والمحدودة العناصر التي تثير الإحساس بالمتعة، وإنما هي الكتابة الغامضة الضبابية التي تثير الإحساس بالرهبة والعذاب».

تشارلز بلجريف السيرة والمذكرات (١٩٢٦-١٩٥٧)

مي محمد الخليفة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الثانية ٢٠١٠



يروي الكتاب سيرة السيد تشارلز بلجريف الذي ولد في سويسرا، عام ١٨٩٤ وتلقى تعليمه العالي في كلية بد فورد، ولنكلن بجامعة أكسفورد. التحق بالجيش البريطاني في السودان، وعمل في مصر وفلسطين، وكان على مدى عامين الأوروبي الوحيد في واحة سيوة بالصحراء الليبية. عام ١٩٢٥م، وبعد سنين من العمل في مكتب المستعمرات بتجنانيا، استجاب بلجريف لإعلان نشرته حكومة البحرين في جريدة التايمز البريطانية، وبناء عليه تقدم إلى وظيفة المستشار المالي. وعلى

مدى واحد وثلاثين عاماً (١٩٢٦-١٩٥٧) كان «المستشار» من أهم الشخصيات السياسية في البحرين. وكان له أثر رئيسي في تطوير النواحي الإدارية والاقتصادية في هذه الجزيرة.

غادر بلجريف البحرين في ١٨ إبريل ١٩٥٧، وعاد إليها مرة أخيرة في زيارة خاصة عام ١٩٥٦. وكانت وفاته في ٢٨ فبراير ١٩٦٩ في بريطانيا، حيث أمضى هناك سنوات التقاعد.

قراءة النص الديني عند محمد أركون

عبد المجيد خليقي.

منتدى المعارف ٢٠١٠

٢٢٤ صفحة



إن حاجة الواقع العربي إلى مشروع تنويري يسلط الضوء على أدواء الأمة العربية المستديمة، ويحاول إيجاد أدوية ناجعة لاستئصالها، كان عاملاً أساسياً لصدور كتاب قراءة النص الديني عند محمد أركون، لمؤلفه عبد المجيد خليقي، باعتباره قراءة تجديدية حديثة للمشروع الأركوني.

فهذا الكتاب يسلط الضوء على المنهجية الأركونية من خلال المزاوجة بين الدراسة التحليلية للخطاب الأركوني من جهة والممارسة النقدية من جهة ثانية، هذا فضلاً عن إدخال منهج المقارنة بين فكر أركون أو منهجه وبين غيره من المفكرين الآخرين الذين يقاسمونه التصور نفسه. ولتحقيق غايته المنشودة، انطلق البحث من جملة فرضيات ضمنية أو صريحة منها: أن القراءة الأركونية في الدراسات الإسلامية قراءة متميزة قل نظيرها في الفكر العربي المعاصر. كما إن من فرضيات هذا البحث، التنقيب في أدوات الحداثة الفكرية التي وظفها أركون لتقويم التراث. وهذه النقطة لها علاقة بفرضية أخرى تقوم كذلك على تصور أركوني جديد للإسلام يتجاوز التصور الأقنومي له.

في الكتاب قسمان وتسعة فصول مع خلاصة، ومقدمة واستنتاجات ثم خاتمة تركز على أهم الخلاصات والنتائج التي توصل إليها المؤلف في كتابه.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو في الأصل موضوع رسالة جامعية تقدم بها المؤلف لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت إشراف الدكتور محمد سبيلا.

Islamic Law and Civil Code
القانون الإسلامي والتشريع المدني
Richard A. Debs
AUC Press 2010



يتتبع ريتشارد دبس في هذا العمل البحثي تطور القانون في مصر الحديثة على اعتبار أنه تطور يحدث في مجتمع إسلامي فرض عليه الغرب شروط ومبادئ التقدم في العصر الحديث. ويركز دبس تحديداً على مصر ومؤسساتها القانونية الحديثة والتي تستقي قواعدها من التقاليد القانونية الراسخة، بينما تشكل قوانين حديثة في نفس الوقت. ويفحص دبس قضايا مشتركة بين كل الدول التي تبنت، سواء طوعية أو بالضرورة، الأنظمة القانونية الغربية. وي طرح فكرة أن الهجين المصري الفريد من العناصر التقليدية والغربية هو نتيجة لمجهودات أرادت أن تتفاعل مع الأهداف القومية للبلاد ومتطلباتها. إن القانون التقليدي في مصر هو الشريعة وهو الأساس لكل التشريع في المجتمعات الإسلامية. يركز المؤلف على قوانين الملكية ليوضح مدى تعقيد التشريع الإسلامي الذي هو في الوقت نفسه منطقي وفاعل وقد تم تطويره عبر القرون ليقدم احتياجات مجتمعات ازدهرت في ظل حكم القانون.

Access to Knowledge in Egypt
New Research on Intellectual Property Innovation and Development

الوصول إلى المعرفة في مصر:
أبحاث جديدة حول الملكية الفكرية والابتكار والتطوير

Nagla Rizk
AUC Press 2010



يسيطر إنتاج السلع المعرفية بشكل متزايد على الاقتصاد العالمي اليوم كما تتزايد الصراعات التي تهدف للسيطرة على المعلومات. يقدم هذا الكتاب نظرة شاملة للتحديات والفرص التي تواجه

إلى ثورة يقودها البرابرة وأكلة لحوم البشر وأسرى الحرب الذين ينشئون دولة في تحدٍ لأوامر الممالك. ويجد ابن شلبي نفسه مضطراً للعب دور العميل المزدوج في الصراع بين الثوار والدولة.

Music and Media in the Arab World

الموسيقى والإعلام في العالم العربي
Michael Frishkopf
AUC Press



منذ بداية القرن العشرين كان تصعود الإعلام واسع الانتشار أثر على الموسيقى وطرق أدائها في العالم العربي. وقد تبنت صناعة الموسيقى أشكالاً مختلفة من الإعلام بدءاً من أسطوانات الجرامافون وحتى الإيم بي ثري. وكان لكل شكل من تلك الأشكال قوة اقتصادية وسياسية نابغة من الزمن الذي ظهرت فيه تحديداً ومن المنطقة الجغرافية التي بدأت بها الظاهرة. كما أن ثقافة الموسيقى العربية قد تحولت عندما نقلتها تلك الوسائل الحديثة، فقد أصبحت الموسيقى المنقولة عبر وسائل الاتصال الجماعية قوة اجتماعية. ومع أن هذه الظاهرة عالمية إلا أن صداها في العالم العربي لم يلقَ حتى الآن الاهتمام البحثي الكافي. من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يتضمن ١٦ مقالاً بحثياً، توضح تلك الظاهرة خصوصاً الموسيقى المعدة للتلفزيون أو تلك المصورة لتلفزيونياً والظاهرة الخلافية المعروفة بالفيديو كليب. ويقوم بالأبحاث العديد من الكتاب الجدد والكبار المنتمين إلى مجالات بحثية مختلفة. من المهم أن الكتاب يحوي كتابات لنقاد موسيقى مصريين يقدمون نسيج البحث العربي للقارئ الأجنبي. ويتناول المؤلفون قضايا تخص المجتمع العربي المعاصر مثل الجنوسة والجنس والإسلام والطبقة والاقتصاد والقوى ومفهوم الأمة كما تظهر من خلال الثقافة والموسيقى المنتشرة إعلامياً. ويسبب غنى المادة المقدمة في هذا الكتاب فإنه يتجاوز كونه كتاباً عن الموسيقى ويصبح مرجعاً عن المجتمع العربي الحديث. اشترك في الكتاب والتر أرمبرست ووليد الخشاب وتميم البرغوثي وعبد الوهاب المسيري وزين نصار وآخرون.

للمقاومة والتضامن. وقد قام العديد من الفنانين برسم أعمالهم على الجدار ومن أهمهم بانكسي رسام الجرافيتي الشهير، وهو اسم مستعار لشخص مجهول ينفذ أعماله حول العالم في سرية تامة رغم انتشاره ورغم كبر حجم الكثير من هذه الأعمال التي ينفذها بتقنية الحفر. كما يتضمن الكتاب أيضاً أعمالاً لرون أنجليش وبلو وفنانين وناشطين آخرين أجانب وفلسطينيين. وتعتبر الأعمال المنتقاة عن الغضب والتعاطف والسخرية اللاذعة. كما تشرح الصور المعاناة التي سببها الجدار لعشرات الآلاف من الفلسطينيين في حياتهم كما في أرزاقهم وقدرتهم على العمل حيث إنه يقف بينهم وبين الوصول بسهولة إلى أماكن عملهم ودراستهم والمؤسسات العلاجية. ويتضمن الكتاب بالإضافة إلى الصور المرسومة على الجدار، صوراً فوتوغرافية لفلسطينيين ممن يعيشون حول الجدار ويتأثرون به يومياً.

The Time Travels of the Man who sold Pickles and Sweets

رحلات الطرشجي الحلوجي
Khairy Shalaby
AUC Press



يعرف الكاتب الكبير خيرى شلبي بغزارة إنتاجه ليس فقط من حيث العدد وإنما أيضاً من حيث الموضوع؛ فهو يكتب بجدارة عن مختلف محافظات مصر بشكل يجعل القارئ يظنه أقام أغلب حياته في تلك المحافظة. كما أنه على دراية موسوعية أيضاً بالفترات المختلفة من التاريخ المصري، وقادر على تضييق ذلك التاريخ بشكل شيق في روايته أو كتبه. في كتاب «رحلات الطرشجي الحلوجي» يبحث البطل، ابن شلبي، عن وظيفة، ولكنه وفي خلال رحلة بحثه يحدث حوله اختلال في الزمن فينتقل بلا أي سيطرة منه بين الفترات المملوكية والفاطمية والأيوبية وهو يحمل حقيبتيه وساعة يده التي تدله على التاريخ الهجري ويعود أحياناً إلى التسعينيات. في خلال رحلاته يلتقي ابن شلبي بشخصيات تاريخية مثل مؤسس القاهرة جوهر القائد ومسافرين آخرين عبر الزمن مثل المؤرخ المعروف، المقرئ. وبعد أن يفشل في إثارة إعجاب أحد الخلفاء بجهاز التسجيل فإنه يجد نفسه عالقا في القرن الرابع عشر فينضم

The Final Hour

الباقى من الزمن ساعة
Naguib Mahfouz
AUC Press 2010



في سياق ترجمة أعمال نجيب محفوظ للغة الإنجليزية تمت أخيراً في دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة ترجمة رواية «الباقى من الزمن ساعة». وهي كأعمال محفوظ الشهيرة في مرحلته الواقعية، رواية ملحمة تحكي تاريخ عائلة عبر تقلبات الزمن. يبني حامد برهان وزوجته سنية منزلاً في ضاحية حلوان حيث يودون تربية ابنهم وابنتيهما في خلال ما يتوقعون أن تكون حياة سعيدة وهادئة. وتتمثل لهم تلك الحياة في صورة فوتوغرافية التقطت لهم خلال رحلة خلوية في حديقة تطل على النيل في الثلاثينيات. من حولهم تمتلئ الدنيا بالأحداث: ثورات وحروب والسلام مع إسرائيل. تمثل الزوجة سنية ويمثل البيت نفسه الصخرة الثابتة التي تستقر عندها مفاهيم العائلة، بينما يتغير الجميع بشكل أو بآخر متأثراً بالأحداث المتغيرة من حولهم. ولعل الفرق الجوهرى بين تلك الرواية والملحمة العائلية الأولى لمحمود، وهي الثلاثية، أن «الباقى من الزمن ساعة» قد كتبت في أوائل الثمانينيات مما جعل أحداثها تختلف بشكل لا يدع أي مجال للمقارنة بين العملين.

Against the Wall: The Art of Resistance in Palestine

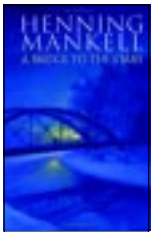
ضد الجدار: فن المقاومة في فلسطين
William Parry ed.
AUC Press 2009



في هذا الكتاب المميز سجل بصري لأعمال الجرافيتي والرسم التي حولت الجدار العازل الذي بنته إسرائيل في الضفة الغربية؛ والذي تسبب في خسائر متعددة للفلسطينيين بالإضافة إلى المضاعفة من الصعوبات التي عانوها خلال تنقلهم بين مدنهم وقراهم؛ إلى توثيق حي

إلا أن اتباعه لا يعد أمراً شاقاً؛ لأن المطلوب هنا ليس ابتلاع الماء في شكله السائل فقط مما يشعر بالملل، بل المطلوب البحث عن كل الأغذية المليئة بالماء وتناولها كالخضراوات والفاكهة والحرص عليها كروتين حياة. ما هي الفلسفة العامة لسر الماء؟ يعد هذا الكتاب نقلة نوعية في فهم تطور عملية الشيخوخة وهذا الفهم يتيح إمكانية تحسين صحة الإنسان بدءاً من المستوى الخلوي لضمان صحة عامة ممتازة وحالة نفسية جيدة ولا تعتمد هذه الفلسفة على حل أو تجنب حدوث مشكلة في الجسم فقط، بل على إعطاء الجسم الصحة الجيدة كسياق عام اعتماداً على مبدأ أن كل خلايا الجسد متصلة ببعضها فإذا استطعنا تحسين الصحة الخلوية فسوف نجني تغيرات جذرية في حياتنا ونستمتع بالشباب طول العمر.

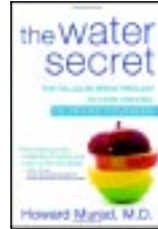
Bridge to the Stars A
جسر إلى النجوم
Henning Mankell
Delacorte Books for Young
Readers 2009 176pp \$8.99



في بلدة معزولة وسط الجبال السويدية تدور أحداث رواية هينين مانكيل «جسر إلى النجوم» حيث تتخلى والدة جويل جوستافسون - طفل الحادية عشرة من العمر - عنه وعن والده في طفولته المبكرة. يقرر الطفل البقاء طوال الوقت منصتاً إلى حكايات والده حول أيام اشتغاله بالمالحة، يولد خياله ويتبرع في جو من صنع أبيه ويحلم بالذهاب إلى البحر عندما يكبر. في إحدى الليالي لاحظ جوستافسون وجود كلب بمفرده في الخارج وتخيل أن هذا الكلب قد ذهب إلى النجوم. صنع الطفل عالماً خاصاً به، وبدأ في التسلسل ليلاً بحثاً عن الكلب. على طول الطريق يتنقل الصبي من بلدة إلى أخرى وفي تنقله يتقابل مع العديد من الشخصيات غير السوية؛ مثل ذلك الصبي الأكبر منه سناً والذي يقحمه في أنواع من النكات والمزاح الذي لا يستسيغه، ووالده الذي يكتشف وجود علاقة بينه وبين إحدى النادلات في حانة داخل البلدة. وبعد محاولة للهروب في مغامرة خطيرة يكتسب بعضاً من البصيرة التي تتيح له تفهماً أكثر لشعور الوحدة لدى أبيه.

The Water Secret: The Cellular Breakthrough to Look and Feel 10 Years Younger
سر الماء: اختراق الخلايا من أجل الظهور والإحساس بعشر سنوات أصغر

Howard Murad
Wiley 2010 272pp \$10.42



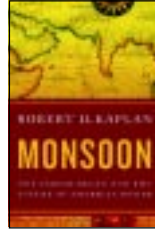
طبيب يعد من أشهر الخبراء في عالم صحة وجمال البشرة يطلقون عليه «عقري الجمال» يقدم هذا الدليل القيم الذي يضم نصائحه للقارئ حتى يبدو أصغر من عمره بعشر سنوات ليس مظهراً فقط ولكن جوهرأ أيضاً. ساعدت فلسفته في عالم الجمال في جعل الرجال والنساء حول العالم يشعرون بالشباب في مختلف مراحل العمر تلك الفلسفة التي تعتمد على «سر الماء»، إنها فلسفة ناتجة عن تجارب تم تطبيقها على ما يقرب من ٥٠٠٠٠ مريض، وكان ذلك محكوماً باستراتيجية علمية مثبتة. يكشف كتاب «سر الماء» عن سر رائع من الأسرار الإلهية «وجعلنا من الماء كل شيء حي» ويتيح للقارئ كيفية استخدام هذا السائل الرائع للحياة بشكل أفضل صحياً ومعنوياً. يعرض الكتاب معلومات قيمة حول تأثير الالتهاب والترطيب وعوامل أخرى على صحة الإنسان، يفسر المؤلف كيف يؤدي تسرب الماء من الخلايا النافذة إلى الظهور بمظهر سيئ ويقدم منهجاً صحياً متكاملاً وشاملاً لإعادة الحيوية إلى الخلايا وتحسين قوتها لبدء أولى الخطوات للحصول على بشرة رائعة. خطة مكونة من عشر خطوات ووصفة للوصول إلى جلد نقي خالٍ من التجاعيد وطاقة وصحة أفضل بشكل عام.

يوجه المؤلف النصيحة قائلاً: «اكتشفوا سر الماء وتعلموا كيف تسيطرون على تقدم العمر بتحسين صحة كل خلية على حدة، غيروا نمط حياتكم وسوف تكتشفون الفرق بعد أسبوع واحد فقط». يجيب الكتاب على بعض التساؤلات مثل: هل تحسين قدرة خلايا الجسم على الاحتفاظ بالماء يحميه من تطور الأمراض المزمنة؟ ليس الماء علاجاً فقط للأمراض المزمنة، ولكنه وسيلة لهيئة المناخ الداخلي للجسم للوصول إلى أفضل صحة لمقاومة الأمراض من خلال تغيير نمط الحياة. يعاني معظم الناس عند اتباع حميات غذائية من أجل إنقاص الوزن. كيف يختلف «سر الماء» عن هذه الحميات؟ بالرغم من أن إنقاص الوزن هو ما سيحدث تلقائياً عند اتباع نظام سر الماء

بالرغم من تعرض الولايات المتحدة لأزمة مشابهة في عام ١٨٠٠ والسنوات العشر التالية والتي عرفت بالكساد الكبير إلا أن الطبقة المتوسطة لم تكن مهددة حينذاك بنفس قدر التهديد الذي تتعرض له الآن. تقدم المؤلف مقترحات لمعالجة هذا التراجع بما في ذلك خلق فرص جديدة للعمل لإعادة بناء البنية التحتية الوطنية والإصلاحات الرئيسية في الإقراض والائتمان وتشديد القيود على البورصة. من تحليلات المشاركة الاقتصادية والسياسية المثيرة للقلق تخشى المؤلفة من أن يكون الحلم الأمريكي قد أصبح مفهوماً قد أتى عليه الدهر.

Monsoon: The Indian Ocean and the Future of American Power
رياح موسمية: المحيط الهندي ومستقبل القوة الأمريكية

Robert D. Kaplan
Random House 2010 384pp
\$17.99



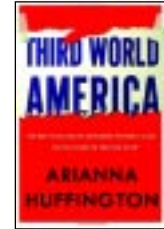
مؤخراً، قام الكاتب والرحالة روبرت كابلان بجولة على حافة المحيط الهندي متفقداً الجغرافيا السياسية له. تتفاوت وجهات النظر حول توازن القوى من دولة إلى أخرى ومن لغة إلى أخرى، ولكن يتفق الجميع تقريباً على أن الهند والصين هما القوتان الصاعدتان في المنطقة. مثلما عكست جولات كابلان حول المحيط الهندي التقاليد في الصين والهند فإنها أيضاً قدمت كشفاً للأنشطة المعاصرة للبلدين في هذا المحيط. الحقيقة الواضحة جداً هي النشاط الدائم من البلدين للحصول على الموارد والمواد الخام في سعيهما التصاعدي نحو النمو. في رحلات كابلان من عمان Oman وباكستان Pakistan وبورما Burma واندونيسيا Indonesia فإن العامل الأهم من وجهة النظر الجيوسياسية هو وصول المواد الخام بأمان إلى الدولة المستهدفة. يستعرض كابلان التهديدات الممكنة للملاحة البحرية مثل القرصنة والصراعات العرقية والسيطرة العدوانية على بعض النقاط الاستراتيجية. يظهر كابلان تفاعلاً حذراً بشأن قيام الولايات المتحدة وغيرها من القوى المهمة بإدارة المحيط الهندي بشكل هادئ وسلمي.

مجهودات انتشار المعلومات والمعرفة في مصر. كتب المقالات الواردة في الكتاب نخبة من الخبراء في المجال، الذين قدموا فهماً عميقاً لكيفية تأثير صناعة المعلومات والابتكار والثقافة في جوهر تقدم الإنسان وحقوقه. وتمزج مقالات الكتاب بين الأساليب النظرية والعملية مما يصنع منه مرجعاً ذا أهمية خاصة للعلماء والباحثين والممارسين في حقول الملكية الفكرية والابتكار عبر العالم. شارك في الكتاب: أحمد عبد اللطيف، حسام بهجت، جاك بالكين، شريف القصاص، نجلاء رزق، شريف كامل، ليا شيفر وربیکا رايتنان.

Third World America: How Our Politicians Are Abandoning the Middle Class and Betraying the American Dream

أمريكا العالم الثالث: كيف تخلى سياسيون عن الطبقة المتوسطة وكيف خانوا الحلم الأمريكي؟

Arianna Huffington
Crown 2010 288pp \$12.62



هل الوضع في الولايات المتحدة يندرج بأنها على وشك أن تكون دولة من دول العالم الثالث؟ جذب هذا السؤال الأنظار إلى ذلك الكتاب الجديد الذي طرحته Arianna Huffington والذي تتناول فيه الكيفية التي كان من خلالها الإسراف في الإنفاق على الحرب على حساب الشئون الداخلية سبباً في تراجع الطبقة المتوسطة بشكل واضح مما يؤكد على أن الولايات المتحدة تفقد استقرارها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، هذا الاستقرار الذي طالما حافظت عليه الطبقة المتوسطة. تشير المؤلفة إلى حقبة ريجان Reagan باعتبارها بداية عدم الاستقرار وبداية انحطاط الشعور بالأمان المستمد من قبل الحكومة ولا تنفي مسئولية حكومتي جورج دابليو بوش George W. Bush وبيول كلينتون Bill Clinton عن توجيه المزيد من الاهتمام للمال والذي كان له الأفضلية عن إحاطة الطبقة المتوسطة بالرعاية والاهتمام. ولا تنكر المؤلفة اتجاه حكومة أوباما Obama إلى الإنفاق الزائد لإنقاذ Wall Street على حساب مصالح المواطنين الأمريكيين. أشارت المؤلفة أيضاً إلى فقدان وظائف التصنيع والاستعانة بمصادر خارجية. تحدثت عن العولة وتحدثت عن غلبة أرباح الشركات على مصالح العمال، كما ذكرت أنه

المستدام، ولكن سوف يتم أيضاً تحقيق أهداف التنمية البشرية والوثام الاجتماعي.

ومن شأن هذا الإطار الشامل أن يعمل على تخفيض قيمة المعاملات على مستوى عالمي بطريقة تؤدي إلى تعالي قيمة الأخلاقيات الاجتماعية القوية مما يؤدي إلى تقليل الاحتياج إلى البيروقراطية وإلى تقلص الديكتاتورية، وفي الوقت نفسه تدعيم البنية الاجتماعية التحتية. يتمتع المؤلفان قراءهما من خلال هذه الجولة الرائعة عبر التاريخ الفكري من خلال تسليطهما الضوء على هذه المساهمات الفريدة للبنية المؤسسية التحتية للمجتمعات في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم).

The H1N1 Influenza Pandemic of 2009 (Public Health in the 21st Century)

وباء الإنفلونزا لعام ٢٠٠٩
الصحة العامة في القرن الواحد والعشرين

Charles R. Bartolotti
Science Publishers 2010
255pp \$115.00

حينما تهب النسيمات الباردة للخريف وبادر الشتاء يتبادر إلى الأذهان أحداث العام الماضي ٢٠٠٩، وما شاع فيه من أسوأ أشكال الفرع والهلع العالمي من جراء انتشار وباء إنفلونزا الخنازير.

هذا العام تختلف اللهجة وسيطر عليها نوع من الاتزان الذي يعطي لهذا المرض حجمه الطبيعي وما يتطلبه من الحذر والكياسة في التعامل معه. يقدم هذا الكتاب ملخصاً للأحداث الرئيسية والإجراءات المتخذة والتي تذرعت بها منظمة الصحة العالمية والحكومة الفيدرالية الأمريكية والحكومات المحلية لتحديد وتخفيف مراحل وباء الإنفلونزا.

فضلاً عن ذلك يتناول الكتاب المسائل القانونية المتعلقة بهذا الوباء بما في ذلك التدابير الطارئة والحقوق المدنية والمسؤولية وقضايا العمالة. يناقش أيضاً استجابة الولايات المتحدة لحالات الإصابة البشرية العالمية والإجراءات الوقائية الواجب اتخاذها للسيطرة الكاملة على هذا الوباء والقضاء عليه.

يتخذ إنسان بمفرده حتى لو كان شديد الذكاء.

Islam and the Path to Human and Economic Development الاسلام والطريق إلى تنمية إنسانية واقتصادية

Abbas Mirakhor Hossein Askari
Palgrave Macmillan 2010
242pp \$68.07



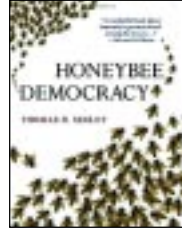
يمثل هذا الكتاب محاولة رائدة في تصور نموذج إسلامي حقيقي للمجتمعات النامية. لقد نجح هذا الكتاب فيما فشلت فيه محاولات أخرى؛ لأنه يجمع بين معرفة واسعة لهذا الموضوع مع رؤية فكرية متماسكة وعاطفة عميقة. إن الغاية التي يسعى إليها هذا الكتاب هي أن يكون معيار العمل في هذا المجال لسنوات قادمة. لأسباب مفهومة وواضحة جداً تكاثرت الأطروحات على الاقتصاد الإسلامي والشريعة الإسلامية والإسلام والإرهاب - وهكذا - في السنوات الأخيرة. تعالج معظم هذه الأطروحات الجوانب الفردية لمؤسسات إسلامية محددة وتنتقد بشدة بعض المؤسسات المعروفة فيما يطلق عليه العالم الإسلامي المعاصر. يقدم عباس ميراخور Hossein Askari وحسين العسكري رؤية نقدية لهذه الدول الإسلامية. ويعد ما يقدمه في كتاب «الإسلام والطريق إلى تنمية إنسانية واقتصادية» مختلفاً بشكل جذري.

إن جوهر ما فعله هذان المؤلفان هو حصولهما على استفادة كاملة من كلام الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه، وقد قدما التعاليم الإسلامية المنبثقة من القرآن والسنة بشكل رائع يؤكدان من خلاله على أن الإسلام بقرآنه وسنته يستطيع أن يوفر الإطار المتناسك والمتوازن والشامل الذي تبني عليه المجتمعات التي تعمل بصورة جيدة حتى هذه الأيام.

إذا تم استخدام الإطار المؤسس للقرآن والسنة كأساس لهذه المجتمعات فإن الفائدة المكتسبة لن تكون قاصرة على تراكم رأس المال - سواء أكان بشرياً أم مادياً - ولا على التطور التكنولوجي فقط كأدوات لتحقيق النمو

Honeybee Democracy ديمقراطية نحل العسل

Thomas D. Seeley
Princeton University Press 2010
280pp \$19.77



تتخذ مملكة نحل العسل قراراتها بشكل جماعي وديمقراطي. تواجهها كل عام مشكلة اتخاذ بيت جديد والانتقال إليه؛ وهي مشكلة حياة أو موت. تعتمد هذه المملكة في بقائها على عملية تتسم بتقصي الحقائق بشكل جماعي ومناقشات نشطة وبناء توافق في الآراء. يكشف لنا عالم الحشرات الشهير توماس سيللي أن هذه الكائنات المذهلة لديها الكثير لتعلمه لنا خاصة عندما يتعلق الأمر بالحكمة الجماعية واتخاذ القرارات الفعالة. كشف علمي رائع وغني هو نتاج عقود من البحث والدراسة قام بها العالم سيللي يؤكد فيه الديمقراطية الجماعية السائدة بين نحل العسل، ويحكي لنا قصة الحوار الديمقراطي بين أفراد مملكة النحل.

في أواخر الربيع وأوائل الصيف وعندما تكون مستعمرة النحل مكتظة تبدأ قيادة الخلية في التفكير في الانتقال إلى وطن وبيت جديد، وبينما تتشغل الملكة الأم مع الوصيفات في إعداد الملكة الجديدة يذهب سرب من النحل يشبه السحابة إلى الموطن الجديد لاكتشافه وتقييمه. ويصف لنا سيللي كيف يقوم هذا السرب بالتواصل والإعلان عن اكتشافاتهم لبعضهم البعض والمشاركة في مداورات مفتوحة واختيار موقع نهائي للخلية.

يرى سيللي أن ما يطبق بشكل جيد في مملكة النحل يلائم الناس إلى حد كبير، فلا بد لأي جماعة تختص بصناعة القرار أن تأخذ في الاعتبار الأفراد ذوي المصالح والاهتمامات المشتركة، ولا بد من سيادة الاحترام المتبادل بينهم، وكذلك يجب التقليل من سيطرة ونفوذ الزعيم؛ فالنفوذ الأهم هو نفوذ الجماعة وليس الزعيم بشكل فردي ولا بد من إيجاد أرضية للحوار والمناقشة وتوفير حلول بديلة، ولا بد من عمل حساب للأغلبية للوصول إلى قرار يعتمد عليه. إن هذا الاستكشاف الرائع لسلوك الحشرات يؤكد على أن ديمقراطية نحل العسل تظهر بوضوح أن مجموعات صناعة القرار سواء كانت في خلية النحل أو بين مجموعة من البشر تستطيع اتخاذ قرارات تتميز بكونها أذكى من أي قرار

Real Kids' Real Stories' Real Change: Courageous Actions Around the World

أطفال حقيقيون، قصص حقيقية، تغيير حقيقي؛ مواقف شجاعة حول العالم

Garth Sundem
Free Spirit Publishing 2010
176 pp \$9.99



تبلي طفل في الحادية عشرة من عمره يعيش في تايلاند، كان السبب في إنقاذ آلاف الأرواح عندما حذر بلدته من قدوم موجة تسونامي.

مليكة طفلة الخامسة عشر ربيعاً قاومت التمييز العنصري في بلدها ألاباما.

جين دومينيك طفل العاشرة الذي انتصر في معركته ضد السرطان الذي سببته له المبيدات الزائدة في الفاكهة والخضراوات.

هاروكا طفلة في الثانية عشرة من العمر ابتكرت آلة لحلج القطن صديقة للبيئة. صبي أمريكي يوفر الحماية للسلاحف المهددة بالانقراض.

طفل يتيم من رومانيا يدافع عن قضيته وقضايا غيره من الأيتام الذين يعانون من الوحدة واليتم. طفل ياباني معجزة استخدم موهبته في الرسم لتضميد جراح العالم، ما سبق هو مجرد جزء من ثلاثين قصة رائعة يضمها هذا الكتاب بين دفتيه، هي قصص لأطفال حول العالم ممن اهتموا إلى أروع الطرق لاستخدام مهاراتهم وقدراتهم لإحداث تغيير حقيقي وتحسين العالم.

ينقسم الكتاب إلى خمسة فصول ويعرض هذه القصص بأسلوب سلس يناسب الأطفال في المرحلة العمرية من التاسعة إلى الثالثة عشرة.

يعتمد الكتاب على قاعدة تقول إن الإنسان إذا امتلك قلباً شجاعاً؛ فهو يمتلك سلاحاً قوياً ورائعاً، كتاب يحتوي على ملف لثلاثين طفلاً استخدموا عقولهم وقلوبهم وشجاعتهم وأحياناً عنادهم من أجل مساعدة الآخرين والقيام بأشياء غير عادية. عندما يتقابل صغار القراء مع أبطال هذه القصص على صفحات الكتاب فقد يكون السؤال الأول الذي يثار في نفس القارئ هو: «أين هو البطل الكامن بداخلي؟».

انظروا إلى إندونيسيا هذا إسلام «آخر»

ألفريد ستيبان و جيرمي مينتشك
Alfred Stepan & Jeremy Menchik

مثل عمر وفتيات ومسلمات تصحيحاً لوجهة النظر المنتشرة التي تزعم أن الشريعة الإسلامية تعوق تقدم النساء بالضرورة.

والواقع أن النساء في إندونيسيا أظهرن كيف قد توفر الشريعة الإسلامية أداة لمكافحة السياسات المعادية للمرأة. على سبيل المثال: نشر رئيس الشؤون الدينية في وزارة الأديان، نصر الدين عمر، وهو من أنصار الحركة النسائية في إندونيسيا - كما يصف نفسه - نقداً واعياً للتحيز ضد المرأة في بعض التفسيرات للقرآن الكريم.

إن الدين يتخلل كافة جوانب الحياة في إندونيسيا تقريباً، بما في ذلك السياسة. ولكن الأحزاب السياسية التي تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية خسرت شعبيتها في الانتخابات المتعاقبة منذ عام ١٩٥٥ إلى عام ٢٠٠٩. ولقد اختفت الأحزاب التي لا تزال تؤيد الشريعة إلى حد كبير أو غيرت برامجها الانتخابية. فبدلاً من محاولة تولى السلطة في الدولة، اضطرت الأحزاب الإسلامية تحت ضغط من النخبين إلى تغيير سياساتها لصالح التعددية في إندونيسيا.

ولعل أفضل طريقة لمساعدة المسلمين ليست محاولة زرع مؤسسات تحمل الطابع الإندونيسي في الشرق الأوسط، أو منح المساعدات للمعتدلين الذين تمنحهم أمريكا موافقتها ومباركتها، بل إن الأمر يتلخص ببساطة في الإنصات عن كثب إلى أصوات الإسلام في إندونيسيا.

ولكن تحقيق هذه الغاية أمر صعب. فحتى الآن لم تتم ترجمة أي من كتابات المفكرين الذين شكلوا أهمية حاسمة في التحول إلى الديمقراطية ومناصرة حقوق المرأة في إندونيسيا - ومنهم عبد الرحمن وحيد، ونورشوليش مجيد، وسيافي معارف، وسيتي مصداح موليا، وماريا أنسور أولفا - إلى اللغة الإنجليزية. ولعل الأمر الأكثر غرابة من هذا أن أيًا من هذه الكتابات لم يترجم حتى إلى اللغة العربية. ■

باختلاف ألوان الطيف، تختلف نظرة الأوروبيين للإسلام. كما هي تطبيقاته ومفاهيمه؛ عربياً وآسيوياً وأوروبياً.. وطبعاً أمريكياً. هذا مقال لباحثين متخصصين في الإسلام والعقائد. يكتبون عن جانب من الصورة ربما لا نراها هنا في شرقنا العربي جيداً

العلماء: جمعية مسلمات، وجمعية فتيات، وجمعية عائشة. وكانت ماريا أولفا أنشور، رئيسة جمعية فتيات السابقة تقدم حججاً قوية رفيعة الثقافة ومستمدة من الفقه الإسلامي فيما يتصل بحقوق المرأة الإنجابية. وبفضل الشراكة بين الدولة والعلماء المسلمين والتي ترجع إلى أربعين عاماً، نجحت إندونيسيا في إنشاء بعض أفضل برامج تنظيم الأسرة وأكثرها نجاحاً في العالم النامي.



وفي كثير من الأحيان تكون هذه التصرفات هدأمة إلى حد كبير. ففى إحدى الحالات الغربية المنافية للعقل بشكل خاص، اضطرت مجموعة ناشطة في مجال الحركة النسائية إلى نشر كتاب يدعو إلى مناصرة حقوق المرأة استناداً إلى تفسيرات للقرآن سراً، وذلك لأن الكتاب كان يحتوي على حجج مؤيدة لحقوق المرأة الإنجابية، وكانت نسبة ضئيلة من تمويل المجموعة آتية من مؤسسة تلقت إعانات مالية من الوكالة الأمريكية للتنمية.

وقد تساعدنا أيضاً حقيقة أن المنظمات الإسلامية أفادت المرأة إلى حد كبير في تفسير النجاح السياسي الذي أحرزته المرأة في إندونيسيا، حيث بلغت المشاركة النسائية في البرلمان ١٨٪ (وهي نسبة أعلى قليلاً من نظيرتها في الكونغرس الأمريكي)، وكانت امرأة، وهي ميجاواتي سيكارنوبوتري، الرئيسة الرابعة للبلاد. وتقدم منظمات رائدة

متسامح. ففى إندونيسيا، تدير مؤسسات إسلامية جماهيرية، مثل المحمدية التي تضم عضويتها أكثر من ثلاثين مليون عضو، ونهضة العلماء التي تضم عضويتها أكثر من أربعين مليون عضو، تدير أكثر من عشر آلاف مدرسة ومئات المستشفيات، فضلاً عن العديد من المنظمات الشبابية، كما تدعم الحركات النسائية. وكل من هاتين المؤسستين لديها اتصالات بأحزاب سياسية تنادى أغلبها بالديمقراطية وتعارض إقامة دولة إسلامية.

والواقع أن سيافي معارف، الرئيس السابق لمنظمة المحمدية، استند إلى القرآن الكريم في تقديم العديد من الحجج المؤيدة للتعددية في مواجهة الطاعة العمياء لفلسفة التشريع الكلاسيكية. كما ظل عبد الرحمن وحيد، الرئيس السابق لمنظمة نهضة العلماء، يدعو طيلة عقود من الزمان إلى احترام التعددية الدينية، وكان يشكل أهمية محورية في حشد المعارضة الديمقراطية للزعيم الاستبدادي سوهارتو. كما دعا مفكر إسلامي ثالث، وهو نورشوليش مجيد، إلى انتزاع صفة القداسة من السياسة في سبعينيات القرن العشرين، كما دعا إلى الديمقراطية الحقيقية المتعددة الأحزاب في التسعينيات، وحث سوهارتو شخصياً على التنحي في عام ١٩٩٨.

كما توضح إندونيسيا كيف يوفر الإسلام الدعم لحقوق المرأة: فأكثر المنظمات نجاحاً بين دوائر المجتمع الناشط في جاكارتا هي تلك التي تستمد الدعم من الأجنحة النسائية في منظمة المحمدية ومنظمة نهضة

■ ■ ■ إن زيارة «باري أوباما» - اسم التديل الإندونيسي للمقيم السابق ورئيس الولايات المتحدة الحالي باراك أوباما - لجاكرتا، المقصود منها، بين أمور أخرى، الاحتفال بإنجازات الدولة ذات الغالبية المسلمة الأضخم على مستوى العالم. فعلى مدى اثني عشر عاماً منذ تحولها إلى الديمقراطية، عقدت إندونيسيا انتخابات محلية ووطنية منتظمة، وأنشأت سوقاً حرة عاملة، وعززت ثقافة التسامح تجاه الأقليات المسيحية والهندوسية والبوذية والصينية في البلاد.

وإندونيسيا هي الدولة الوحيدة بين بلدان رابطة دول جنوب شرق آسيا العشرة التي حصلت على تقييم «حرة» من مؤسسة دار الحرية. وتأتى الفلبين الكاثوليكية وتايلاند البوذية وسنغافورة الكونفوشيوسية في مراتب متأخرة كثيراً عن إندونيسيا فيما يتصل بتوفير الحقوق الديمقراطية الأساسية لشعوبها. لذا فقد نظر صناع القرار السياسى في الولايات المتحدة إلى إندونيسيا باعتبارها نموذجاً بلقية العالم الإسلامى. ولكن ما هي الدروس التي يمكن استخلاصها من الديمقراطية الإندونيسية؟

إن الدرس الأكثر أهمية هو أن المنظمات الإسلامية قادرة على تشكيل العمود الفقري لمجتمع مدنى

Alfred Stepan, a professor of political science at Columbia University and the director of its Center for the Study of Democracy, Toleration, and Religion, is a co-author with Juan J. Linz and Yogendra Yadav of Crafting State Nations: India and Other Multinational Democracies. Jeremy Menchik, a Ph.D. candidate at the University of Wisconsin-Madison, has spent the past two years studying Islam and politics in Indonesia.

ترجمة: هند على